

المعهد العالمي للتجديد العربي

سلسلة ندوات التجديد العربي

حول الحرب الإسرائيلية على غزة

فلسطين من النكبة إلى غزة

فلسطين من النكبة
إلى غزة

إسم الكتاب : فلسطين من النكبة إلى غزة

هيئة التحرير :
1. د. إلهام لطيفي رئيسة التحرير
2. أ. جمال العمله
3. أ. ريم دندشي
4. د زاهر حنني
5. د. عائشة عمران

تنسيق وتصميم 6. أ. كامل أبوعلي

الطبعة : الأولى

سنة النشر : 2024

الناشر : المعهد العالمي للتجديد العربي

لوحة الغلاف : الفنان التشكيلي الفلسطيني يوسف كتلو

إن الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي المعهد وإنما تعبر عن رأي أصحابها.



Instituto de Diálogo para -Global Institute for Arabic Renewal
Renovación Árabe.
Address- Con domicilio en C / Caballero de la Triste Figura,
C.P: 28034, Madrid. 12,
Register No- Inscrita en el Registro Nacional de Asociaciones;
Sección 1 / Numero Nacional; 618550.
0046723780093 Mobil No - Num.Telefono;
Sitio web; -Correo electrónico; info@arabicrenewal.org
www.arabicrenewal.org

بسم الله الرحمن الرحیم

الفهرس

تقديم

جاءت فكرة إصدار هذا الكتاب بقرار من رئاسة المعهد لتوثيق الندوات التي نظمها المعهد حول الحرب الإسرائيلية على غزة وتداعياتها على مستقبل القضية الفلسطينية والعالم العربي، ويضم الكتاب عشرات المحاضرات والمداخلات التي تناولت الحرب من زوايا متعددة، سياسة واقتصادية واجتماعية واستراتيجية وانسانية وغيرها، قدّمها عدد من الأساتذة والمفكرين من أعضاء المعهد ومن خارجه، ويُعد هذا الإصدار واحداً من سلسلة الكتب التي دأب المعهد على إصدارها لتغطية الأحداث الاستراتيجية الكبرى التي تخص الوطن العربي وبما يسهم في إغناء المكتبة العربية بمصادر ذو قيمة فكرية وعلمية.

ومن الله العون و التوفيق

كلمة الدكتور خضير المرشدي

رئيس المعهد العالمي للتجديد العربي في افتتاح الندوة التي عقدها المعهد حول الحرب على فلسطين

الأخوات والأخوة الحضور

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وسط أعاصير الحرب وشلالات الدماء وأزيز المدافع وقصف الطائرات وقتل شعب عربي بريء وتهجيره من أرضه ووطنه، وفي مواجهة مفتوحة مع نظام همجي مجرم متوحش ومستهتر.

يسقط الحديث بلغة الدبلوماسية، ولا قيمة لبيانات إدانة خجولة، إذ لم تعد هناك حاجة لكلمات ناعمة تراعي أحاسيس (مرهفة) لهذا المسؤول العربي أو غيره، ومصلحة هذه الدولة أو تلك، استناداً لحقيقة أن نتائج الصراع والحرب الفاصلة مع الكيان الصهيونى، ومن يقف وراءه من دول الغرب بعامة، والولايات المتحدة الأميركية بخاصة، تتعدى حدود غزة وفلسطين إلى ما هو في صميم حاضر وجود الأمة ومستقبلها بأكملها.

فإذا ما تمكّن جيش الإرهاب الصهيونى –لاسمح الله– من تحقيق أهدافه التي أعلنها في القضاء على غزة ومقاومتها الباسلة في ظل دعم أمريكي وغربي مكثف وصريح ومباشر، فإن ذلك إيذان بفتح شهيته لتحقيق مشروعه في ما يسمى (صفقة القرن) ليمحو بذلك حواضر عربية مجيدة بفعل من تواطأ وتخاذل من حكّامِها.

لكن مقدمات الحرب في صولة طوفان الأقصى التاريخية الجسورة وما تلاها من منجزات المقاومة ممثلة بحركة حماس البطلة وفصائل الجهاد الأخرى وماصاحبها من تضحيات ودماء وصبر ومطاولة وبطولات قل نظيرها في تاريخ الصراع لهي دليل على حتمية الانتصار على هذه الآلة العسكرية الرهيبة، والوحشية المتجذرة في عقول هؤلاء القتلة ونفوسهم، وإن المجد سيصنع من غزة للأمة بأجمعها.

لقد كشفت هذه الحرب تخاذل النظام الرسمي العربي، بل وعرّت ارتباطات بعض مسؤوليه بالصهيونية العالمية وكيانها المجرم، وحرصهم على تسهيل تنفيذ مشروعها

لتدمير كل مراكز القوة في الأمة .. ابتداءً من احتلال العراق وتدميره ومساهمتهم في تمويل هذا الاحتلال، انتهاءً بالحرب الإجرامية الجارية ضد شعب فلسطين ومقاومته الباسلة في غزة، بتواطئهم مع الكيان الصهيونى وتباكيهم على قتلاه دون خجل.

كما وأن هذه الحرب قد فضحت أدعياء ما يسمى محور (المقاومة والممانعة) الذي لم يعد ينظر له الشعب العربي إلا كونه أداة مأجورة لتحقيق مآرب وغايات الولي الفقيه الساعي لاستثمار نتائج الصراع الدموي لصالح مشروعه الأسود الذي يتناغم ويتخادم ويتكامل مع المشروع الصهيوني الأكثر سواداً وإجراماً، بغية تقاسم النفوذ على حساب أشلاء الأطفال والنساء والشيوخ ودمائهم وعلى حساب مصير الدول العربية قاطبة.

في هذه اللحظة التاريخية الفاصلة، فإن أعضاء المعهد العالمي للتجديد العربي، من مفكرين وعلماء ومثقفين وباحثين من الدول العربية كافة، في الوقت الذي يعبّرون فيه عن حزنهم العميق على تلك الأرواح البريئة التي ارتقت إلى بارئها وعلى هذا الدمار الهائل، فإنهم يؤمنون إيماناً مطلقاً بقدرة المقاومة الفلسطينية الباسلة على إفشال هذه الحرب الفاشية ضد شعب فلسطين البطل، وإلحاق الهزيمة المنكرة بالكيان الصهيونى المحتل المجرم، وإن نتائجها رغم الألم والحزن والفقدان والدمار، سوف تغيّر وجه التاريخ وترسم معالم مستقبل فلسطيني وعربي جديد خالٍ من عصابات صهيونية إرهابية مجرمة ومن أعوانها والمتباكين عليها، مما يفرض على كل عربي شريف أن يهبّ لإدامة زخم المعركة بما يملك من إمكانات، والمبادرة بتشكيل فرق لنجدة غزة والأقصى مادياً ومعنوياً وسياسياً وإعلامياً .. وينبغي على المؤسسات الدينية في الوطن العربي إعلان التطوع لمن يستطيع المساهمة في المعركة نجدة لفلسطين وغزة والأقصى والقدس الشريف.

وبعد أن يئسنا من وقفة مشرفة من حكام الدول العربية ولو بحدودها الدنيا، ذلك بمقاطعة العدو الصهيوني، وإغلاق سفاراته ومكاتبه وطرد ممثليه، والتلويح بقطع ضخ النفط إلى الكيان والدول الداعمة له، نتوجه بخطابنا إلى شعب غزة المكافح الصابر والمضحي وإلى رجال العز والكرامة في غزة وفلسطين كلها، ونقول :

أيها الأشقاء الأفذاذ إنكم بفعلكم الأسطوري هذا، تكتبون ملحمة الخلود الكبرى لشعبكم وأمتكم ولنا جميعاً – نحن العاجزين عن نصرتكم والمقصّرين بحقكم، بفعل فاعل

تعرفونه جيداً، فالحق يقتضي والشرفُ أن تختلط دماؤنا بدمائكم، وتتلاقى أرواحنا بأرواحكم في أديم السماء بين يدي رب رحيم، لقد أعطيتم الإنسانية درساً في الأخلاق والفداء والتضحية بأغلى ما يملك الإنسان دفاعاً عن الأوطان والأرض والإنسان وانتزاع الحرية والحقوق، وإنكم تصنعون مجداً عظيماً لأمة لن يرحم التاريخ حكّامها عندما تخلّوا عن أداء واجبهم في لحظة الحقيقة.

واعلموا أيها الأبطال أن انتصاركم الحتمي والأكيد على أعداء الله والحياة والإنسانية، سيبعث الروح في هذه الأمة من جديد، ويعيد لها الأمل في مستقبل أنتم صانعوه بدمائكم وصبركم ومطاولتكم وبطولاتكم .. وما النصر إلا من عند الله العزيز القدير.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وحدة الدراسات السياسية والاستراتيجية

7 أكتوبر وإخفاقات نظرية الحرب الصهيونية وجهة نظر شخصية تحليلية

د. عبدالوهاب القصاب

مقدمة

فاجأت حماس الكيان الصهيوني والمنطقة والعالم بضربة مفاجئة اخترقت فيها قوات حماس على نحو غير مسبوق وربما لأول مرة منذ اتفاقات هدنة 1949 الأراضي التي احتلها هذا الكيان من أرض فلسطين العزيزة والتي أنشأت فيها "إسرائيل" نطاقاً حمايوياً خارج حدود غزة التي أجبرت المقاومة (إسرائيل) على مغادرتها عام 2007. كلفت "إسرائيل" قوة عسكرية قوامها فرقة آلية بمهمة الدفاع عن حدود الكيان بما هو موجود في هذا الغلاف من منشآت أمنية وتجسسية.

نجحت المقاومة بتحقيق ثلاثة أهداف في هذه الضربة المباغتة وهي:

- تحرير أراضي فلسطينية محتلة منذ العام 1948
- إسقاط فرقة حماية غلاف غزة بقوتها المدرعة من دبابات وعجلات قتال مدرعة وأسر بعض جنودها وضباطها.
- الإنجاز الأكبر هو السيطرة على موقع أمني من الدرجة الأولى ومصادرة جميع ملفاته بما تحتويه من أسرار عالية المستوى ونجاح قوات حماس المهاجمة بالانسحاب مستصحبة معها كل الأرشيف السري للموساد والشاباك والخاص بالتجسس على قطاع غزة، وأسماء العملاء الذين يتعاونون مع هذين الجهازين الأمنيين الصهيونيين ومؤسسات أمنية أخرى.

وفضلاً عن ذلك نفذت حماس والجهاد الإسلامي هذه العملية بسرية مطلقة، لم يلتفت إليها الكيان الصهيوني ومؤسساته، برغم ما أشيع من أن مؤسسة أمنية لدولة عربية على علاقة مع الكيان قد حذرت نظيرتها من أن عملية ما سيتم تنفيذها ولم تصدق تماما كما حصل في عملية العاشر من رمضان (6 أكتوبر 1973).

حققت المقاومة الفلسطينية في هذه العملية التي أطلقت عليها "طوفان الأقصى" والتي أثبتت بحق إنه طوفان فعلي ضرب نظرية الأمن الصهيونية بمقتل.

الاعتبارات الجيوبوليتيكية

إذا ما أخذنا الاعتبارات الجيوبوليتيكية بنظر الاعتبار فإن فلسطين التاريخية تمثل رابطا محوريا بين كل من أسيا وأفريقيا من جهة وبشكل أكثر تحديداً بين جنوب وشرق البحر المتوسط، فهي تاريخيا كانت تمثل نهاية خط البخور التجاري بين جنوب الجزيرة العربية وبلاد الشام، فهي أحد موانئ التجارة المتوسطية ومحطة للتبادل التجاري بين أوروبا والجزيرة العربية ومنها إلى الشرق الأقصى. فغزة هنا تمثل بوابة مصر من جهة، وبوابة الجزيرة العربية من جهة أخرى، والمنفذ باتجاه العراق من جهة ثالثة. غزة أول ميناء مهم يقع على الطريق الساحلي الروماني القديم الذي كان يربط بين الإسكندرية والإسكندرونة بوابة بيزنطة.

وإذا كانت هذه الاعتبارات صالحة بمحتواها التاريخي فإنها قد أصبحت أكثر تعبيراً مع بدايات الأطماع الصهيونية، وتآمر بريطانيا على سلامة وحدة الأراضي العثمانية بعد أن تخلت حكومة اللورد سالزبوري عن ضمان وحدة التراب العثماني، وتدخل بريطانيا واسع النطاق في الأراضي العثمانية في مصر والخليج العربي واليمن والجنوب العربي، ومن ثم احتلالها للعراق وبلاد الشام وإعلانها لوعد بلفور سيء الصيت الذي مهد عملياً لفصل مشرق الوطن العربي عن مغربه وفصل التواصل البري الجغرافي بين آسيا وإفريقيا، وبضمنها قطع الطريق البري والسككي بين أوروبا وآسيا وإفريقيا. وهنا تكمن الوظيفة الجيوبوليتيكية الفائقة التي حققها شتل الكيان الصهيوني في هذا الموقع المتميز من العالم.

من كل هذا يتبين لنا التعقيد والتغير الجيوبوليتيكي متعدد الطبقات الذي تعرض له الوطن العربي بجناحيه نتيجة شتل الكيان الصهيوني بإرادة بريطانية في قلب الوطن العربي، وهو الأمر الذي خلق كل هذه التداعيات التي عشناها ونعيشها وسنعيشها طالما بقي هذا الكيان مشتولا بشكله العدواني في قلب وطننا وأمتنا مشكلا عامل إقلاق

لكل من الأمن القومي العربي ككل، والأمن القومي للأقطار العربية منفردة، وطالما وجد هذا الكيان هذا الدعم اللامحدود من قوى الغرب وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا و دول أوروبية أخرى، ولقد أثبت موقف هؤلاء من عملية طوفان الأقصى صدقية هذا الاستنتاج. وهذا أمر تسبب في عدم اتزان علاقات العرب والغرب رغم الانحياز الملحوظ لأنظمة الحكم العربية للغرب.

يتبين لنا من ذلك أن ثمة تخادمات بين أنظمة عدوة للوطن العربي تجمع كلها على معاداة وطننا وأمتنا رغم تباين دوافع كل منها، فدوافع إيران لا تتطابق بالتأكيد مع دوافع الكيان الصهيوني، ودوافع هذا الأخير لا تتطابق مع دوافع الولايات المتحدة ومن ورائها الغرب. من هنا سنحاول أن نحلل ما جرى في 7 أكتوبر 2023 من هجوم المقاومة الفلسطينية من غزة على إطار غزة المحتل.

كيف تنظر إسرائيل لنفسها في "الإقليم"

في ورقة ضافية كتبها لمعهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى المعروف اختصاراً ب (WINEP) كتبها كل من غدي آيزنكوت وغابي سيبوني، يرى الكاتبان أن ثمة عوامل متعددة تجعل المجتمع الدولي يولي اهتماما كبراً بإسرائيل، وهي:

- الطاقة
- طرق التجارة
- تصدير عدم الاستقرار
- شعور بالقيم المشتركة
- الأماكن المقدسة

نظرية الأمن القومي الصهيوني

ترتكز نظرية الأمن الصهيوني التي لم تتغير منذ نشوء هذا الكيان حتى الآن على المرتكزات التالية:

- الاستباق ونقل المعركة لأرض العدو

- المعلومات والاستخبارات
- التفوق بنوعية القتال والمقاتل
- تحييد التهديد الخارجي. وقد نجحت إسرائيل بذلك بعد اتفاقات كامب ديفيد ووادي عربة وإخراج العراق من معادلة القدرة بعد إخراجه من الكويت وتدمير قاعدته التصنيعية وقواه الرادعة (ربما يكون العراق هو البلد الوحيد الذي استهدف الداخل الإسرائيلي في كل المجابهات (في 1967 ضربت القاصفات العراقية تو 16 ناتانيا وفي 1991 ضرب العراق الداخل الصهيوني ب 30 صاروخ بالستي
- تحييد التهديد الداخلي وهو ما فشلت به إسرائيل فشلا ذريعا نتيجة هجوم المقاومة الفلسطينية الأخير حيث تم اختراق كل النقاط الأساسية التي تشكل مرتكزات نظرية الأمن القومي الصهيوني وأولها إسقاط الاستباق ونقل المعركة إلى أرض العدو.

الولايات المحدة الأمريكية – مصالحها ونواياها

ندرك جميعا بأن الولايات المتحدة الأمريكية بصفتها القوة الأعظم عالميا لحد هذه اللحظة مهما قيل من تصاعد وتنامي قدرات الآخرين لذلك فإن أسس ومرتكزات الأمن القومي الأمريكي تتحول من محلية إلى كونية ومن هنا جاءت حرب إسرائيل على غزة في مقدمة خمسة أهداف وضعتها الإدارة الأمريكية كتحديات للأمن القومي لهذا العام وهي :[3]

- توسع حرب إسرائيل –حماس
- النزاع حول تايوان
- توسع الحرب الروسية الأوكرانية
- الجمعات المتطرفة المحلية
- التدخلات الخارجية في الانتخابات

يفسر هذا أسرار الانحياز الأمريكي الأعمى لصالح الكيان رغم أن موقف بايدن هذا قد بدا أنه ارتد على توقعات حملته الانتخابية، إذ هدد العرب والمسلمون بعدم التصويت له مما سيهدد من فرص إعادة انتخابه، وبهذا سيكون لأصوات العرب والمسلمين ومن

سيناصرهم من شرائح الشباب في المجتمع الأمريكي التي لم تعد تستهويها طروحات معاداة السامية وأهمية إسرائيل لأمن الولايات المتحدة، ولعل من أكبر الدلائل على هذا التحول المرتجى فوز مشروع قرار قدم لمجلس مدينة شيكاغو إحدى أكبر المدن الأمريكية ينص على طلب وقف فوري لإطلاق النار في غزة ويتعاطف مع معاناتها[4].

الأطراف الأخرى

وإذا ما استعرضنا انعكاس العناصر نفسها أعلاه على الأطراف الأخرى، سنجدها تتطابق ما عدا الفقرة الخامسة بالنسبة للولايات المتحدة. وبالنسبة لإيران فإنها تدعي بنفس العوامل السابقة التي تعزز قيمتها وثقلها في الإقليم وهو استنتاج وظفته لنفسها ولمشروعها الامبراطوري في المشرق العربي، بحيث أقنعت أطرافا عربية بالتماهي مع مشروعها من جهة، وجعلت أطرافا عربية أخرى تتبنى خطاً داعماً لمشاريعها إيماناً منها أنه بعد انهيار المشاريع القومية العربية بانهيار الرادع العراقي وغزوه واحتلاله، لم يتبق لهم إلا المشروع الإسلامي الذي تصدى الخميني لقيادته وقدم نفسه للمتعطشين للإسناد والدعم، فانضووا تحت لوائه ولو من ناحية التخادم ومن هؤلاء الإخوان المسلمون الذين تحالفوا مع إيران أو وجدوا فيها حليفاً محتملاً.

من هنا جاء تخادم النظام الإيراني ومعه الإخوان المسلمون مع مشروع الغزو الأمريكي لأفغانستان ثم للعراق عام 2003 وكان الإخوان المسلمون العراقيون جزءاً من مؤتمر لندن للمعارضة العراقية السيئ الصيت الذي خطط لاستلام السلطة من الأمريكيين بعد غزوهم واحتلالهم للعراق ربيع 2003 كما شهدت حقبة الغزو الأمريكي فتح الأبواب لإيران تحت رعاية الأمريكيين وإدارة الظهر للدول العربية المجاورة وتأسيس مرحلة تتضمن الحقد على العرب.

كانت حماس تعتمد على إيران بإمدادها للأسلحة إبرة منظومة أنفاق شيلتها في غزة وصولا إلى سيناء وكان نظام الرئيس الراحل حسني مبارك يتعاطف ويغض الطرف عنها، وكذلك تعاطف وساعد نظام الإخوان المسلمين في عهد الرئيس الراحل مرسي بإمداد وتسهيل مرور الإمدادات إلى حماس. تجد حماس أو تيار معين من حماس

ارتباطا ما مع إيران، رغم أنها ملكت أسرار صناعة الصواريخ والمسيرات وامتلكت خبرة عسكريا مهنية أتاحت لها التخطيط الجيد ومنظومة جيدة لجمع وتحليل المعلومات عن العدو الصهيوني. ولحد الآن لا يمكن الجزم بأن إيران قد نسقت هجوم 7 من أكتوبر مع حماس، أو أنها كانت تدفع لتنفيذ هذا الهجوم أو أنها دعمت ووعدت باستمرار الدعم بعد تنفيذ الهجوم، الأمر الذي شجع حماس على أخذ هذا الخيار على عاتقها بأمل أن المساعدة الإيرانية ستكون في متناول اليد بعد نجاح الهجوم وأن حزب حسن نصر الله في لبنان سينضم لهذه المجابهة عندما تحتدم لكن إيران سرعان ما تبرأت من هذه العملية تبعها حسن نصر الله مما وضع حماس بموقف لا تحسد عليه.

ذلك أن غزة ومواطني القطاع قد جابهوا وحدهم ليس الجبروت الصهيوني وحده بل والحلف الغربي الناتو بقيادة الولايات المتحدة التي أسرع رئيسها لزيارة إسرائيل فور تنفيذ حماس لخطتها وأعلن متباهيا وبلا حياء أنه لو لم تكن ثمة إسرائيل لخلقنا إسرائيل.[5] وتبعه رئيس وزراء بريطانيا وفرنسا وألمانيا وغيرهم من زعماء الدول الغربية ولم يجد الفلسطينيون معهم أحداً، ذلك لأن الحكام العرب قد تقاعسوا هم الآخرون ربما خشية من الولايات المتحدة أو حقدا على الإخوان المسلمين متناسين بأن من يقاتل في غزة الآن هو الشعب الفلسطيني وليس الإخوان المسلمون.

الحوثيون

بعد أن تبرأت إيران وأنصارها من هجوم 7 من أكتوبر قررت دفع ذيولها في المشرق العربي للاحتكاك مع الكيان الصهيوني بشكل موارب، من هنا شاهدنا بعض ضربات حزب الله في لبنان والحوثيين في اليمن الذين تدخلوا وعرقلوا الملاحة في البحر الأحمر وهو إجراء استعدى الصين وكذلك روسيا وكل الدول التي تعتمد على خط الإمداد البحري العابر لقناة السويس والبحر الأحمر ومضيق باب المندب الأمر الذي ساعد الولايات المتحدة لتشكيل تحالف دولي والتدخل ضد للحوثيين في البحر الأحمر. هنا أيضا تبرأت إيران مما يقوم به الحوثيون ونفت أي صلة بينهم وبينها بما يخص هذه الهجمات.

لا ندري إن كانت كل هذه المؤشرات الواردة من إيران ستساعد العناصر العربية الموجودة في حماس وفي حزب الله وفي الحركة الحوثية على فهم مرامي إيران التي لا يهمها إلا مشروعها القومي التوسعي الذي تريد تحقيقه عن طريق التماهي والتخادم مع الغرب وهو أمر معروف عن نوايا الخميني مؤسس النظام الإكليروسي الكهنوتي في إيران، فهنالك ثمة تصريح معروف للخميني مفاده أن أمن النظام الإيراني أهم حتى من قتل الإمام المهدي على أهمية عقيدة المهدي في التشيع الإيراني. إن النظام الإيراني الحالي أهم كثيرا من المهدي فكيف سيفهم أتباع إيران موقعهم من هذا النظام الذي لا يأبه إليهم ولا يعبأ بهم.

المليشيات العراقية

من المهم هنا أيضا الإشارة وبشكل واضح إلى أن بعض الميليشيات العراقية التابعة للولي الفقيه، تستهدف الولايات المتحدة ووجودها في العراق وسوريا بضربات في طائراتها المسيرة أو بصواريخها، وكانت الولايات المتحدة أو الإدارة الحالية في الولايات المتحدة المعروف عنه تعاطفها مع إيران، تغض الطرف عن كثير من هذه الهجمات وتكتفي بتهديدات لفظية جوفاء، لم تكن تردع هذه الميليشيات التي تنفذ هي الأخرى مخططا إيرانيا يسعى للضغط على الولايات المتحدة لفتح باب التفاوض مع الإدارة الأمريكية الديمقراطية الحالية لحل الإشكالات العالقة بين الطرفين، خشية وصول إدارة جمهورية يرأسها ترامب الذي لا يكن ودا للإيرانيين.

تحولات الرأي العام العالمي

لعل من إيجابيات انطلاق غزوة طوفان الأقصى هو التحول البارز في اتجاهات الرأي العام العالمي، وهو أمر أظهرته مظاهرات واسعة النطاق في العديد من مدن العالم وبضمنها الولايات المتحدة الأمريكية، بغض النظر عن موقف حكوماتها وهو أمر أضحى ضاغطاً على تلك الحكومات.

ومن التطورات الإيجابية في هذا الصدد الشكوى التي تقدمت بها جنوب أفريقيا ضد إسرائيل أمام محكمة العدل الدولية والتي تطالب بها بإدانة إسرائيل بجريمة الإبادة الجماعية وهو أمر مبشر بأن هذه الدعوى تتبع مساراً إيجابياً.

ومن التحولات المهمة تحول أنماط التصويت في الجمعية العامة للأمم المتحدة وتراجع حظوظ الولايات المتحدة إلى تصويت عشر دول تأييداً لمواقفها حيال القضية الفلسطينية معظمها جزر نائية لم يسمع بها أحد.

الخاتمة

أصبح من الواضح بعد عرضنا لوجهة نظرنا الشخصية التحليلية كم أن غزوة طوفان الأقصى ليوم 7 تشرين الأول أكتوبر التي ستدخل تداعياتها الشهر الخامس درجة الخلل الذي أحدثته في نظرية الأمن القومي الصهيوني التي لم تنجح حتى الآن في استعادة توازنها رغم مرور أربعة أشهر على انطلاق هذه الغزوة.

ضحيتان للعدوان الإسرائيلي على غزة: الفلسطينيون والقانون الدولي الإنساني

د. ناصر زيدان

لا يمكن تصنيف الأعمال الحربية الإسرائيلية ضد الفلسطينيين واللبنانيين في غزة والضفة وجنوب لبنان على أنها دفاع مشروع عن النفس، وقد تخطت المجازر التي ارتكبتها آلتهم العسكرية كل الحدود، وفاقت في وحشيتها ما فعلته النازية في أربعينيات القرن الماضي، بدليل تعمُّد قصف وتدمير دور العبادة والمستشفيات والمدارس وقتل الصحافيين ومنع إيصال الطعام والشراب للمحاصرين، وحرمان الجرحى والمرضى من الدواء، بل والانقضاض على بعض الجرحى في أسرتهم وقتلهم عمداً.

يعطي ميثاق هيئة الأمم المتحدة للعام 1945 الحق للشعوب الواقعة تحت الاحتلال بالمقاومة واستخدام العنف لتحرير أرضها، كما يعطي للدول الحق بالدفاع عن نفسها إذا ما تعرَّضت للعدوان. ما حصل في غزة صبيحة 7 تشرين الأول (أكتوبر) 2023 كان عملية مقاومة مشروعة لفلسطينيين يعيشون حالة إذلال في سجن نصبه الاحتلال وأحاطته إسرائيل بجدار سميك، وتوقعت ألا يستطيع فلسطينيو غزة – من أهلها ومن المهجرين إليها من مناطق فلسطينية أخرى، وعددهم قد يصل إلى المليونين ونصف المليون – من اختراقه مهما بلغت قوتهم. وقد تمكن المقاومون من اختراق الجدران، وأسر وقتل عدد كبير من جنود الاحتلال، وصودف أن مواطنين إسرائيليين ومن جنسيات مختلفة كانوا يحضرون حفلة فنية في موقع عسكري إسرائيلي مكان حصول العملية؛ أصابهم أذى، ولكن الأسرى منهم حظوا بكل عناية من المقاومين الفلسطينيين، كما اعترف أمام الشاشات من خرج سالماً من هؤلاء.

أما ردة فعل إسرائيل؛ فلم تكُن دفاعاً عن النفس كما حاول بعض القادة الغربيين الإيحاء به، بل قامت قواتها التي ينطبق عليها صفة "قوات احتلال" بموجب القرارات الدولية – لاسيما القرار الصادر عن الجمعية العامة رقم 1948/194 وقرار مجلس الأمن الدولي رقم 1967/242 – بعمليات عسكرية وحشية، استهدفت المدنيين والأطفال والنساء، ودمَّرت الأبنية والمنشآت الخدماتية والتعليمية والصحية والدينية بطريقة لم تحصل من قبل في التاريخ، وهي لم ترد على العملية التي قام بها المقاتلون

الفلسطينيون كما تدَّعي فقط. وقد استخدمت في عدوانها أسلحة محرَّمة دولياً، وقامت بمنع السكان المدنيين من الوصول إلى الموارد التي تضمن بقاءهم على قيد الحياة، كما قصفت الأماكن الآهلة من دون أي تمييز بين المدنيين والمقاتلين، وكل هذه الأعمال تعد جرائم دولية، وينطبق عليها ما جاء في معاهدات جنيف الأربعة للعام 1949 وملحقاتها، والتي تحدثت بالتفصيل عن جرائم الإبادة والجرائم ضد الإنسانية وجرائم الحرب وجرائم العدوان، خصوصاً ما ورد في الإتفاقية الرابعة التي تحدثت عن حماية المدنيين إبان فترة الحروب. ومن الثابت بالوقائع والصور والتقارير، أن إسرائيل ارتكبت هذه الجرائم الدولية بالفعل ومن دون أية شكوك، وميثاق روما للعام 1998 والذي أنشئت بموجبه محكمة الجنايات الدولية التي أصبحت قيد العمل الفعلي منذ شهر تموز/ يوليو 2002؛ يفرض على مدعي عام المحكمة أن يتحرَّك تلقائياً لملاحقة المرتكبين، حتى ولو كانت إسرائيل ليست عضوة بالمحكمة، وهو كان قد تحرَّك في السودان عام 2009، وأصدر مذكرة توقيف بحق الرئيس السابق عمر حسن البشير، كما تحرَّك في ليبيا وأصدر مذكرة توقيف بحق سيف الإسلام القذافي ابن الزعيم الليبي الراحل معمر القذافي بتهمة المشاركة في جرائم حرب وجرائم إبادة، ومن دون ادعاء من دولة عضوة، والدولتان المذكورتان لم تكونا عضوتين في ميثاق المحكمة. وهذه الوقائع تؤكد أن المحكمة الدولية تتعامل بمعيارين مختلفين تحت سقفٍ واحد، لأنها تتجاهل عمداً معاقبة مجرمي الحرب في إسرائيل.

ارتكابات إسرائيل التي فاقت كل تصور، وأدت إلى تدمير أكثر من 200 ألف وحدة سكنية وإلى استشهاد أكثر من 27 ألف فلسطيني، وجرح ما يزيد عن 65 ألف من المدنيين الأبرياء(حتى الآن)؛ تحظى بغطاء من دول كبرى يُفترض أنها حريصة عن الانتظام الدولي العام وعلى حقوق الإنسان أكثر من غيرها. وقد كانت تصريحات الرئيس الأميركي جو بايدن صادمة عندما زار تل أبيب في 2023/10/17 متضامناً بعد اندلاع المواجهات، وقال: إن ما تقوم به إسرائيل هي "عمليات دفاع عن النفس" بينما الوقائع تؤكد أن استهدافات الآلة العسكرية الإسرائيلية، كانت موجهة ضد المدنيين ومن دون أي تمييز، بما يشبه الإبادة الجماعية الفعلية، وهي طلبت ممن تبقوا من فلسطينيين إخلاء أرضهم ومغادرة بلادهم إلى الأراضي المصرية المجاورة.

وما فاجأ الرأي العام العربي والدولي؛ كانت المواقف التي صدرت عن قادة دول غربية هامة، مثل بريطانيا وإيطاليا وألمانيا، وأيدت فيها ما تقوم به إسرائيل، وهو ما يعني أن هذه الدول التي تُشهر الدفاع عن حقوق الإنسان وعن العدالة والدولية وعن السلم العالمي؛ مارست انحيازاً فاضحاً لصالح المعتدين، واستسلمت لغرضية ميثولوجية غريبة عجيبة دفعتها للُّحاق بمصالح – استعمارية قديمة او انتخابية جديدة – دون أي رادع أخلاقي، وقد ساوت بين الضحية والجلاد، بل شجَّعت المعتدي ودعمته لاستكمال عملياته الإجرامية المخالفة لقواعد القانون الدولي، وهي بذلك أودت بضحيتين؛ الضحية الأولى: الشعب الفلسطيني المُعذب والمقهور والمضطهد والذي سلبت حقوقه البدهية، والضحية الثانية: القانون الدولي الإنساني الذي تُرك في هذه اللحظة السوداء من عمر البشرية وحيداً يتخبط بين سطور مواده، من دون أن يحرِّك المجتمع الدولي والقوى الكبرى الفاعلة أي ساكن لفرض تطبيقه على المعتدين.

الصراع في فلسطين اليوم ليس صراعاً سياسياً أو عقائدياً أو حزبياً، يمكن النفاذ منه لتحقيق مآرب فئوية، بل على العكس من ذلك؛ فهو صراع بين شعب له حق بالعيش على أرضه بكرامة، كما لغيره من الشعوب، وبين محتلٍ إسرائيليٍ اغتصب الأرض، وهجَّر سكانها الأصليين، ولا يعترف بحقوق الفلسطينيين البدهية المشروعة. ومحاولات القيادات الإسرائيلية ومعهم رؤساء دول غربية كبرى شيطنة "حركة حماس" أو غيرها، لتصوير الصراع كأنه مع حركة عقائدية لديها مشكلاتها السياسية مع دول عربية متعددة، وليس مع الشعب الفلسطيني؛ هي محاولات لذرَّ الرماد في العيون، وسبق لهذه الجهات أن تعاملت مع "حركة فتح" بذات الطريقة عندما كانت فتح تتزعَّم حركة المقاومة الفلسطينية. وما قاله مسؤول السياسة الخارجية العليا للاتحاد الأوروبي جوزيب بوريل إبان زيارته المنطقة، من أن إسرائيل ساعدت أطراف فلسطينية على الإنقسام لضرب السلطة الفلسطينية، خير دليل على أن الصراع ليس حزبياً ولا فئوياً، بل هو بين قوى معتدية مغتصبة للأرض، ومدعومة من جهات خارجية نافذة، وبين شعب فلسطيني مضطهد، يطالب بالحصول على حقوقه المشروعة بإقامة دولته المستقلة على أرضه والعيش بكرامة ودون إذلال.

لا يمكن للقوى الدولية الكبرى أن تتبرأ من مسؤوليتها عن جرائم إسرائيل، وهذه الدول تقدِّم لها الدعم العسكري والسياسي، وتغطي ارتكاباتها أمام المحاكم الدولية وفي مجلس الأمن. وموقفها المنحاز بمثابة إذن دولي لإسرائيل للاستمرار بالعدوان بدل الخضوع للحق والشروع في توفير سُبل نجاح مبادرات التسوية السلمية للنزاع، وأهمها مبادرة الملك عبد الله بن عبد العزيز التي تبنتها قمة بيروت العربية عام 2002، وأساسها الأرض مقابل السلام، وإقامة الدولتين، وبهذه المبادرة حصلت تنازلات كبيرة لخدمة مبادرات التسوية، لأن غالبية من العرب لا يقرون بأي حق للمعتدي الإسرائيلي في أرض فلسطين، ويطالبون بطردها من كامل هذه الأراضي. كما أن بعض القوى الشعبية في عدد من البلدان العربية، وعلى الساحة الفلسطينية على وجه التحديد ما زالت ترفض أي مساومة على أي جزء من الأرض، وتطالب بإزالة إسرائيل من الوجود. لكن التنازلات الفلسطينة والعربية لصالح إقامة سلام عادل وشامل، ذهبت سدىً، ولم تحترم إسرائيل هذه البادرة العربية الإيجابية، واستمرّت في إقامة المستوطنات في الضفة الغربية، وهذه المستوطنات أصبحت اليوم عقبة كأداء أما التسوية وحلّ الدولتين، كما تحوَّل ساكنوها القادمين من شتات الأرض إلى عناصر مسلحة يمارسون الإرهاب اليوم ضد الفلسطينيين الأمنيين.

والولايات المتحدة الأميركية بإداراتها المتعاقبة منذ العام 2002؛ لم تكُن جديَّة في دفع العملية السلمية في المنطقة، وقد تجاهلت التعاطي الإيجابي من قبل الفلسطينيين وباقي الدول العربية، وبدل أن تفرض على المعتدي وقف عمليات الاستيطان، والقبول بالتسوية السلمية، شجَّعته على نقل عاصمته إلى القدس، واعترفت بها عاصمة لهذا الكيان الغاصب عام 2017، رغم القدسية التي تتمتع بها مدينة القدس عند المسلمين والعرب خاصةً، ولدى أبناء الديانات السماوية الأخرى، لاسيما المسيحيين. وقد ساعدت بعض الدول الغربية الفاعلة الولايات المتحدة الأميركية في سياستها، وشجعتها على استخدام حق الفيتو عشرات المرات ضد قرارات كان يمكن أن يتبناها مجلس الأمن الدولي وتدين الاعتداءات الإسرائيلية. وتدفع أميركا ما يزيد عن 3,5 مليار دولار سنوياً من موازنتها الفيدرالية لصالح المجهود الحربي الإسرائيلي، وهي تزودها بأحدث الأسلحة الفتاكة والمُدمرة للاعتداء على الفلسطينيين وعلى دول الجوار. وقد

رصدت نهاية العام 2023 مبلغ بقيمة 14 مليار دولار كمساعدة استثنائية لإسرائيل في العام 2024 لتعويض خسائرها من جراء الحرب على غزة.

ما هي العوامل الفعلية التي تجعل الولايات المتحدة الأميركية وبعض حلفائها الغربيين يتخذون مثل هذه المواقف الصَلفة؟

يؤكد خبراء متابعون لما يجري؛ بأن الإدارة الأميركية رهينة لقوى الحراك الصهيوني النافذة في الولايات المتحدة، وقد أصبح هذا "اللوبي" قوياً إلى حد عدم الاكتراث لما يقوله بعض المسؤولين في واشنطن، لأنهم متأكدون من عدم قدرة إي إدارة أميركية النفاذ من المُقيدات التي تفرضها مصالح إسرائيل، وتحميها مجموعات الضغط الصهيونية المنتشرة في مختلف المرافق الإميركية. ولعلّ ذلك يؤكد ما كان قد قاله الإرهابي أرييل شارون رئيس وزراء إسرائيل الراحل لراديو إسرائيل في تشرين الأول/أكتوبر 2001: " أود أن أقول لكم بوضوح، لا تعطوا أهمية للضغط الأميركي على إسرائيل، نحن الشعب اليهودي نسيطر على أميركا، والأميركيون يعرفون ذلك" (راجع مجلة الشراع اللبنانية 2024/1/24 مقالة بعنوان: تشرشل لليهود؛ أخشى أن تسقط دولتكم ولو دعمكم العالم كله، للكاتب يوسف الغوش).

وبقدر ما تزداد الوحشية الإسرائيلية ضد الفلسطينيين، ومهما علا منسوب الانحياز والوقاحة عند بعض قادة الدول الغربية الداعمة لها؛ تؤكد الوقائع الراهنة والتاريخية أن الشعب الفلسطيني يزداد صلابة وتمسكاً بحقه وبأرضه، وهو شعب جبار لا يستكين ولا يستسلم، والتضحيات التي قدمها عبر التاريخ من أجل قضيته العادلة؛ لم يقدمها شعب آخر على الأرض، ويكفي ما أصابه من ويلات ودمار من جراء العدوان القائم على غزة، وفي الضفة الغربية، لكنه يعضُّ على الجرح، ويدفن الموتى وينهض من جديد.

سيندم الغرب – ولاسيما الولايات المتحدة الأميركية – على ما فعلته تجاه الفلسطينيين، وبفعلتهم زاد منسوب الكراهية وعدم التسامح، لأن مشاهد التوحُّش التي مارسها العدو ضد الشعب الفلسطيني لا يمكن أن تُمحى من ذاكرة الشعوب.

تتوضح ملامح مشروع غربي جديد يهدف إلى إعادة النظر بخارطة الشرق الأوسط برمتها، بما يتوافق مع الصراع الدولي بين الشرق والغرب. وكانت سياسة هؤلاء شلَّعت المنطقة إرباً، وحوَّلت غالبية دولها إلى ساحات مستباحة أمام الطامحين بتوسيع نفوذهم، وأمام الذين يعيشون على ميثولوجيا دينية وهمية ليس لها أساس. لكن هذا المشروع أو غيره من الطموحات الاستعمارية المتجددة، لا تغفر للمعتدين ارتكاباتهم، ولا تغفر للولايات المتحدة الإميركية وحلفائها إرداء ضحيتين في وقتٍ واحد. الشعب الفلسطيني والقانون الدولي الإنساني.

محاضرة طوفان الأقصى الدوافع والتداعيات

د. خلود العبيدي

طوفان الأقصى من منظور القانون الدولي

ركزت المحاضرة على أهمية أحداث غزة من منظور القانون الدولي. نحن نخوض معركة تحتاج أن نسخر كل الطاقات والإمكانات من أجلها. من الوسائل التي يجب أن نهتم بها في معركة طوفان الأقصى هي القانون الدولي.

الموضوع الأساسي للقضية الفلسطينية هي المسألة القانونية الدولية للأسباب التالية:

1. دراسة الدولة من اختصاصات القانون الدولي كالمعاهدات الدولية، والاعتراف الدولي، ونزاعات الحدود البرية والبحرية. لب المشكلة الفلسطينية هو الدولة. الاعتراف بدولة فلسطين يترتب عليه وضع قانوني كون فلسطين دولة محتلة و"إسرائيل" هي الجهة المحتلة منذ عام 1948. من هنا فإن حماس وفصائل المقاومة تقوم بعمل مشروع وهو حق تقرير المصير وحق الدفاع عن النفس الذي تنص عليه القوانين الدولية.[1] وبذلك يبطل ادعاء الإسرائيليين كون حماس منظمة إرهابية وعمليات المقاومة ليست انتهاكاً للقانون الدولي.

2. قضية الحرب في غزة ينبغي حلها عن طريق القانون الدولي. مثال ذلك: الفصل العنصري هو من قضايا حقوق الإنسان، الاعتداء على الأماكن الدينية، الاعتداء على المستشفيات، والأسرى من اختصاص القانون الدولي الإنساني. وضع الأسرى مأساوي. وحتى السابع من أكتوبر كان هناك أكثر من 6000 أسير معتقل في سجون العدو الصهيوني مضى عليهم فترات طويلة تصل إلى 40 عاماً. بعضهم مصاب بأمراض خطيرة تحتاج إلى علاج فوري. الحصار على غزة منذ أكثر من 20 عاماً هو انتهاك للقانون الدولي. وبذلك ما تقوم به غزة من أجل الحصول على حقوقها عمل مشروع.

[1] انظر مثلاً العهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية 1966، المادة (1.1)

3. اللغة التي تستعمل في السياسة وفي الإعلام هي مفاهيم القانون الدولي، مثال ذلك الإبادة الجماعية genocide، الاضرار الجانبية collateral damage، والعقاب الجماعي collective punishment.

4. عولمة القضايا الدولية: العالم يواجه مشاكل استجدت تحتاج إلى موقف دولي مثل البيئة، التغير المناخي، آثار التقدم التكنولوجيي للأسلحة الذاتية، وحقوق الإنسان.

5. تطور القانون الدولي خلال العقود الماضية: من المآخذ التي كانت توجه للقانون الدولي، كونه ليس لديه قوة جزائية لتنفيذ قرارته. القانون الدولي تطور في العقود الأخيرة من عدة نواحٍ:

- التقنين وتقوم به اللجنة الدولية للقانون الدولي ICL. العديد من الاتفاقيات الدولية صدرت بعد الحرب العالمية الثانية منها اتفاقية منع الإبادة الجماعية لعام 1948

Convention on the Prevention and Punishment of the Crime of Genocide

- العرف الدولي أحد مصادر القانون الدولي يحتاج إلى شرطين، هما: ممارسة الدولة لهذا العرف وموافقة الدولة عليه بشكل صريح. ولذلك القرارات الدولية التي تصدر عن المنظمات الدولية لها أهمية في تأصيل القانون الدولي.

المحاكم الدولية

نشأت محاكم عديدة بعد الحرب العالمية الثانية، متمثلة بالمحاكم الخاصة لمحاكمة مجرمي الحرب في المانيا ويوغسلافيا وروواندا. وأنشئت محاكم عامة مثل محكمة العدل الدولية والمحكمة الجنائية الدولية.

هناك محاكم إقليمية مثل المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان، المحكمة الافريقية لحقوق الإنسان التي دخلت حيز التنفيذ عام ٢٠٠٣، ثم مشروع محكمة حقوق الإنسان العربي برعاية جامعة الدول العربية.

القوانين الدولية التي تتعلق بأحداث طوفان الأقصى تتركز في فرعين من فروع القانون الدولي: هما حقوق الإنسان والقانون الدولي الإنساني:

أولا: قوانين حقوق الإنسان

حق الحياة المبدأ الأساس لحقوق الإنسان "تبطل المبادئ الأخرى بدونه"

الحياة قيمة عليا، يجب أن يضع العرب معاناة غزة أولاً. القضية ليست مسألة حدود. يجب علينا نحن العرب أن نعالج المشكلة إنسانياً أولاً. يجب أن يكون شاغلنا الأول مصير مليونين ونصف المليون من البشر تُلقى عليهم القنابل ويدفنون تحت الأنقاض، يمنع عنهم الماء والغذاء والدواء.

اهتم الغرب بقضية غزة لأنه يعيش صراعاً يتلخص بحق الحياة بسبب التطور التكنولوجي والاختلال في المجتمعات الغربية، أصبح حق الحياة له أهمية خاصة. حق الحياة يناقش في مجالات الطب مثلا. قيمة الإنسان أصبحت متدنية مع الدعوات للموت الرحيم والإجهاض والاختراعات الطبية التي تتنافر مع الأخلاق. قضية غزة جاءت في سياق الحملات العالمية والدولية لحقوق الإنسان. الدفاع عن فلسطين وعن غزة يمثل وعي هذه المجتمعات. هو دفاع عن الإنسانية. اتمنى أن يتعزز لدى العرب الشعور بمبدأ قيمة الحياة

مبدأ حق الحياة ذكر في المواثيق الدولية التالية:

- ميثاق الأمم المتحدة ١٩٤٥

جاء في المقدمة التأكيد "إيماننا بالحقوق الأساسية للإنسان وبكرامة الفرد..."

- الإعلان العالمي لحقوق الإنسان

المادة الثالثة تنص على: "كل فرد له الحق في الحياة والحرية وفي الأمان على ذاته"

- العهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية

تبنت الجمعية العامة للأمم المتحدة العهد عام 1966. المادة السادسة تنص على : "لكل إنسان الحق الأصيل في الحياة. يجب حماية هذا الحق. لا يجوز حرمان أحد من حياته تعسفاً.

المادة الرابعة الفقرة الثانية تنص على أن المادة السادسة غير قابلة للاستثناء.

مبدأ حق الحياة يضمن أن تلتزم به الدول الموقعة على اتفاقية الحقوق المدنية والسياسية. تقوم المفوضية السامية لحقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة بمراقبته وإصدار التقارير السنوية عن التزام دول العالم بحقوق الإنسان.

صادقت إسرائيل على العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية في عام 1991.[2]

المعاهدة الأوروبية لحقوق الإنسان 1950

الاتحاد الأوروبي أصدر الميثاق الأوروبي لحقوق الإنسان. المادة الثانية تنص على:

1. حق كل إنسان في الحياة يحميه القانون. لا يجوز حرمان أحد من حياته عمداً إلا تنفيذاً لحكم أصدرته محكمة بعد إدانته بجريمة ينص عليها القانون.

الميثاق العربي لحقوق الإنسان

اعتمد من قبل القمة العربية السادسة عشرة في 23 مايو/ أيار 2004. المادة الخامسة من الميثاق العربي تنص على:

1- الحق في الحياة حق ملازم لكل شخص.

2- يحمي القانون هذا الحق، ولا يجوز حرمان أحد من حياته تعسفاً.

ثانيا: القانون الدولي الإنساني

---

[2] https://tbinternet.ohchr.org/_layouts/15/TreatyBodyExternal/Treaty.aspx?CountryID=84&Lang=EN

القانون الدولي الإنساني ينظم النزاعات المسلحة الدولية والنزاعات التي تشارك فيها فصائل مسلحة. اتفاقية جنيف هي مجموعة من أربع اتفاقيات دولية عقدت في عام 1949 وثلاثة بروتوكولات. انضم إلى اتفاقية جنيف 190 دولة، أي عموم دول العالم تقريباً، مما يجعلها أوسع الاتفاقيات الدولية قبولاً. إسرائيل وقعت على الاتفاقية في 1948/12/8 وصادقت على الاتفاقية في 1951/7/6 .

في مسألة غزة تهمنا الاتفاقية الرابعة، الاتفاقيه التي تخص حمايه الأشخاص المدنيين في زمن 1949/8/12.[3] من بنود هذه الاتفاقية مثلاً

المادة 18

لا يجوز وقف الحماية التي تستحقها المستشفيات المدنية إلا إذا استخدمت في ارتكاب أعمال ضارة بالعدو، خارج نطاق واجباتها الإنسانية.

المادة 55 – الإمدادات الغذائية والطبية للسكان

يقع على عاتق دولة الاحتلال، بأقصى ما تسمح به الوسائل المتاحة لها، واجب ضمان الإمدادات الغذائية والطبية للسكان؛ وعليها، على وجه الخصوص، إدخال المواد الغذائية والمستلزمات الطبية وغيرها من المواد الضرورية إذا كانت موارد الأراضي المحتلة غير كافية.

أكد قرار مجلس الأمن الدولي رقم 446 الصادر في 22 /3/ 1979 على أن اتفاقية جنيف الرابعة الخاصة بحماية المدنيين في زمن الحروب الصادرة في 8/12/ 1949 تطبق على الأراضي الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس. يدعو العديد من القرارات إسرائيل، السلطة القائمة بالاحتلال، إلى الامتثال لأحكام الاتفاقية وقبول تطبيقها بحكم القانون.

اتفاقية منع الإبادة الجماعية

---

[3] الاتفاقية الرابعة لحماية المدنيين١٩٤٩
https://ihl-databases.icrc.org/en/ihl-treaties/gciv-1949/article-18?activeTab=default

الاتفاقية أقرت للتوقيع والتصديق أو للانضمام بقرار الجمعية العامة 260 ألف (د-3) المؤرخ في 9 كانون الأول/ ديسمبر 1948. تاريخ بدء النفاذ 12 /1951/1.[4]

الأعمال التي تقوم بها إسرائيل في غزة تعد جرائم حرب يعاقب عليها القانون الدولي. تنص عليها اتفاقية منع جريمة الإبادة الجماعية.

تنص اتفاقيه منع الإبادة الجماعية على المواد التالية:

المادة 1

تصادق الأطراف المتعاقدة على أن الإبادة الجماعية، سواء ارتكبت في أيام السلم أو أثناء الحرب، هي جريمة بمقتضى القانون الدولي، وتتعهد بمنعها والمعاقبة عليها.

المادة 2

في هذه الاتفاقية، تعني الإبادة الجماعية أيا من الأفعال التالية، المرتكبة بقصد التدمير الكلي أو الجزئي لجماعة قومية أو اثنية أو عنصرية أو دينية، بصفتها هذه:

(أ) قتل أعضاء من الجماعة،

(ب) إلحاق أذى جسدي أو روحي خطير بأعضاء من الجماعة،

(ج) إخضاع الجماعة، عمدا، لظروف معيشية يراد بها تدميرها المادي كليا أو جزئيا،

(د) فرض تدابير تستهدف الحؤول دون إنجاب الأطفال داخل الجماعة،

(هـ) نقل أطفال من الجماعة، عنوة، إلى جماعة أخري.

المادة 3

يعاقب على الأفعال التالية:
(أ) الإبادة الجماعية،
(ب) التآمر على ارتكاب الإبادة الجماعية،

---

[4] اتفاقية منع الابادة الجماعية1948
https://www.un.org/en/genocideprevention/documents/atrocity-crimes/Doc.1_Convention%20on%20the%20Prevention%20and%20Punishment%20of%20the%20Crime%20of%20Genocide.pdf

(ج) التحريض المباشر والعلني على ارتكاب الإبادة الجماعية،

(د) محاولة ارتكاب الإبادة الجماعية،

(هـ) الاشتراك في الإبادة الجماعية

إسرائيل كانت من أوائل الدول التي وقعت على اتفاقية منع الإبادة الجماعية لأن الاتفاقية التي صيغت بعد الحرب العالمية الثانية من دواعي عقدها منع الإبادة الجماعية لليهود المسماة بالهولوكوست. الإبادة الجماعية من الجرائم الخطرة ولذلك على سائر دول العالم أن تحترمها وتعمل بموجبها لأنها من القوانين الملزمة (الآمرة peremptory). انتهاك هذه القوانين تمس القيم الأساسية للمجتمع الدولي والإنسانية تسمى في القانون الدولي Jus cogens

اتفاقية عدم تقادم جرائم الحرب

تبنّى أعضاء الأمم المتحدة اتفاقية "عدم تقادم جرائم الحرب والجرائم المرتكبة ضد الإنسانية" لتفادي إفلات مرتكبي الجرائم. المعاهدة عرضت للتوقيع والتصديق والانضمام بقرار الجمعية العامة 2391 ألف (د–23) المؤرخ في 1968/11/26

تاريخ بدء النفاذ: 1970/11/11

المـادة الأولى

لا يسري أي تقادم على الجرائم التالية بصرف النظر عن وقت ارتكابها:

(أ) جرائم الحرب الوارد تعريفها في النظام الأساسي لمحكمة نورمبرغ العسكرية الدولية الصادر في 8 آب / أغسطس 1945، والوارد تأكيدها في قراري الجمعية العامة للأمم المتحدة 3 (د–1) المؤرخ في 13 شباط / فبراير 1946 و95 (د–1) المؤرخ في 11 كانون الأول / ديسمبر 1946، ولا سيما

"الجرائم الخطيرة " المعدودة في اتفاقية جنيف المعقودة في 12 آب / أغسطس 1949 لحماية ضحايا الحرب".

(ب) الجرائم المرتكبة ضد الإنسانية، سواء في زمن الحرب أو زمن السلم، والوارد تعريفها في النظام الأساسي لمحكمة نورمبرغ العسكرية الدولية الصادر في 8 آب / أغسطس

1945، والوارد تأكيدها في قراري الجمعية العامة للأمم المتحدة 3 (د–1) المؤرخ في 13 شباط / فبراير 1946 و95 (د–1) المؤرخ في 11 كانون الأول / ديسمبر 1946، والطرد بالاعتداء المسلح أو الاحتلال، والأفعال المنافية للإنسانية والناجمة عن سياسة الفصل العنصري، جريمة الإبادة الجماعية الوارد تعريفها في اتفاقية عام 1948 بشأن منع جريمة الإبادة الجماعية والمعاقبة عليها، حتى لو كانت الأفعال المذكورة لا تشكل إخلالاً بالقانون الداخلي للبلد الذي ارتكبت فيه.

المادة الثانية

إذا ارتكبت أية جريمة من الجرائم المذكورة في المادة الأولى، تنطبق أحكام هذه الاتفاقية على ممثلي سلطة الدولة وعلى الأفراد الذين يقومون، بوصفهم فاعلين أصليين أو شركاء، بالمساهمة في ارتكاب أية جريمة من تلك الجرائم أو بتحريض الغير تحريضاً مباشراً على ارتكابها، أو الذين يتآمرون لارتكابها، بصرف النظر عن درجة التنفيذ، وعلى ممثلي سلطة الدولة الذين يتسامحون في ارتكابها.

الخاتمة

قطاع غزة وقع تحت الاحتلال الإسرائيلي بعد حرب حزيران 1967. كان يتبع الإدارة المصرية منذ عام 1948. وفقاً للقانون الدولي الإنساني، هناك التزامات قانونية تقع على عاتق قوة الاحتلال.

أهم القوانين الدولية التي تلزم العدو الصهيوني باحترامها لقطاع غزة هي مبادئ حقوق الإنسان وبالذات "مبدأ حق الحياة" والقانون الدولي الإنساني مثل اتفاقية جنيف الرابعة لعام 1949 المتعلقة بحماية الأشخاص المدنيين في أوقات النزاعات المسلحة والتي تركز على السكان الواقعين تحت وطأة الحرب، والبرتوكول الإضافي الأول الملحق باتفاقيات جنيف الأربعة لعام 1977.

تفرض هذه المواثيق على دولة الاحتلال مجموعة من الالتزامات التي يجب الوفاء بها لتوفير الحماية للمواطنين في الأراضي المحتلة.

لم تكن المجازر التي ترتكبها إسرائيل في غزة منذ 7 تشرين الأول/أكتوبر مفصولة عن تاريخ طويل من المجازر في القطاع مثل دير ياسين والطنطورة والدوايمة، مما

يترتب انتهاك اتفاقية منع الإبادة الجماعية. جرائم الإبادة الجماعية وجرائم الحرب لا تسقط بالتقادم.

ينادي العالم اليوم بتطبيق القانون الدولي؛ لأن من أهم أسباب ارتفاع الجريمة في العالم الإفلات من العقاب.

أهم القوانين الدولية التي تلزم العدو الصهيوني باحترامها لقطاع غزة هي مبادئ حقوق الإنسان وبالذات "مبدأ حق الحياة" والقانون الدولي الإنساني مثل اتفاقية جنيف الرابعة لعام 1949 المتعلقة بحماية الأشخاص المدنيين في أوقات النزاعات المسلحة والتي تركز على السكان الواقعين تحت وطأة الحرب، والبرتوكول الإضافي الأول الملحق باتفاقيات جنيف الأربعة لعام 1977.

تفرض هذه المواثيق على دولة الاحتلال مجموعة من الالتزامات التي يجب الوفاء بها لتوفير الحماية للمواطنين في الأراضي المحتلة.

عملية "طوفان الأقصى" الغرب والحرب الإسرائيلية على غزة

د. فرج معتوق

مقدمة

هل كان الشرق الأوسط هادئا قبيل السابع من أكتوبر 2023؟ يبدو أنه كان كذلك حسب بعض المسئولين الغربيين، وحتى بعض الحكام العرب. وهل نجحت اتفاقيات التطبيع التي وقعتها بعض الحكومات العربية مع إسرائيل (المغرب والسودان ودولة الإمارات والبحرين)، في إطار خطة ابراهام للسلام، في إعادة الهدوء إلى المنطقة؟ الجواب، حسب تصريح أدلى به مستشار الأمن القومي الأمريكي جاك سوليفان في 29 من سبتمبر/ أيلول، هو نعم. لقد جاءت هذه التصريحات في المؤتمر السنوي لموقع "أطلنطيك"، قبل أسبوع واحد على الحدث الذي سيكون بمثابة الطوفان الذي سيغرق المنطقة والعالم في حرب تجاوزت كل الحدود المتعارف عليها، وتريدها إسرائيل حربا نهائية ضد عدوها اللدود منذ 75 عاما: صاحب الأرض، الشعب الفلسطيني. صرح سوليفان قائلا: "إن الشرق الأدنى أهدأ مما كان عليه منذ عشرين عاما".[5] لكنه نسي الشروط الموضوعية الأساسية لتحقيق ذلك الهدوء، أي إحلال السلام العادل والدائم للقضية الفلسطينية بضمان الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني في إقامة دولته المستقلة ذات السيادة على أرضه. لذلك، على الرغم من مزاعم جاك سوليفان، فإن الواقع كان مخالفا تماما لهذه الرؤية. فقد جدت في نفس الأسبوع مواجهات عنيفة على جانبي حدود قطاع غزة مع إسرائيل بين قوات الأمن الإسرائيلية والمتظاهرين الفلسطينيين الذين جاؤوا للمطالبة بحقهم في العودة إلى أرض أجدادهم. وكانت هذه المظاهرات إحياء وأسوة بمسيرات العودة التي كان قام بها الفلسطينيون في 2018 و2019 والتي استشهد خلالها 200 فلسطيني قتلوا برصاص القناصة الإسرائيليين. كما أن موجات العنف والاستفزاز واقتحامات المسجد الأقصى والاعتداء على المصلين من قبل المستوطنين المحميين من طرف قوات الأمن المدججة بالسلاح بكل من

[5] www.youtube.com «How demcracy can move forward, with Jake Sullivan and Will Hurd. The Atlantic Festival 2023”. 29 september 2023.

الضفة الغربية والقدس لم تهدأ يوما إلا لتعود من الغد أشد عنفا ودموية. وبلغت حصيلة هذه الاعتداءات بين مطلع جانفي/يناير حتى نهاية شهر أوت/آب 2023 ممن سقطوا برصاص قوات الاحتلال الإسرائيلي أو رصاص المستوطنين، 220 شهيداً.

بالكاد مر أسبوع على تصريحات السيد سوليفان، حتى حصل أمر مغاير تماما سيقلب المعطيات بشكل جذري ويدخل منطقة الشرق الأوسط في مشهد درامي جديد لا سابقة له في تاريخ الصراع العربي الصهيوني والصراع الفلسطيني الإسرائيلي حتى كتابة هذه السطور، البتة. ففي يوم 7 أكتوبر/تشرين الثاني 2023 بوغت العالم بأسره بعملية طوفان الأقصى التي نفذتها كتائب عز الدين القسام التابعة لحركة حماس وسرايا القدس التابعة لحركة الجهاد الإسلامي، وشاركت فيها فصائل أخرى من المقاومة الفلسطينية كالجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين وغيرها. وتم تنفيذ هذا الهجوم داخل الأراضي الإسرائيلية ضد قاعدة غزة وقواعد أخرى في المنطقة الجنوبية من الكيان الصهيوني بعد أن تم اختراق السياج العازل الذي أقامته إسرائيل لعزل غزة من كل الجهات تقريبا وإحالة القطاع إلى سجن مفتوح. وتمكنت القوات الفلسطينية المُهاجمة من قتل أكثر من 350 جنديا وأمنيا إسرائيليا وكذلك أكثر من 800 مدني[6] بالمستوطنات والقواعد الحربية بغلاف غزة. كما تم أسر حوالي 200 إسرائيلي وإسرائيلية بين جنود ومدنيين، نقلوا إلى داخل قطاع غزة. تم كل ذلك في يوم واحد.

كان وقع عملية طوفان الأقصى على قادة الكيان الصهيوني كما على الجبهة الداخلية الإسرائيلية مدمرا. فقد تعود الإسرائيليون في كل الحروب التي خاضوها منذ 75 عاما على فرض القتال خارج حدود (دولتهم)، لكن في السابع من أكتوبر تم غزوهم وهم في عقر دارهم. كما أن هذه الضربة وجهت لهم من طرف فصائل المقاومة الفلسطينية

---

[6] تبين لاحقا أن عددا لا يستهان به من هؤلاء القتلى الإسرائيليين قد لقوا حتفهم بنيران صديقة. والسبب في ذلك أن عناصر قوات الجيش الإسرائيلي كانت في حالة من الهلع والهستيريا، جعلها تتعامل مع الأمر بكثير من التشنج والفوضى. وطفق الجنود ورجال الأجهزة الأمنية يطلقون النيران كيفما اتفق، لا يميزون بين الصديق والعدو.

التي كانت محاصرة من البر والبحر والجو منذ 17 عاما، والتي تقل عنهم عددا وعدة بعشرات إن لم يكن بمئات المرات.

كيف كانت ردود فعل الإسرائيليين أولا على عملية طوفان الأقصى؟ وكيف كانت ردود فعل حلفائهم في العالم الغربي: بالولايات المتحدة الأمريكية أولا، وبأوروبا ثانيا؟ ثم كيف كان موقف، أو بالأحرى مواقف، العرب والمسلمين؟ ذلك أن مواقف هؤلاء كانت، كما سيتضح أدناه، كانت متعددة ومتضاربة وخجولة، بل وحتى مخجلة، كما كانت قلوبهم شتى. ثم لنا أن نتساءل كذلك، ما هي الأسباب والدوافع والمبررات التي كانت تقف وراء هذه المواقف أو تلك؟ وأخيرا يتعين علينا الوصول إلى نتائج ومآلات هذا الفصل الجديد وغير المسبوق وللسجال الفلسطيني الإسرائيلي؟

ردود الفعل في إسرائيل والغرب

1- طوفان الأقصى، لماذا؟

قبل تناول ردود الفعل الإسرائيلية والغربية، يجدر بنا في البداية تناول الأسباب التي دفعت حركة حماس إلى تنفيذ هجوم السابع من أكتوبر 2023، لنلاحظ أنها كانت عديدة. وقد شكلت اقتحامات باحات المسجد الأقصى والاعتداءات المتكررة على الفلسطينيين من طرف المستوطنين تحت حماية مشددة من رجال أمن (دولة) الاحتلال، والمنع التعسفي المتكرر لطيف واسع من المصلين من الوصول إلى مسجدي الأقصى وقبة الصخرة لأداء صلاة الجمعة جزءا من تلك الأسباب. لقد طالت اعتداءات المستوطنين العنيفة والمغرقة في استفزاز الفلسطينيين العديد من مدن وقرى الضفة الغربية وأريافها ومزارعها. كان كل ذلك يحدث وسط جو خانق سمته الكبرى تراجع أداء السلطة الفلسطينية، التي أصبح دورها ينحصر تحت الضغط والتعنت الإسرائيليين في التنسيق الأمني مع الاحتلال، ليصبح أي أفق لأي حل سياسي للقضية الفلسطينية مسدودا بالكامل. وتراجع دعم الحكومات العربية لهذه القضية إلى أدنى مستوياته. فيما انخرطت ثلة من تلك الحكومات في الهرولة نحو التطبيع مع الكيان المحتل. لكن يمكن القول بالإضافة إلى ذلك إن الحدث المتمثل بهجوم مجموعة من المستوطنين على بلدة حوارة كان بمثابة الشعرة التي قصمت ظهر البعير، وبالتالي

شكل بداية العد التنازلي لعملية طوفان الأقصى. فقد رافق الهجوم على هذه البلدة قتل من تطلق عليهم إسرائيل "المطلوبين"، وحرق وهدم البيوت والممتلكات وتجريف الطرقات وتخريب البنى التحتية وإتلاف المرافق الأساسية مما أدى إلى قطع الماء والكهرباء، ليصل التنكيل والتشفي بالفلسطيني إلى ذروته. ولم تتوقف الأمور عند هذا الحد، بل تجاوزتها إلى ما هو أشد خطورة. حيث صرح وزير المالية اليميني المتطرف بيزاليل سموتريتش بأنه يجب القضاء على حوارة بالكامل. في حين ضاعف من جهته وزير الأمن الداخلي إيتامار بن غفير من تصريحاته الاستفزازية، وعمد إلى اتخاذ إجراءات قاسية للتضييق على السجناء الفلسطينيين القابعين في سجون الاحتلال والبالغ عددهم ستة آلاف من النساء والرجال(قبل السابع من أكتوبر).

لا شك أن كل هذه السياسات ساهمت في تصاعد غضب الفلسطينيين وإثارة تخوفاتهم مما تخطط له حكومة نتنياهو اليمينية المتطرفة. وقد ازدادت المخاوف أكثر على إثر انتشار أخبار على شبكات التواصل الاجتماعي مفادها أن حكومة الاحتلال تخطط لإغراق الضفة الغربية بمليونين اثنين من المستوطنين لخلق تفوق عددي لصالحهم ضد المواطنين الفلسطينيين وإطلاق العنان لهم لاكتساح سائر مدن الضفة وقراها. وكان لهذا الأمر بالنسبة للشعب الفلسطيني بكل أطيافه السياسية وشرائحه الاجتماعية معنى واحد: إنه التهجير القسري الذي طالما لوح به اليمين الإسرائيلي المتطرف، والذي هو اليوم حليف وشريك سياسي لنانتياهو في الحكومة التي يرأسها. إن ما زاد الطين بلة هو أن السلطة الفلسطينية في رام الله أصبحت على درجة من الوهن لم تعد معها قادرة على التواصل والتأثير على الحكومة الإسرائيلية الخارجة من عقالها لثنيها عن سياساتها الاستيطانية الموغلة في العدوانية والدوس على ما تبقى من حقوق فلسطينية. كما أنها أصبحت بسبب هذا العجز والوهن في شبه قطيعة مع شعبها. لذلك شعرت حماس، وحركات المقاومة المتحالفة معها أنه لم يبق أمامها سوى التحرك للقيام بواجبها دفاعا عن الحقوق الشرعية للشعب الفلسطيني وإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

2- رد الفعل الإسرائيلي

أ- إعلامياً

منذ ساعات الصباح الأولى من يوم 7 أكتوبر/ تشرين الأول 2023 انطلقت الأجهزة الإعلامية في الغرب لتروي السردية الإسرائيلية لما حصل صبيحة ذلك اليوم مرددة بكل أمانة نفس المفردات والتعابير المفتاحية التي استعملها المسؤولون والإعلام الرسمي الإسرائيلي والتي تتحدث عن عملية إرهابية مروعة. هذه العملية نفذها "إرهابيو حركة حماس"[7]، الذين ينتمون إلى كتائب عز الدين القسام. وقد "ارتكب الإرهابيون جرائم بربرية فظيعة " مورست "ضد مدنيين عزل من الشبان والفتيات كانوا يحيون ببراءة وانشراح حفلا موسيقيا جماهيريا". لقد ركزت هذه الرواية على انتقاء مفردات تعطي للحدث بشاعة أكبر وتصور المهاجمين في هيئة "وحوش بشرية". حيث تواصل الرواية وصفها لما حصل بالقول: عمد "الإرهابيون إلى اقتراف جرائم اغتصاب للنساء وقطع رؤوس أطفال رضع وحرق أحد هؤلاء الرضع في فرن ميكروويف". لقد خلقت هذه الرواية، على الرغم من تفنيدها لاحقا، في نفوس القرّاء والمستمعين والمشاهدين لوسائل الإعلام بالولايات المتحدة الأمريكية وبلدان أوروبا الغربية صدمة نفسية هائلة. ولم يكن هذا الجمهور الواسع الذي يشكل الرأي العام الغربي يعرف وهو يتلقى مادة إخبارية في بلده بأوروبا أو أمريكا، إنما يخضع لتأثير الدعاية الإسرائيلية بشكل مباشر. وهذا بسبب واقع وطبيعة الإعلام الغربي بشكل عام. ذلك أن المؤسسات الإعلامية الغربية الكبرى تكون إما عمومية تابعة للدولة وهي بالتالي تعكس الموقف السياسي للدولة في ذلك البلد. ومن المعروف أن الغالبية العظمى من الدول الغربية، إن لم نقل كلها، هي، لأسباب تاريخية، تدور في فلك الثقافة المسيحية–اليهودية وضمن سردية الحرب العالمية الثانية والمحرقة اليهودية، وما يتبعها من عقدة الذنب تجاه اليهود بشكل عام. أما المؤسسات الإعلامية "المستقلة" فهي على ملكية أثرياء، قسم لا يستهان به منهم هو يهودي أو من مزدوجي الجنسية، وتكون إحدى الجنسيتين إسرائيلية. وقسم آخر ممن يصنفون سياسيا على يمين المشهد السياسي. وبالتالي غالبا ما يكون هؤلاء مسكونين بمشاعر الإسلاموفوبيا، الأمر الذي يجعل الخط التحريري لصحفهم وقنواتهم التلفزية وإذاعاتهم بصفة آلية ضد كل ما هو عربي ومسلم. والأمثلة

[7] كل العبارات التي وردت بين ظفرين لا تعبر عن رأي كاتب هذه السطور. وقد أوردناها كما هي لتكون الصورة أوضح لدى القارئ عن مدى تأثير الدعاية الإسرائيلية في الأوساط الإعلامية الغربية بأوروبا والولايات المتحدة على وجه الخصوص.

على ذلك كثيرة، ليس مجالها في هذه السطور. معنى ذلك أن هذه المؤسسات الإعلامية تتماهى تلقائيا مع السردية الإسرائيلية، وتتقبل الخبر الذي يردها من الإعلام الإسرائيلي رسميا كان أو مستقلا، وتصدقه دون تدقيق، لأنها تخضع لنفس الحكم المسبق تجاه ثقافة بعينها ودين بعينه. لذلك فهي ترى في كل مسلم إرهابيا بالقوة الكامنة. وبما أن حماس حركة إسلامية فهي إذن بدهيا، في أعين كل هؤلاء، إرهابية. وبالتالي أنجر الإعلام الغربي بسرعة البرق في ترديد السردية الإسرائيلية وفي "امتلاك إسرائيل حق الدفاع عن النفس ضد منظمة حماس الإرهابية"، التي يجب مقاتلتها حتى النهاية لتغيب عن المشهد الفلسطيني وعن قطاع غزة بشكل لا رجعة فيه.

لكن على الرغم مما ذكر، نستدرك لنقول أن هناك بعض الأصوات، على قلتها، لا نجدها تتحرك غريزيا. ولم تنخرط في هذا الولاء التام والاصطفاف الأعمى لصالح الموقف الإسرائيلي. إذ يرى أحد صحفيي "لوموند ديبلوماتيك" الصادرة بفرنسا أن الغرب متضارب ومتناقض في مواقفه ويضرب مثلا على ذلك بموقف دول أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية تجاه ما حصل ويحصل في كل من أوكرانيا وفلسطين. ويقول في هذا الصدد ما يلي: "من منظور القانون الدولي، الوضعية واضحة: روسيا تحتل بصفة غير شرعية جارها الأوكراني، مثلما تحتل إسرائيل جارها الفلسطيني، وهو الأمر الذي أدانته الأمم المتحدة في العديد من المرات. وتستوجب كلتا الحالتين إدانة الغربيين... لكن لم يحصل هذا الأمر بتاتا. إذ تقف الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي في إحدى الحالتين إلى جانب البلد المعتدى عليه، بينما تقف في الحالة الأخرى إلى جانب البلد المعتدي."[8]

نلاحظ إذن أن التنسيب بهذا الصدد ممكن، خاصة بعد الانتشار الواسع لشبكات التواصل الاجتماعي التي أصبحت تؤدي دورا وازنا يرجح كفة المساندة البافلوفية التي كانت دائما لصالح إسرائيل على حساب العرب وحقوق الشعب الفلسطيني. إذ لا يختلف إثنان أن هذه الشبكات هي منافس قوي لهذه الإمبراطوريات الإعلامية، تملك سرديتها وحقيقتها كما أن لها جمهورها الواسع ومتابعيها. لذلك ليس صدفة أن نرى

---

[8] Benoit Bréville, Si les vies se valaient…, *Le Monde diplomatique*, N° 838, Janvier 2024

علامات التذمر التي تصدر على لسان الصحفيين والمسؤولين عن القنوات التلفزية الخاصة والعمومية على حد سواء تجاه موقع من المواقع الإلكترونية بسبب إنزال خبر معين أو موقف ما يتنافى وسرديته هو أو سردية قناته التي يرى فيها حقيقة لا يرقى إليها الشك بينما كل ما خالفها كذب وزيف وبهتان.

ب- عسكرياً وسياسياً

تبعت الصدمة الهائلة في إسرائيل حملة إعلامية تعمد فيها الإسرائيليون، وخاصة نتنياهو ووزير الدفاع يواف غالنت، من خلال تصريحاتهم، إلى تسريب عدة أكاذيب (مثل قصة قطع رؤوس الأطفال وبقر بطن امرأة حامل وعمليات اغتصاب...). وتلقفت وسائل الإعلام الغربي تلك الأكاذيب وأخذتها مسلمة دون الحد الأدنى من المهنية الصحفية التي تتطلب التدقيق قبل النشر، لتصبح حقيقة لدى الرأي العام الشعبي بالعواصم الغربية في أوروبا وأمريكا.

بعد أن ضمنت إسرائيل مساندة الرأي العام والحكومات والبرلمانات الغربية، مضت في استعداداتها العسكرية بدعوة كامل جنود الاحتياط وفيالق النخبة وفرق الدبابات والجرافات التي حركتها إلى حدود غزة الشمالية والشرقية. ووصل عدد القوات الإسرائيلية التي شاركت في الحرب على غزة ما يقارب الأربع مائة ألف جندي. وقبل مرحلة الاجتياح البري أطلق الجيش الإسرائيلي مئات المقاتلات الحربية على موجات متعاقبة لا تتوقف لتنفيذ أعنف حملة قصف جوي منذ الحرب العالمية الثانية، ألقت القوات الإسرائيلية خلالها عشرات الآلاف من الأطنان من المتفجرات، بما في ذلك القنابل من وزن الطن ونصف الطن. واستهدف القصف الجوي الإسرائيلي بشكل متعمد كل شيء في غزة: البيوت والمستشفيات ومرافق المياه والكهرباء ومحطات الوقود ومدارس الأمم المتحدة "أونروا"، كما المساجد والكنائس. وكان يلقي المناشير من الجو مشيرا المدنيين بالتوجه نحو الجنوب كمكان آمن، ثم يلاحقهم الطيران ليقصفهم وهم في منطقة الجنوب.

إن كيان الاحتلال الصهيوني كشف بهذا الصنيع عن نواياه المبيتة في إقامة دولة إسرائيل الكبرى، وذلك بتهجير الفلسطينيين من وطنهم للمرة الثالثة منذ تاريخ النكبة

الأولى سنة 1948. وقد اغتنم رموز اليمين المتطرف الإسرائيلي عملية طوفان الأقصى للربط بينها وبين 11 سبتمبر 2001 للدفع باتجاه تحقيق أحلامهم التوسعية بتهجير الفلسطينيين وإنجاز الدولة اليهودية من النهر إلى البحر. ولم يترك بنيامين نتنياهو الفرصة تمر دون أن يعيد على مسامع بايدن لدى زيارته التضامنية مع تل أبيب في 18 أكتوبر/تشرين الثاني هذه السردية العزيزة على قلوب المتطرفين اليهود الصهاينة.

3- ردود الفعل بكل من الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا

سنقتصر هنا في عرض ردود الفعل على ثلاثة أمثلة فقط هي على التوالي الولايات المتحدة وألمانيا وفرنسا، وذلك نظرا لأن الأولى هي الحليف الإستراتيجي الأكبر بدون قيد أو شرط لدولة إسرائيل، وبدون مساعداتها الهائلة والمتنوعة منذ اليوم الأول لميلادها، لما استمرت في الحياة إلى اليوم. وفي حالة ألمانيا، لأن هذا البلد العملاق اقتصاديا، هو من الناحية السياسية قزم. ونظرا للعقدة التاريخية التي تصبغ علاقته بإسرائيل فهو كفيل باتخاذ مواقف غير متوازنة. وفي الحالة الثالثة، نلاحظ أن فرنسا هي على المحك. فهي تضم من ضمن رعاياها أكبر جالية يهودية في أوروبا، كما تضم أكبر جالية عربية في العالم، خارج أوطانها.

خلال الأيام القليلة التي تلت السابع من أكتوبر/تشرين الأول 2023 هرع لزيارة إسرائيل كبار المسؤولين السياسيين، من أوروبا وبريطانيا وأمريكا الشمالية، بين رئيس جمهورية ورئيس وزراء أتوا ليعبروا عن تضامنهم معها بعد "الهجوم الإرهابي" حسب تعبيرهم الذي نفذته حركة حماس ضد إسرائيل. كما زار إسرائيل برلمانيون ونواب من برلمانات الدول الأوروبية، وكذلك من برلمان الاتحاد الأوروبي نفسه. حيث تحولت رئيسة المفوضية الأوروبية بشكل مفاجئ واصطحبت معها رئيسة البرلمان الأوروبي.

أ- الولايات المتحدة

إثر اندلاع الحرب على غزة في أكتوبر 2023 بادرت الولايات المتحدة الأمريكية بإرسال حاملة الطائرات جيرالد فورد مع أسطول السفن المرافقة لها إلى شرق المتوسط، بذريعة الحيلولة دون توسع نطاق الحرب. وفسر المراقبون أن المقصود بالحيلولة دون

توسع الحرب، هو حزب الله بلبنان ومن خلفه إيران. وصرح مسؤولو الولايات المتحدة أن إسرائيل ستحصل على كل ما تحتاجه لدعم مجهودها الحربي. وفي 20 من نفس الشهر صرح الرئيس بايدن أنه طلب من الكونجرس مساعدة إضافية بقيمة 14 مليار دولار لصالح إسرائيل.

كان أنطوني بلينكن وزير الخارجية الأمريكي أول من وصل إلى إسرائيل بعد عملية طوفان الأقصى. وبمجرد هبوطه من مدرج الطائرة صرح أنه أتى إلى إسرائيل بصفته "وزير خارجية للولايات المتحدة الأمريكية، لكن أيضا كيهودي". وصل الرئيس جوزيف بايدن من جهته إلى تل أبيب في 18 من شهر أكتوبر. وشارك في اجتماع الحرب الإسرائيلي المضيق، للنظر في المطالب والاحتياجات الإسرائيلية لخوض حربها ضد حماس. كما تبنى كل السردية والقصص الإسرائيلية الملفقة. وشدد في نهاية زيارته على حق إسرائيل الشرعي في الدفاع عن النفس ومن ضرورة حل وإنهاء حركة حماس الإرهابية. فقد قال في تصريحه: "لإسرائيل الحق في الرد، بل إن عليها واجب الرد على هذه الهجمات المروعة (...) ليس هناك أي مبرر للإرهاب، وليس هناك أي عذر."[9]

كما رشح من محادثاته أنه نصح الجانب الإسرائيلي بألا يرتكب نفس الخطأ الذي ارتكبته الولايات المتحدة سنة 2001 على إثر أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول. لكن على الرغم من هذه النصيحة التي لم ينصت إليها نتنياهو، فقد أبدى تفهما واستجابة لكل المطالب العسكرية لتل أبيب. إذ سرعان ما تم فتح جسر جوي أمريكي هائل، لتزويد إسرائيل بالصواريخ ومختلف أنواع الذخيرة القادمة مباشرة من ترسانة الأسلحة الأمريكية. كما وضعت على ذمتها مخازن الترسانة الاستراتيجية الأمريكية التي تحتفظ بها واشنطن داخل إسرائيل. وحتى عندما استنفذ الجيش الإسرائيلي كميات الذخيرة التي كانت بحوزته، خاصة قذائف الدبابات والقنابل ذات الطن والنصف طن التي صب منها الطيران الصهيوني عشرات الآلاف من الأطنان على رؤوس المدنيين

[9] Benoit Bréville, L’embrasement, et après ? *Le Monde diplomatique*, novembre 2023

الفلسطينيين من نساء وأطفال، سارع بايدن بتعويضها عبر جسر جوي، دون المرور بموافقة الكونجرس، ربحا للوقت.

أمام الدمار الهائل والقتل المروع الذي خلفه القصف الإسرائيلي في غزة بعد شهرين اثنين على بدء الحرب تعاظمت عبر العالم ردود الفعل المنددة بالإبادة الجماعية التي تستهدف المدنيين الفلسطينيين. إذ تجاوز عدد القتلى حتى 9 ديسمبر/كانون الأول العشرين ألفا، 70% منهم نساء وأطفالاً. وشملت المظاهرات الولايات المتحدة ذاتها، وبدأ يظهر شرخ في صلب الحزب الديمقراطي، أي حزب الرئيس نفسه، يندد بحرب الإبادة الجماعية ضد الشعب الفلسطيني. لذلك شعر بايدن، الذي يضع نصب عينيه الانتخابات الرئاسية القادمة، أنه يتعين عليه رفع صوته ويضع كوابح أمام الحكومة نتنياهو اليمينية المتطرفة. فما كان منه إلا أن صرح قائلا: "هذا القصف الأعمى يفقد إسرائيل الدعم الدولي الذي الذي تحظى به، ويتعين على بنيامين نتنياهو تغيير حكومته الأشد محافظة في تاريخ إسرائيل، والتي تضم بن كفير ومن لف لفه. إنهم لا يريدون شيئا يشبه من قريب أو بعيد حل الدولتين. وهم لا يريدون فقط الانتقام مما فعلته حماس وإنما كذلك من كل الفلسطينيين."[10]

لكن على الرغم من هذا التصريح الذي يمكن فهمه على أنه تنازل لإرضاء الجناح اليساري في حزبه والذي يتشكل أساسا من الشباب وبصفة أخص من الطلبة، فإن إدارة بايدن لا تزال تقف إلى جانب إسرائيل بإصرار. وقد عبرت عن ذلك في عدة مناسبات. إذ على الرغم من الدعوات العالمية المتزايدة لوقف إطلاق النار، استخدمت واشنطن حق النقض ضد عديد القرارات لمجلس الأمن الداعية لوقف إطلاق النار وإدخال المساعدات الإنسانية الضرورية جدا إلى غزة. وقبلت إدارة بايدن مواجهة عزلة دولية ومعارضة حتى من داخل إدارته، وكذلك إدانة العديد من منظمات حقوق الانسان التي اتهمتها بالتواطؤ في ارتكاب جرائم حرب، ارتضت مواجهة كل ذلك على أن تتخلى عن دعمها لإسرائيل.

ب – المواقف الأوروبية

[10] Charles Enderlin, L'erreur stratégique d'Israël, *Le Monde diplomatique*, Janvier 2024

ألمانيا

بعد أقل من أسبوع على عملية طوفان الأقصى، وصلت الألمانية أورسولا فوندرلايان رئيسة المفوضية الأوروبية إلى إسرائيل، ورافقتها في رحلتها روبيرتا مازولا المالطية، رئيسة البرلمان الأوروبي، للتعبير عن تضامن الاتحاد الأوروبي مع الدولة العبرية. وقد أثارت هذه الحركة انتقادات حادة في صلب البرلمان الأوروبي الذي يضم في صلبه طيفا هاما من أحزاب اليسار بالبلدان الأعضاء من الخضر وغيرهم. ثم تواصلت رحلات الدعم تجاه الدولة الإسرائيلة من طرف القادة الأوروبيين.

كان المستشار الألماني أولاف شولز أول مسؤول سياسي يزور إسرائيل بعد الهجوم الذي نفذته حركة حماس. فقد وصل إلى الدولة العبرية يوم 17 أكتوبر مستبقا الرئيس الأمريكي جو بايدين بيوم واحد. وكان شولز قد عبر عن تضامنه مع إسرائيل بشكل لافت وقوي منذ 12 أكتوبر، إلى درجة اعتبر معها أن "أمن إسرائيل هو بالنسبة لألمانيا شأن من شؤون الدولة". وما هو مثير للاستغراب أن التحالف القوي جدا لألمانيا مع إسرائيل، والذي يرجعه البعض لأسباب تاريخية تتعلق بالمحرقة، "قد تحول منذ 7 أكتوبر إلى موقف مساندة دون قيد أو شرط لحكومة أقصى اليمين بتل أبيب، وإلى قمع السكان المسلمين تحت يافطة مقاومة المعاداة للسامية".[11]

فرنسا

قام الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون بزيارة إسرائيل في 24 أكتوبر 2023. وقد رأى مناصرو الدولة اليهودية في وسائل الإعلام، وهم كثر، أن هذه الزيارة تأخرت كثيرا مقارنة بقادة البلدان الأوروبية الآخرين. وقام بمجرد نزوله بالمطار بملاقاة عائلات الرهائن ذوي الجنسية الفرنسية–الإسرائيلية المزدوجة.

إن الزمن الذي كان لفرنسا سياسة عربية قد ولى مع جاك شيراك آخر الديغوليين. وعلى رأس هذا التوجه المستقل في السياسة الفرنسية عن الولايات المتحدة والأنغلوسكسون بشكل عام، كان ملف فلسطين وكذلك العراق. للتذكير، في 23 أكتوبر

[11] Pierre Rimbert, A Berlin, la politique du pire au nom du bien, *Le Monde Diplomatique*, décembre 2023.

1996 استقبل القائد الفلسطيني ياسر عرفات في غزة الرئيس الفرنسي جاك شيراك، وفي حفل حاشد قام الرئيسان بتدشين شارع شارل ديغول بغزة. وشتان ما بين تلك الحقبة واليوم. فصورة الرئيس الفرنسي ماكرون هي قاتمة ومهزوزة لدى غالبية الجمهور العربي. وليس صدفة أن نرى الجماهير في تونس كما في بيروت، بعد اندلاع الحرب على غزة، تتوجه مباشرة إلى السفارة الفرنسية رافعة شعار "ماكرون يا سفاح". فهي تشعر بالغضب، أما تصريحات الرئيس الفرنسي الذي ردد: "لا يمكن أبدا أن يكون هناك "نعم، ولكن" (...) إذ إن إسرائيل لها الحق في الدفاع عن نفسها." وهذا مؤشر إضافي على اصطفافه الكامل إلى جانب واشنطن. بل أكثر من ذلك. كانت فرنسا، على عكس الولايات المتحدة التي هي بلا منازع الحليف الاستراتيجي الأول للكيان الإسرائيلي، من بين الدول الأوروبية القليلة التي منعت المظاهرات المساندة للحق الفلسطيني في الأسابيع الأولى من أيام الحرب على غزة. هذا على الرغم من أنها تضم أكبر جالية عربية مسلمة في أوروبا.

ويرى بعض المحللين أن هذا الاصطفاف إلى جانب الخط الأطلسي يمكن أن يسيء إلى صورة فرنسا. ذلك أنه "باتباع واشنطن بكل دقة حول كل الملفات الإستراتيجية، من أوكرانيا إلى الشرق الأوسط، فإن باريس تربط مصيرها بمصير قوة آفلة ومنتقَدة (بفتح القاف)."[12]

خاتمـــة

في أسباب العداء للعرب والمسلمين

إن المشاهد المروعة لقتل الأطفال والنساء في غزة، وهدم البيوت على رؤوس ساكنيها دون سابق إنذار على مدار الساعة دون توقف منذ أكثر من أربعة أشهر، وسياسة التجويع والتعطيش ومنع الدواء والكهرباء تجعلنا في حيرة من أمر هذا العالم الذي نعيش فيه اليوم. إذ لا يزال العرب يواصلون سياسة غمس رؤوسهم في التراب حتى لا يروا فظاعة ما يرتكب ضد إخوة لهم عزل يطلبون منهم النجدة صباحا مساء ولا منجد، فقد انقطعت المروءة. ولا يزال العالم الغربي، الذي يواصل ادعاءه تلقين شعوب

[12] Benoit Bréville, Un renoncement français, Le Monde diplomatique, novembre 2023.

الدنيا بأسرها الديمقراطية وحقوق الإنسان، واحترام القانون الدولي والحفاظ على السلم، لا يزال يصم آذانه ويغمض أعينه عن مأساة أطفال غزة ونسائها وشيوخها. إنه لا يرى، ولا يسمع، ولا يعرف، ولا يعترف إلا بحق إسرائيل في الدفاع عن نفسها.

إن هذا المشهد المأساوي يعكس لنا الحقيقة المأساوية، حقيقة الجنس البشري وإنسان القرن الواحد والعشرين الذي لم يتعلم شيئا من تجارب حروبه المدمرة السابقة. فنحن لا نزال على ما يبدو في حقبة "مخلوقات صابيانس"، وكأن البشرية خرجت للتو من الحقبة الجليدية الأخيرة. هذه التراجيديا التي تتواصل أمامنا والتي لا يراد لها أن تتوقف، تجعلنا نتساءل: كيف وصل العالم إلى تحمل صور الأشلاء والدمار والدماء في غزة دون أن يضع لها حدا؟ هل لأن الضحايا فلسطينيون عرب؟ أم لأنهم مسلمون؟ أم لأن الذي يقتل الفلسطيني هو يهودي، يحق له أن يتصرف بمثل هذه الدرجة من السادية والجنون؟ لكن بأي حق تطلق يده ليثخن في الفلسطيني بكل هذه الفظاعة؟ هل لأن والده أو والدته، أو جده أو جدته، أو أحد أقاربه، ربما كان قد مر بأوشفيتز أو تريبلينكا أو أي محتشد آخر من محتشدات النازية؟

لا يمكن فهم ما يسمح الإسرائيليون لأنفسهم فعله اليوم بالفلسطينيين في غزة والإمعان في تقتيلهم، وتشريدهم تارة نحو الجنوب وطورا نحو الوسط قبل التفنن في صيدهم بالدبابات والطائرات المقاتلة وطائرات الأباتشي والطائرات المسيرة، لا يمكننا فهم هذا الأمر دون التساؤل عما إذا كانوا يعتبرونهم بشرا مثلهم، أم شيئا آخر.

لعلنا نجد الجواب في الصورة النمطية السلبية جدا لكل ما هو عربي ومسلم والتي تقدم في المناهج الدراسية لطلبة المدارس الإعدادية والثانوية في إسرائيل.[13]

- تتم تربية الناشئة من اليهود على أن العرب يضمرون تجاههم الإبادة وتحطيم دولتهم إسرائيل.
- يعد التواجد اليهودي على أرض فلسطين عنصر تطور. وخلال الغياب اليهودي، لم يعتن الفلسطينيون بأرض إسرائيل طوال قرون. لذلك كانت عودة اليهود ضرورية من

[13] Les Arabes et les musulmans dépeints dans les méthodes scolaires à travers le monde, Une équipe de chercheurs, Revue Al-Ma'rifa, édition Rawnaa', Ryadh, 2003.

أجل فرض سيطرتهم وتهويد كل التراب الفلسطيني مما سيسمح لإسرائيل استعادة مجدها ببناء أرض إسرئيل.

- اعتبار فلسطين وهضبة الجولان أراضي يهودية، والبلدان العربية المحيطة بلدانا أجنبية لا علاقة لها بفلسطين لا مدنيا ولا تاريخيا.
- العمل على نسيان التاريخ العربي والعربي – الإسلامي على مر القرون في فلسطين.
- اعتبار العرب أصحاب الأرض الشرعيين غزاة، والفتوحات الإسلامية احتلالا وغزوا تاريخيا للأرض التي يعتبرها اليهود ملكا لهم.
- إبراز السكان الفلسطينيين العرب على أنهم قبائل بدوية رحل على الدوام، أتوا من الصحراء كغزاة ولا علاقة لهم بالأرض.
- الادعاء بوجود أرض وتراث عمراني مغمور في بقعة ما يعود لليهود في ما وراء حدود فلسطين، بكل من حوران وجنوب الجولان والأردن.
- إبراز كفاءة الجندي اليهودي وتفوقه على الجندي العربي والتأكيد على أنه يتغلب عليه في كل الحروب التي خاضها ضده.
- الدعوة دائما إلى بناء مستوطنات جديدة بهدف الدفاع عن الكيان الإسرائيلي خاصة بعد حربي جوان 1967 وأكتوبر 1973.
- تحميل العالم بأسره دون استثناء مسئولية كل ما حصل لليهود.

هذا كما نجد قيما بيداغوجية صهيونية خاصة بالقدس كالتالي:

- نكران الوجود العربي والعربي– الإسلامي بالقدس واعتبار هذه المدينة يهودية خالصة.
- تمثل مدينة القدس رمز تفوق الجنس اليهودي على كل الأجناس الأخرى: لأنها تجمع نخب الأمة اليهودية من أنبياء وملوك وجنرالات عبر القرون.
- اعتبار بقية المعابد والكنائس والجوامع معالم يهودية بنى فوقها المسيحيون والمسلمون معابدهم، كما أن المسجد الأقصى بني فوق معبد سليمان.

بعد قراءة هذه السطور يمكننا فهم العقلية التي تحرك المستوطن والجندي الإسرائيلي حين يواجه فلسطينيا، ولماذا أول ما يدور بخلده هو: أن يرديه قتيلا.

وحدة الدراسات الاجتماعية والإنثروبولوجية

حروب الجيل الرابع والخامس ضد فلسطين

د. أريج البدراوي

تعددت أنواع الحروب عبر التاريخ، وتعددت أدواتها التي كانت تتطور من شكل إلى آخر بحسب مقدار تحقيقها أهداف الجهة التي تمارسها. وتبرز أهمية التعرف على هذه الأنواع في أنها تعطي فكرة واضحة عن تطور الأهداف وتُبين المشاريع التي يسعى إليها أصحابها. ومن الملاحظ أن هذه الحروب كانت تتطور في ظل أفكار السيطرة والاستيلاء على مقدرات الآخرين وإجبارهم على الخضوع ونفي هويتهم، عندها يمكن سلب ثرواتهم وتغيير قيمهم وإجبارهم على التحول نحو خدمة الآخر المعتدي. (مركز المعارف للدراسات الثقافية)

إن تطور أجيال الحروب جاء طبقًا للدراسة المنشورة في جريدة "المارينز" الأمريكية بواسطة خمسة من الباحثين يرأسهم المفكر الاستراتيجي وليام ليندا William S. Lind (1989) حيث نشأ مصطلح حروب الجيل الرابع في إطار مكاني هو أوروبا وإطار زمني بدءًا من 1648 تزامنًا مع مصطلح وستفاليا Westphalia بداية الدولة القومية في أوروبا. وأشاروا إلى أن الأجيال الثلاثة الأولى هي مواجهات ما بين القوات المسلحة، والفرق بين الأجيال الثلاثة الأولى هو أسلوب القتال فالجيل الأول كان القتال في صورة مباشرة جدًا على خط الجبهة، واستخدم فيه السلاح الناري، واعتمد الجيل الثاني على الإنتاج الكثيف للنيران مثلما كان في الحرب العالمية الأولى، واستخدمت فيه الدبابات والطائرات، ثم ظهر الجيل الثالث من الحروب في الحرب العالمية الثانية، والذي يعتمد على المناورة العميقة والضرب وراء الخطوط وفي عمق العدو، ويتفق ذلك مع اتساع مدى الطائرات، إذًا فالهدف المبدئي للأجيال الثلاثة الأولى من الحروب هو تدمير القوات المسلحة للدولة المستهدفة، ومن ثم فرض الإرادة وتدمير الدولة كهدف نهائي، أمّا حروب الجيل الرابع فالهدف المبدئي هو الوصول بالدولة المستهدفة إلى نموذج الدولة الهشة من خلال تدمير مراكز الثقل المتمثلة في القطاعات المدنية ثم يأتي فرض الإرادة وتدمير الدولة كهدف نهائي. (بدري، 2023، ص 14-15) ويتزايد الاعتماد على حرب المعلومات وتوظيف وسائل الإعلام وتوجيهها لتقليل الدعم الشعبي للحكومة، وذلك من خلال إلقاء الضوء مثلاً على ما

تقترفة قواتها من انتهاكات جسيمة لحقوق الإنسان بحق المدنين في أثناء العمليات العسكرية مع حركة التمرد. (بدري، 2023، ص 24)

وهذا ما تفعله إسرائيل في فلسطين حيث سعت إلى نقسيم السلطة الفلسطينية وقد ظهر جليًّا هذا الانقسام في 2007 إلا أن جذوره تعود إلى بدايات الانتفاضة الفلسطينية الأولى أواخر عام 1987 وتحديدًا مع نشأة حركة المقاومة الإسلامية (حماس) وبدأت دائرة الخلاف بين الجانبين بالاتساع مع ازدياد القاعدة الشعبية لحركة (حماس) على حساب باقي الفصائل، وتحديدًا حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) التي تقود فصائل منظمة التحرير، وتعمقت الفجوة أكثر بعد توقيع اتفاق أوسلو يوم 13 سبتمبر 1993. وفي عام 1994 ومع قيام السلطة الفلسطينية وتسلمها غزة وأريحا وباقي المدن الفلسطينية في فترة لاحقة زاد الشرخ تعمقًا بتنفيذ السلطة حملات اعتقالات واسعة تركزت على قيادات حركة حماس وعناصرها وجهازها العسكري بعد كل عملية ضد الاحتلال.(الجزيرة)

لذا أعلنت إسرائيل الحرب على حماس بعد أن قادت الحركة هجومًا كبيرًا على البلدات الحدودية داخل إسرائيل، ما أسفر عن مقتل نحو 1200 شخص معظمهم من المدنين واحتجاز نحو 240 آخرين إلى غزة كرهائن، لا يزال نحو 130 منهم في الأسر. ومنذ ذلك الحين قتل ما يقرب من 25 ألف فلسطيني في غزة وفقًا لوزارة الصحة التي تديرها حماس، في الوقت الذي ينشر فيه مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشئون الإنسانية (أوتشا) بشكل دوري، تقارير محبطة حول تأثيرات الحرب. فوفق آخر تحديث لتلك التقارير، فإن ما لا يقل عن 60% من المنازل أو الوحدات السكينة في غزة قد دمرت أو تضررت، كما تعرضت تسع من كل عشر مدارس لأضرار جسيمة، وهو الحال ذاته بالنسبة للمستشفيات والمباني العامة وشبكات الكهرباء التي تعرضت للقصف. (BBC)

كما تكرر منذ طوفان الأقصى، هجوم مسئوليين إسرائيليين على رأسهم رئيس الوزراء بنيامين نتينياهو على السلطة الفلسطينية بالتوازي مع إجراءات على الأرض تمس من قدرتها على القيام بمسئولياتها. فقد هاجم نتنياهو في أكثر من مناسبة الرئيس الفلسطيني محمود عباس لأنه لم يدن عملية طوفان الأقصى ومقتل مئات الإسرائيليين

في هجوم حركة المقاومة الإسلامية حماس وانتقد اتفاقيات أوسلو. "التي أعادت الفلسطينيين إلى قلب دولة إسرائيل" وفق تعبيره بل ذهب إلى أبعد من ذلك بقوله إن السلطة الفلسطينية "لا تحارب الإرهاب بل تدعم الإرهاب، لا تربي من أجل السلام، بل تربي على القضاء على إسرائيل" مضيفًا "لن نقبل عودة هذه السلطة إلى غزة". كما تتواصل اقتحامات الجيش الإسرائيلي للمدن والقرى الفلسطينية بهدف القتل والاعتقال في حين يطلب من أجهزة الأمن الفلسطينية التزام مقراتها.

تتسم حروب الجيل الرابع بالاستثنائية في طبيعتها، حيث تختلف عما سبقتها من أجيال الحروب على مر التاريخ، فهي حروب شاملة غير نمطية يسعى فيها الخصوم للتعامل مع ميادين مختلفة للحروب. فعند النظر للأجيال السابقة من الحروب نجد أن كلاً من الجيلين الأول والثاني قد ارتكزا بالأساس على الجيوش النظامية، بينما بقيت الشعوب خارج إطار الحروب، أمّا فيما يخص الجيل الثالث وبخاصة في الحرب العالمية الثانية نجد دول الحلفاء والمحور لم يقيدوا أنفسهم بالمدنين، وهو ما تجلى من خلال القوة التدميرية والنظاق الواسع للقنبلتين النوويتين اللتين القتهما الولايات المتحدة على مدينتي هيروشيما وناجازاكي حيث قُتل عشرات الآلاف من المدنين. (بدري، 2023، ص19-20) قد أصبح العامل النفسي في حروب الجيل الرابع يطغى على الأسلحة الاستراتيجية التقليدية، وذلك من خلال وسائط الإعلام المتعددة وإدخال المعلومات والقنابل المنطقية وحتى الاعتماد على الفيروسات المعلوماتية وغيرها من الأساليب، فالجيل الرابع من الحروب يعتمد على التلاعب على وسائل الإعلام المحلية والعالمية، والعمل على تغير الرأي العام العالمي والتحكم فيه. ويرى ويليام ليند William S. Lind أن هذا التحول في الاستراتيجية العسكرية والتطرق إلى عامل الإعلام والتأثير في الرأي العام الذي يظهر في حروب الجيل الرابع قد يحمل في طياته بذور دمار أكثر فاعلية من الدمار النووي وأكثر سرعة منه، حيث يمكنه القضاء على القدرات الصناعية والحرية السياسية والبنية التحتية وحتى النسيج الاجتماعي للدول. (بدري، 2023، ص 13- 14)

يمارس الاحتلال الإسرائيلي الحرب ضد الفلسطنيين ليس فقط من خلال الحروب التقليدية باستخدام الأسلحة والمعدات الثقيلة والإبادة الجماعية المتوحشة ضد

الفلسطنيين المدنيين وخاصة في قطاع غزة بعد طوفان الأقصى وقبله أيضًا، ولكن الأكثر خطورة هي حروب الجيل الرابع والخامس التي يمارسها المحتل ضد الفلسطنيين والعرب بصفة عامة ولذا علينا الانتباه لها ومواجهتها.

فالآلة الإعلامية الإسرائيلية عبر وسائل التواصل الاجتماعي تعمل على غسل أدمغة الشباب العربي وخاصة الجيل الصاعد منهم. فالاحتلال الإسرائيلي منذ ظهور منصات التواصل الاجتماعي يروج لسياسته ومن بين تلك الصفحات صفحة أفيخاي أدرعي فهو يشن حروب الجيل الرابع. فتهدف الاستخبارات الصهيونية إلى وهم الشباب العربي وتغيير صور العدو الإسرائيلي وتنشئة أجيال عربية لا يعنيها الصراع العربي الإسرائيلي بل تتعايش معه وتتعامل مع دول المحتل كدولة في المنطقة وإقامة تعاون مشترك. وهذا للأسف نستطيع رصده عبر صفحات بعض الشباب العربي الذي لا يرى أهمية القضية الفلسطنية وأن الأهم هو تنمية بلاده وإقامة المهرجانات والحفلات السينمائية وأن القضية الفلسطنية لا شأن له بها وأن الإسرائيليين ليسوا هم العدو الحقيقي للعرب.

فعلى الرغم من مجازر الاحتلال في غزة وكل الأراضي الفلسطينية المحتلة يعمل أفيخاي وكتائب الحرب الإلكترونية بالاستخبارات العسكرية الإسرائيلية على تضليل الرأي العام العربي ومتابعية على صفحات مواقع التواصل الاجتماعي وإظهار الجيش الإسرائيلي بوجه إنساني يعمل على خدمة المدنين الفلسطينين فتارة يبث منشور حول إسعاف أحد الأطفال الفلسطينين وتارة مساعدة أحد الجنود لعجوز فلسطينية مع كتابة عبارات تزعم إنسانية الجيش المحتل وأن إسرائيل دولة إنسانية يعيش فيها الجميع في سلام. (20/12/ 2023، RT)

كما أن إسرائيل لها تأثير كبير على صناعة رقائق الكمبيوتر عالميًّا، إذ إنها واحدة من البلدان القليلة خارج شرق آسيا التي تصنع وتطور بها الرقائق. وأبرز شركة في مجال أشباه الموصلات هي "إنتل" التي تعمل في إسرائيل منذ ما يقرب من 50 عامًا وتوظف أكثر من 12 ألف شخص في خمسة مقار رئيسية. ويوم الاثنين أعلنت الشركة عن أحدث معالجاتها المكتبية السريعة في السوق وهو الجيل الرابع عشر الذي تم تطويره بقيادة فرقها في إسرائيل. وتقع منشأة التصنيع الضخمة التابعة لها، التي توفر جزءًا كبيرًا من معالجات الكمبيوتر في العالم، في كريات جات على بعد 30

دقيقة فقط من حدود غزة، ووفقًا للوثائق كانت هذه المدينة أحد أهداف هجوم حماس المفاجيء في 7 أكتوبر الماضي (طوفان الأقصى). (عربية نيوز، 21 أكتوبر 2023)

ويظهر التضليل واستخدام الحروب الإعلامية والنفسية أيضًا عند محاولة إسرائيل ترويج أن محكمة العدل الدولية تقف بجانب إسرائيل.على الرغم من أن محكمة العدل الدولية أصدرت حكمًا إبتدائيًّا وتدابير طارئة بحق إسرائيل في الدعوة القضائية التي رفعتها جنوب أفريقيا متهمة إسرائيل بانتهاك اتفاقية الأمم المتحدة بشأن الإبادة الجماعية. يتضمن الحكم:

اتخاذ جميع التدابير لمنع أيّ أعمال يمكن اعتبارها إبادة جماعية، وضمان عدم قيام الجيش الإسرائيلي بأي أعمال إبادة، ومنع ومعاقبة أيّ تصريحات أو تعليقات عامة يمكن أن تحرض على ارتكاب إبادة جماعية في غزة، واتخاذ جميع الإجراءات لضمان وصول المساعدات الإنسانية، وعدم التخلص من أيّ دليل يمكن أن يستخدم في القضية المرفوعة ضدها، وتقديم تقرير للمحكمة خلال شهر بمدى تطبيقها لهذه التدابير والأحكام.

فقال رونالد لامولا وزير العدل في جنوب أفريقيا:

إن الزعيم الجنوب أفريقي الراحل نيلسون مانديلا سيبتسم في قبره بعد أمر محكمة العدل الدولية بفرض تدابير طارئة على إسرائيل بسبب حربها في غزة.

نرحب بالإجراءات المؤقتة التي فرضتها محكمة العدل الدولية على إسرائيل. لحكم انتصار حاسم لسيادة القانون ومنعطف مهم في البحث عن العدالة للشعب الفلسطيني.

فعلنا ما يلزم لحماية أرواح آلاف الفلسطينيين في قطاع غزة.

لا يمكن تنفيذ أوامر محكمة العدل الدولية بدون وقف إطلاق النار.

كنا نود من المحكمة أن تصدر قرارًا بوقف إطلاق النار في غزة.

نقف إلى جانب الشعب الفلسطيني وندعوه إلى عدم فقدان الأمل.

علينا أن ندعو إسرائيل للالتزام بالقانون الدولي.

ينبغي تطبيق وقف إطلاق النار في غزة ولو بطريقة غير مباشرة.

فيتضح من هذه المقولات أن محكمة العدل الدولية لم تتخذ موقفًا داعمًا للإسرائيليين كما يريد الإسرائيليون الترويج لذلك، وإن كان موقف المحكمة غير مرضٍ تمامًا في ذات الوقت وخاصة عند مقارنته بما يحدث في أوكرانيا ورد فعل المحكمة الدولية تجاهه.

وختامًا نؤكد أن إسرائيل تسعى بشتى الطرق والوسائل الإعلامية والتكنولوجية إلى حجب انتهاكاتها بحق الفلسطينيين وإلى إثارة الفتن والنزعات بين الفلسطنيين أنفسهم وبين الدول العربية وبعضها البعض وتخوين القيادات العربية ومحاولة إشاعة الفتن بين الدول العربية وداخل الدولة العربية ذاتها وتفتيت القوة العربية وإنشغال كل بلد باقتصاده ومشاحناته الداخلية وذلك هو التجسيد الفعلي لحروب الجيل الرابع والخامس التي تعتمد على وسائل التواصل الاجتماعي.

فتؤدي وسائل الإعلام على اختلافها والمنظمات غير الحكومية والشركات الأمنية دورًا محوريًّا في تحقيق الجيل الرابع من الحروب، وأمّا عن الجيل الخامس من الحروب فهو الأكثر تطورًا، فيجعل من التناقضات الموجودة داخل المجتمع محورًا أساسيًّا في وجودها ويعبر عنه باحتلال العقول لا الأرض، وبعد احتلال العقول يتكفل المحتل بالباقي. إنها حرب يتم إجراؤها بشكل أساسي من خلال عمل عسكري غير حركي، مثل الهندسة الاجتماعية والمعلومات المضللة والهجمات السيرانية إلى جانب التقنيات الناشئة مثل الذكاء الاصطناعي والأنظمة المستقلة تمامًا. وأُشير إليها على أنها حرب المعلومات والإدراك. (مركز المعارف للدراسات الثقافية)

إلا أن كارل براون أحد كبار المختصين بالمنطقة العربية، يرى أنه على الرغم من أن دول الشرق الأوسط دول مخترقة تخضع بدرجة عالية واستثنائية إلى التدخل والسيطرة الخارجية، ولكن شعوب هذه الدول بفضل تميزها الثقافي تقاوم تلك السيطرة بشدة وهذا إلى حدٍ كبير. يفسر لنا الحملة الإعلامية الشرية والمركزة من قبل الغرب ضد الشعوب الإسلامية التي ترفض الهيمنة الغربية، وهذا المؤشر يعطينا أملاً وضوءًا في آخر النفق بأن الشعوب الإسلامية لن ترضخ وتستسلم بسهولة لهذه الحملة المنظمة ضدها. (المرهبي، 2017/7/17).

قائمة المراجع:

1. بدري. منى السيد أحمد (2023) حروب الجيل الرابع، وكالة الصحافة العربية
2. مركز المعارف للدراسات الثقافية،

https://almaarefcs.org/4749/296

3. https://arabic.rt.com/middle_east/1522618-%D8%AD%D8%B1%D8%A8-%D8%A5%D8%B3%D8%B1%D8%A7%D8%A6%D9%8A%D9%84%D9%8A%D8%A9-%D8%AE%D8%B7%D9%8A%D8%B1%D8%A9-%D8%B9%D9%84%D9%89-%D9%85%D8%B5%D8%B1-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A8-%D8%AE%D8%A8%D9%8A%D8%B1-%D9%8A%D8%AD%D8%B0%D8%B1-%D9%85%D9%86-%D8%B7%D8%B1%D9%8A%D9%82%D8%A9-%D8%AA%D9%84-%D8%A3%D8%A8%D9%8A%D8%A8-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%84%D8%A7%D8%B9%D8%A8-%D8%A8%D8%A3%D9%81%D9%83%D8%A7%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A8/
4. https://www.skynewsarabia.com/technology/1663683-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%B1%D8%A8-%D8%AD%D9%85%D8%A7%D8%B3%D9%83%D9%8A%D9%81-%D8%B6%D8%B1%D8%A8%D8%AA-%D9%88%D8%A7%D8%AD%D8%AF%D8%A9-%D8%A7%D9%94%D9%87%D9%85-%D8%B5%D9%86%D8%A7%D8%B9%D8%A7%D8%AA-%D8%A7%D9%95%D8%B3%D8%B1%D8%A7%D9%8A%D9%94%D9%8A%D9%84-%D9%85%D9%82%D8%AA%D9%84%D8%9F
5. المرهبي. يحي أحمد، حروب الجيل الرابع..المواطن جندي في جيش عدوه، 2017/7/17

https://www.ajnet.me/blogs/2017/7/17/%D8%AD%D8%B1%D9%88%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D8%AC%D9%8A%D9%84-

%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8%A7%D8%A8%D8%B9-
%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%88%D8%A7%D8%B7%D
9%86-%D8%AC%D9%86%D8%AF%D9%8A-
%D9%81%D9%8A-%D8%AC%D9%8A%D8%B4

6. https://www.bbc.com/arabic/articles/cyj94lmgp31o
7. https://www.ajnet.me/news/2011/3/17/%D8%A7%D9%84%D8
%A7%D9%86%D9%82%D8%B3%D8%A7%D9%85-
%D8%A7%D9%84%D9%81%D9%84%D8%B3%D8%B7%D
9%8A%D9%86%D9%8A-
%D8%AA%D8%B3%D9%84%D8%B3%D9%84-
%D8%B2%D9%85%D9%86%D9%8A
8. https://www.ajnet.me/politics/2023/12/5/%D9%87%D9%84-
%D8%AA%D8%B3%D8%B9%D9%89-
%D8%A5%D8%B3%D8%B1%D8%A7%D8%A6%D9%8A%
D9%84-
%D9%84%D8%AA%D9%82%D9%88%D9%8A%D8%B6-
%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%84%D8%B7%D8%A9
9. https://www.bbc.com/arabic/articles/c51vw31k4wdo
10. https://www.skynewsarabia.com/middle-east/1688565-
%D9%88%D8%A7%D8%B4%D9%86%D8%B7%D9%86-
%D8%AA%D8%B9%D9%84%D9%82-
%D8%AA%D9%85%D9%88%D9%8A%D9%84-
%D8%A7%D9%84%D8%A7%D9%94%D9%88%D9%86%D
8%B1%D9%88%D8%A7-%D8%BA%D8%B2%D8%A9-
%D8%B4%D8%A8%D9%87%D8%A7%D8%AA-7-
%D8%A7%D9%94%D9%83%D8%AA%D9%88%D8%A8%
D8%B1

الأبعاد الاجتماعية وانعكاسات الحرب على غزة – مقاربة سوسيوثقافية[14]

د. محمد نجيب بوطالب

أولاً: تساؤلات مثيرة حول مجريات الحرب على غزة تستحق التشهير والإدانة العالمية:

نورد في هذه المداخلة مجموعة من الملاحظات الصادمة التي تعرفنا بخطورة الموقف وشناعة الحرب وتبين أهمية الموضوع وضرورة اهتمامنا به، كل من موقعه لاعتبارات إنسانية وقومية وأخلاقية. وهي مداخل عديدة يمكن لكل منها وحده أن يكون موضوعا صالحا للنقاش والتحليل والتوسع.

1- جريمة القتل والإبادة وتعميم الموت الحاصل في الحرب على غزة: نحن إزاء مثال آخر لبشاعة القتل والموت. فأن يكون الدفن ممنوعا فهذا لم يحصل عبر التاريخ بهذه الشاكلة، منع إسعاف المصابين وتركهم ينزفون حتى الموت، تجريف المقابر، التنكيل بالجثث. وتصل حدة عقل الإبادة الراسخ في الفكر والممارسة الصهيونيين إلى قول أحد وزرائهم :" يجب أن يعذب الفلسطيني في غزة بما هو أكثر من الموت.". هذه الشواهد تعطينا دليلا لا غبار عليه على لا إنسانية الفكر الصهيوني وامتداداته، كما يجعلنا نتوجه بهذه الدلائل إلى من لا يزال مضللا بالدعاية العدوانية الصهيونية والامبريالية الداعمة لهذا الفكر وتلك الممارسة.

2- القتل الجماعي إبادة تصنعها حضارة العصر: ثمة أيضا ظاهرة أخرى تستحق التحليل السوسيولوجي، وهي ظاهرة الموت الجماعي بطريقة تنطوي على رغبة جامحة لدى القاتل في إحداث الكثير من التعذيب والألم، فقدان الأهل دفعة واحدة، تلك ظواهر. نادرة عبر التاريخ لم يعرفها المجتمع البشري سوى في حالات الزلازل الكبيرة. وبقدر ما يجب تحليل أبعاد هذه الظاهرة إلا أنه يجب التعريف بها على نطاق عالمي واسع باعتبارها دليلا ساطعا على نتيجة "صناعة الحضارة الغربية". فأن تفقد عائلة

---

[14] نص مداخلة الأستاذ الدكتور محمد نجيب بوطالب أستاذ علم الاجتماع بندوة نظمتها وحدة الدراسات الاجتماعية والأنتروبولوجية بالمعهد العالمي للتجديد العربي حول "الاثار الاجتماعية لطوفان الأقصى يوم 10 يناير 2023.

واحدة دفعة واحدة أربعين فردا من أعضائها، فهذا لا يصح عليه وصف غير وصف الإبادة الجماعية، وأن يصر العدوان الوحشي على قتل عائلة الصحافي الفلسطيني وائل الدحدوح بطريقة التوالي والإبادة الأسرية الموجعة فإنما يدل ذلك على الإصرار على القتل والتشفي والكراهية باستعمال القتل المقصود لأسرة إعلامية بشكل كلي.

3- تعداد المجازر الجماعية يغلب تعداد الجرائم الفردية: إن إحصاء اعتداءات جيش الاحتلال لم تعد تعتمد على إحصاء الضحايا من الأفراد، بل على عدد المجازر اليومية التي بلغت الآلاف. بما يؤكد أننا أمام جرائم مروعة تجاه المدنيين وأمام إبادة وتصفية عرقية لا غبار عليها؟ وهنا لم يعد خافيا على العالم أن مشروع الكيان الصهيوني في فلسطين إنما هو مشروع إبادة، هذا ما تدل عليه أدبيات الحركة الصهيونية منذ تأسيسها قبل أكثر من قرن، وما أثبتته سياسات دولتها بفلسطين المحتلة منذ عام 1948 إلى اليوم.

ثانيا: رغم الألم ورغم الدمار فثمة هذه المرة ما يدفع إلى الأمل في التحرير والنصر:

1- القوة الإيمانية بالقضية وبالحق بالذات باتت في هذه المرحلة تغلب القوة المادية مهما علا شأن القوة المادية ومهما تمترس أصحابها وراء مختلف أنواع صنع الدمار والإبادة، القضية الفلسطينية اليوم خير مثال على أن قوة الإرادة البشرية الخيرة تغلب قوة إرادة الشر . فالاعتقاد الصهيوني والغربي الداعم له في التفوق وفي الاعتداد بالجيش الذي لا يقهر، تبين الوقائع أن ذلك ليس سوى أوهاما بدأت تبددها إرادة التحرر والإصرار على المواجهة. والمؤشرات المادية وغير المادية الدالة على ذلك كثيرة منها:

2 – القدرة على إحداث الألم في صفوف العدو من خلال خلق هزة داخلية في كيانه المصطنع وإفقاد الدولة والجيش والمجتمع الإسرائيلي الثقة في نفسه والتسبب في حصول انشقاقات وتناقضات فيه بدأت تضعف كيانه.

3 – الرفض الدولي المتصاعد للاحتلال ولفظاعاته العنصرية وحصول ضغوطات كبيرة على داعمي دولة الاحتلال وخاصة في الغرب : 129 شبكة ومنظمة حقوقية عالمية تستهجن وتدين استعمال الولايات المتحدة الامريكية لحق النقض–الفيتو–

للحيلولة دون صدور قرار عن مجلس الأمن بوقف العدوان على قطاع غزة -8-12-2023 و ازدياد في عدد المحتجين من الشباب والطلاب والجامعيين في الغرب، تقديم قضايا وشكاوى بالكيان الصهيوني لدى محكمة العدل الدولية...

4- صمود الشعب الفلسطيني في غزة ورفضه التهجير والتفافه حول مقاومته الوطنية، وقدرة الشعب الفلسطيني الأسطورية على تحمل آثار العدوان من تقتيل وتشريد وتجويع، لكنه ظل متشبثا بأرضه وبوطنه وبمقاومته التي تمكنت من إدارة الحرب وآثارها بكفاءة واقتدار.

ثالثا: ظواهر ومشكلات أفرزتها الحرب (بعض الاستنتاجات السوسيولوجية في علاقة المثقفين العرب بالحرب على غزة):

يمكننا التعريج على جانب هام من النقاشات والتفاعلات النخبوية التي عرفها العالمان العربي والغربي وما بينهما في علاقة بالحرب على فلسطين خلال الفترة الأخيرة في مجموعة من النقاط التي تستحق التمعن، وهي:

- **اصطفاف المثقفين ومنهم علماء الاجتماع العرب**

معلوم أن المثقفين العرب ليسوا كتلة واحدة، لأنهم يختلفون في المواقع الطبقية و في الاهتمامات الفكرية و في المشاغل والاتجاهات الثقافية. و مع ذلك و في ضوء الواقع الجديد لا يكون هذا الحكم في جوهره الا نسبيا لوجود مواقف لدى عديد الجامعيين والإعلاميين في دول الخليج تعارض الحرب على غزة وتساند المقاومة الفلسطينية و ان كان ذلك بشكل محتشم ، فأصوات أولئك الأفراد و المجموعات ضلت متخفية أو مقموعة. مع ذلك يبدو المشهد مؤسفا في عديد الأقطار وخاصة تلك التي طبعت دولها مع الكيان الصهيوني أو تكاد.

- **تقليص الصراعات الأيديولوجية**

في سياق رصد التأثيرات وفي مستوى أول نلاحظ أن الحرب على غزة قلصت الفوارق بين المواقف الايديولوجية والسياسية بين النخب الثقافية والسياسية واختلافاتها. وهذه الظاهرة تحدث عنها علماء الاجتماع بشكل واسع، وهي متعلقة بطبيعة التحدي

الخارجي للمجتمع الذي يستوجب عند ظهوره التفافا وتضامنا تحدث عنه ايميل دركهايم و كثير من اتباع المدرسة الانقسامية في الأنتروبولوجيا. وفي مستوى ثان أحدثت الحرب على غزة صدمات بل استوجبت مراجعات لدى بعض المثقفين بمختلف شرائحهم و توجهاتهم تجاه الآخر الغربي و تجاه الأنا الثقافي. فبالنسبة للمثقف الذي كان يعد الغرب مرجعا مطلقا يصل به حد الإعجاب والاستلاب بدأ يتململ ويحرج من ذاك الموقف، الإعجاب بالغرب الذي كشف قسم منه انحيازه للظلم والعدوان. أما المثقف الإسلامي فقد قربته المشاهد من عروبته التي باتت خصوصيتها تميزه عن المثقف الإسلامي البعيد أو المحايد ، مثلما قربت المثقف العربي الحداثي والعلماني من إسلاميته التي جسدتها حركة حماس في مرجعيتها الإسلامية "الثورية" بعد أن شاهدا بالملموس كيف يكون الدين دافعا استثنائيا إيجابيا لدى المستضعفين للثورة والصمود، وسلاحا قويا يحفزهم نحو التوق للنضال ضد الغطرسة الاستعمارية ومن أجل تحرير الأرض والعرض.

- **الممانعة تأتي من محاور غير معهودة**

لم يجرؤ كثير من المثقفين والسياسيين وصناع الرأي العام في البلدان العربية على الإجهار بحقيقة تكاد تنطق، مؤداها أن المقاومة والممانعة المؤيدة للفلسطينيين بشكل صريح وفعال تأتي من محاور أخرى غير الرسمية وغير المعهودة.

- **مراجعة الانبهار بالغرب**

هل كان بعض المثقفين العرب بحاجة إلى صدمات قامت المقاومة الفلسطينية هذه المرة بالكشف عنها، لكي يعرفوا أن انبهارهم بفلاسفة ومصلحين وعلماء اجتماع يدعون التوق إلى الحداثة لا يخرج عن نظم الكلام وتنظير الفكر وأنهم لا يلتزمون بكلامهم؟

• نحتاج في وطننا العربي إلى الاهتمام ب "السوسيولوجيا الرمزية للأسماء":

ثمة حاجة إلى العمل على كشف الدلالات و نماذج القدوة ، فنحن مجتمعات رمزية بالأساس . فمن نتائج الحرب على غزة أفول شخصيات وظهور شخصيات على الساحة الفلسطينية سياسية وعسكرية وإعلامية مثل الإعلامي الشجاع وائل الدحدوح و قائدي القسام السنوار و أبوعبيدة و القائد العسكري اليمني سريع و المحلل السياسي

مصطفى البرغوثي والمحلل العسكري فايز الدويري الذي قال فيه أحد المقاومين بغزة وهو يضرب هدفه:"حلل يا دوري" وقد تحولت هذه العبارة إلى مصدر إلهام لفن المقاومة. كما انتشرت أسماء شخصيات رمزية سميت بها صواريخ حماس وطائراتها مثل القسام ويسين والزواري...لقد تحولت أسماء الشهداء أيضا إلى رموز تستنهض الهمم فيعجب بها الشباب ويقتدي.

- **الهجرة والتهجير كموضوع سوسيولوجي**

هذا الموضوع له علاقة وطيدة بما يجري من تفاعلات خلال الحرب على غزة وتطوراتها، يصدق عليها المثل العربي القائل :"انقلب السحر على الساحر" ، فبعد توسع عمليات الهجرة الإسرائيلية في الفترة الماضية إلى دول أوروبا الغربية والشرقية وتوقف الرحلات السياحية القادمة إلى الأرض المحتلة، يمكننا الحديث عن هجرة معاكسة من إسرائيل سوف يكون لها تأثير مضاعف على تركيبة سكان الدولة المصطنعة القائمة على دعاية ظلت أكثر من قرن تروج في وسائل الدعاية الصهيونية. لكن هنالك فرق كبير بين هجرة الإسرائيليين إلى الدول الأوروبية التي قدم منها آباؤهم، وهو ما يؤشر بوجود تحول كبير سوف يضعف من مقومات الدولة والمجتمع الإسرائيليين. وهو أفضل مثال لعلماء الاجتماع للتدليل على ضعف المجتمع المصطنع، وبين النزوح الفلسطيني داخل قطاع غزة.

ويأتي رفض السكان الفلسطنيين الغزاويين للتهجير إلى سيناء وغيرها مقابل تحملهم لعمليات النزوح القسري هربا من القصف الصهيوني داخل القطاع، يأتي ذلك كتعبير وطني راق لرفضهم لمخططات التهجير إلى الخارج. ويعرف التهجير داخل القطاع نسبة 90% من جملة السكان الذين يوجدون مشتتين بين الشمال والجنوب وغالبيتهم في مدينة رفح، لكنهم يتعرضون مع ذلك إلى القصف والإبادة لعدم وجود مكان آمن.

أما تهجير الفلسطينيين من أرضهم فقد أصبح في هذه المرحلة مستحيلا ومرفوضا مهما كان مستوى البطش والتدمير، فما حصل في عام 1948 لن يحصل هذه المرة، وقد رأينا مستوى كبيرا من الإصرار لدى سكان غزة في رفض النزوح إلى سيناء مصر وغيرها، رغم كل ما يتعرضون له من ضغوطات. فلن تنطلي الدعايات هذه المرة على

شعب تمرس على الصمود وتحمل المؤامرات رغم ضيق ذات اليد وتقصير ذوي القربى.

- **تقصير المجتمع المدني العربي**

إن ما نخرج به من هذه المتابعة للأبعاد الاجتماعية لطوفان الأقصى

بشيء من القلق، اعتقادنا بأنه بالرغم من المكاسب التي تحدثنا عنها يوجد تقصير كبير في ردة فعل المجتمعات المدنية العربية التي تشكل حاضنة للعديد من المثقفين والنخب، وهو تقصير في التفاعل مع ما يحصل بغزة من إبادة و تدمير.

ومن علامات هذا التقصير ودلالاته غياب ردود فعل نوعية في المنظمات المدنية العربية، من النقابات والجمعيات والروابط وهي فئات يفترض أنها معنية أكثر من غيرها بدعم القضية الفلسطينية وحشد الجماهير العربية لدعم القضية العربية المركزية، كروابط المحامين والصحافيين والأطباء والمهندسين والكتاب والفنانين والعمداء والشعراء والحرفيين والمزارعين والعمال وغيرهم.

ومن المؤسف أن ينقلب اليوم صب غضبنا و لومنا على المجتمعات المدنية الغربية في الشهر الأول من الحرب على غزة إلى توجيه اللوم إلى المجتمعات المدنية العربية لأنها تنتقد غيرها في الغرب بينما تنسى تقصيرها في مساندة و دعم المقاومة و فضح أعمال القتل الصهيوني للشعب الفلسطيني في غزة و في الضفة الغربية . صحيح أن ثمة ما يفسر ذلك التقصير في ظل هيمنة مجموعات ضاغطة تتحكم في الكثير من المنظمات العربية وتفقدها استقلاليتها بالمال في بعض الدول العربية وكذلك بسبب آخر هو المناخات السياسية العربية المعطلة للعمل المدني والسياسي في العالم العربي.

طوفان الأقصى وانقلاب السرديات

د. زهية جويرو

نجح حدث طوفان الأقصى وما تبعه من أحداث وارتدادات في تحقيق جملة من التغيرات على أكثر من صعيد، ولئن كان من الصعب في الوضع الراهن وسياقاته وموازين القوى فيه أن تفضي هذه التغيرات إلى تحولات جيواستراتيجية تقود إلى تحرير فلسطين أو على الأقل إلى إنشاء دولة فلسطينية موحدة ذات حدود ثابتة ومعترف بها دوليا، فإنها في الواقع مؤشرات على أن التحولات الكفيلة بتغيير الأوضاع تغييرا جوهريا ممكنة، بل تكاد تكون حتمية. ونظرا لكوننا لا نروم في هذه الورقة الإحاطة بكل أصناف التحولات التي هي بصدد التشكل منذ السابع من أكتوبر 2023 فإننا سنركز خاصة على ما له صلة بالبعد الثقافي_الفكري وبآثاره على طبيعة الوعي فلسطينيا وعربيا وعالميا.

وأول هذه المؤشرات المهيئة لحدوث تحول في الوعي العام محليا وإقليميا ودوليا إعادة التفكير في طبيعة الصراع الفلسطيني الصهيوني ومن ثمة في طبيعة "دولة إسرائيل".

1) من سردية "المظلومية اليهودية" إلى السردية الوطنية التحررية الفلسطينية

منذ فجر السابع من أكتوبر فوجئ الكثيرون من العرب ومن غير العرب بأن الرأي العام الغربي، الأوروبي والأمريكي خاصة، ليس له أية معرفة بالحقائق التاريخية لهذا الصراع، وحتى أولئك الذين يملكون شيئا من المعرفة هم واقعون تحت هيمنة مطلقة للسردية الصهيونية بكل مقوماتها. فهم لا يعلمون أن "إسرائيل" كيان طارئ مغتصِب لم يكن له وجود قبل 1948 وأن الدولة التي ظلت قائمة في البقعة نفسها على امتداد قرون هي دولة فلسطين، لذلك صدق هؤلاء وسلموا بأن الصراع بين الفلسطينيين والصهاينة هو نتيجة لطبيعة حماس الإرهابية وقد وظف الصهاينة كل خبراتهم وشبكاتهم ومواليهم وقدراتهم الخارقة، في الحشد الإعلامي وفي تحويل الأكاذيب المختلقة إلى وقائع لا يرقى إليها الشك، كما هو الشأن مع الأكاذيب التي اختلقوها بشأن ما اقترفه مقاتلو حماس يوم 7 أكتوبر مع المدنيين الإسرائيليين من ذبح الرضع وقتل الحوامل واغتصاب الفتيات المشاركات في الاحتفال الذي كان قائما عند اقتحام

الموقع العسكري الصهيوني. وقبل ذلك التغطية على الأصول التاريخية للصراع الذي انطلق منذ أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين والإيهام بأن الوضع الراهن لا صلة له بحقائق التاريخ والماضي الصهيوني واحتلاله لفلسطين، وإنما هو ناتج عن "العمل الإرهابي" الذي قامت به حماس، هذه الجماعة التي عملت الآلة الإعلامية الصهيونية على تصويرها في صورة أشد التنظيمات الجهادية دموية مثل تنظيم الدولة الإسلامية، داعش، حتى تظهرها للعالم تنظيما إرهابيا دينيا يقاتل دولة تمثل "الديموقراطية" الوحيدة في محيط تحكمه أنظمة استبدادية متخلفة وتعيش فيه شعوب لا تخفي عداءها المستحكم لشعب "إسرائيل" الضحية. وقد حرصت الصهيونية، التي هي في الأصل إيديولوجيا سياسية ذات مشروع سياسي، على إشاعة صورة للصراع على فلسطين تخدم مشروعها من وجهين، بينما هي صورة مصطنعة اصطناعا لخدمة ذلك المشروع، صورة الشعب المظلوم عبر التاريخ، المشتت المتعرض باستمرار للتهجير والتقتيل بسبب عرقه وديانته، وهو ما أسست به لتقديم هذا الصراع في هيئة صراع ديني؛ حتى تستخدم ذلك في حشد كل المعادين للإسلام والمسلمين بحجة أن هؤلاء معادون للسامية وللدين اليهودي، مثلما استخدمت هذه السردية لإشاعة صورة للمقاومة الفلسطينية ترتبط بالإرهاب الديني؛ لتقاوم بذلك ما بدأ الرأي العام العالمي يدركه اليوم، وهو أن هذه المقاومة هي حركة تحرر وطني مثلها مثل كل حركات التحرر الوطنية التي قاومت استعمار بلدانها، والتي أقرت لها القوانين الدولية الحق في هذه المقاومة، واكتشفت في المقابل أن هذا الكيان الذي ظلّ يختلق الأكاذيب ويستثمر ما اصطنعه لنفسه من مظلومية ليس سوى كيان استعماري لا يعترف القانون الدولي نفسه بأن له "حقا" في الدفاع عن النفس، لأنه في وضع المستعمِر المحتل لأرض غيره. هذه السردية التي أشاعتها الصهيونية وكيانها المختلق والتي ظلت تتحكم في الوعي الغربي العام على امتداد أزيد من سبعة عقود أعطت للأنظمة الغربية الاستعمارية الإمبريالية مجالا لتنفيذ مخططها الأكبر، وهو إحكام سيطرتها على إقليم في موقع استراتيجي من أكثر أقاليم العالم ثراء بالموارد الطبيعية، وذلك بتثبيت كيان قاعدتها الاستعمارية في قلب هذا الإقليم وهو الوطن العربي. وقد استفادت هذه السردية الصهيونية في المواجهات السابقة بين كيانها من جهة والفلسطينيين والبلدان العربية من جهة أخرى من انخراط بعض الجيوش النظامية العربية في هذه المواجهات

العسكرية، إذ استغلت الحركة الصهيونية العالمية هذا الأمر لتأكيد مظلومية "اليهود" وأنهم شعب متعرض باستمرار للملاحقة والتشريد والتصفية العرقية في محيط يعاديه عداء تشترك فيه الشعوب والأنظمة، واستغلت الصهيونية وكيانها الاستعماري هذه السردية أفضل استغلال، واستطاعت أن تزرعها في العقول وساعدتها الأنظمة الغربية الحليفة الاستعمارية بدورها حتى تمكنت من فرض هيمنتها على الوعي الغربي، وعبر هذه الهيمنة تسربت لتفرض هيمنتها على الأنظمة السياسية بكل مكوناتها من حكومات وأحزاب ومنظمات، وصارت تتحكم فيها إما بالتواطؤ معها بحكم وحدة المصالح أو بالابتزاز بحكم هيمنة اللوبيات الصهيونية وأذرعها الإعلامية التي كانت تورط ذوي السلطة والقرار في ضروب من الفساد السياسي والمالي والأخلاقي حتى تملي عليهم ما يخدم مصالحها، ويكفي أن نشير في هذا السياق إلى ما يعرف في أمريكا حاليا بقضية إبشتاين[15] التي كان من المقرر الكشف عن وثائقها في شهر ديسمبر المنقضي، ولكن التلاعب القضائي أجل ذلك نظرا لتورط سياسيين وفنانين وإعلاميين وأثرياء في هذه القضية التي تكشف وجها من السقوط الأخلاقي الذي جرت إليه الآلة الصهيونية من تحتاج إلى توريطهم لتسهيل التحكم فيهم. ولكن الرأي العام الأمريكي بدأ يتساءل عن حقيقة هذه القضية وعن علاقتها باللوبي الصهيوني وعن الدوافع الخفية التي تقف وراء عمليات التوريط تلك، بل إن إعادة النظر في قضية ابستاين من قبل الرأي العام الأمريكي جر إلى إعادة النظر في قضايا أخرى بدأ ينكشف فيها الدور الصهيوني، كحدث الحادي عشر من سبتمبر واغتيال الرئيس الأمريكي كينيدي والتساؤل حول المالكين الحقيقيين لشبكات الدعارة والاتجار بالبشر وخاصة بالأطفال وحول الدور الصهيوني في التشجيع على كل أشكال الشذوذ والانفراط العائلي وغيرها من القضايا الخطيرة التي يفسر طرحها في هذا الوقت تحديدا جانبا من أسباب الجنون الذي أصاب العصابة الصهيونية والمنظومة السياسية والإعلامية الأمريكية. ومن خلال هذه الوقائع وغيرها من شبيهاتها نتبين إن أهم تغير أحدثه طوفان الأقصى هو تغير في الوعي، وهذا مكسب استراتيجي لأنه بدأ ينقل الفهم العالمي للأحداث من مدار صراع بين دولة "ديموقراطية" وجماعة من جماعات الإرهاب الديني الإسلامي

[15] https://en.wikipedia.org/wiki/Jeffrey_Epstein

إلى مدار مقاومة وطنية يخوضها شعب مستعمَر افتكت منه أرضه وأطرد من وطنه ضد جماعة دينية تم تجنيدها من كل الآفاق واقتلعت من مواطنها الأصلية ضمن أكبر مؤامرة عرفها العالم منذ بدايات القرن العشرين بهدف إنشاء قاعدة عسكرية متقدمة لفائدة القوى الإمبريالية الغربية تقوم على خدمة مصالحها في الاستحواذ على موارد المنطقة وعلى مواقعها وممراتها المائية والأرضية الاستراتيجية وتمنع أي مشروع للتحرر الوطني والقومي، بل ما فتئت الدائرة تتسع بانكشاف حقيقة التحالفات بين الصهيونية والإمبريالية الغربية وبأنها تحالفات أضرت بمصالح الشعوب الغربية نفسها التي اكتشف أنها تعيش في "ديموقراطيات" زائفة لا حرية تعبير فيها بل إعلام صهيوني هو المتحكم في ما يقال وما لا يجب أن يقال، ولا إرادة فيها للشعوب بل كل شيء يكاد يكون محكوما بسلطة اللوبيات الصهيونية وحلفائها. وقد بدأ هذا الوعي الجديد يؤتي أكله من خلال المواقف المتضامنة مع المقاومة الفلسطينية والمساندة للحق الفلسطيني في تحرير أرضه وبناء دولته، وهي مواقف وصلت حد اعتبار ما يحصل في فلسطين التعبير الأكثر تمثيلا لكل تطلعات الإنسانية للتحرر والكرامة ورمزا يختزل القيم الإنسانية. فالتظاهرات التي عمت أغلب بلدان العالم، والبلدان الغربية بصفة خاصة والتي ترفع شعارات متماهية مع الأهداف الفلسطينية وأهداف مقاومتها، وتطالب بوضع حد للاعتداءات الصهيونية ولحربها المدمرة على غزة وبتحرير فلسطين. فهناك مؤشرات عديدة على أن التغيرات الحاصلة في الرأي العام الدولي ليست موقفا مؤقتا مرتبطا باستمرار الحرب على غزة، بل هي تغيرات أعمق من ذلك وسيكون لها ارتدادات لاحقة لا تقف آثارها عند الصراع الفلسطيني الصهيوني بل ستشمل أمريكا والدول الغربية عامة لأن الأحداث المتسارعة كشفت جملة من الحقائق غيبها الإعلام المسيطر عليه صهيوني،ا من بينها أن هذه البلدان هي نفسها واقعة تحت الهيمنة الصهيونية سياسيا وإعلاميا وماليا وثقافيا، وأن أذرع الصهيونية داخل هذه البلدان هي التي تتحكم لا فقط في السياسيين وفي المؤسسة السياسية بل كذلك في الأغلب الأعم من النخبة الاجتماعية والفنية والجامعية وأنها لا تتورع عن استخدام أقذر الوسائل وأبشعها من أجل المحافظة على هيمنتها. لقد أسقط طوفان الأقصى أقنعة "التحضر الغربي" وكشف توحشه، فالسقوط المدوي لكل الشعارات الغربية وانكشاف حقيقة نفاقه وثنائية موازينه وافتضاح أكاذيبه وأن لا شيء يعنيه سوى مصالح حكوماته وأصحاب

السلطة والمتنفذين فيه ولو كان ذلك على حساب الشعوب الغربية نفسها بعض من المكاسب التي حققها طوفان الأقصى، فالمواطن الأمريكي الذي يعاني من ارتفاع كلفة التعليم والتأمين الصحي اكتشف أن "المستوطن الإسرائيلي" في أراضي الفلسطينيين يتمتع بهذه الخدمات مجانا بفضل التمويل الذي يتلقاه الكيان الصهيوني سنويا من أموال دافعي الضرائب من الشعب الأمريكي ، اكتشف الفرنسيون أن المواطنين الفرنسيين المتجنّسين بجنسية ثانية إسرائيلية وأن المنظمات الفرنسية التي يديرها هؤلاء تعمل لصالح إسرائيل والإسرائيليين على حساب مصالح فرنسا والفرنسيين ورغم ذلك يتمتعون بإعفاءات ومزايا ضريبية على حساب دافع الضرائب الفرنسي الذي يعاني من صعوبات اقتصادية كبيرة . وكذلك الشأن بالنسبة إلى أغلب الشعوب الأروبية كل بطريقة خاصة، إذ وجدت نفسها وبلدانها وحكوماتها مستخدمة بفعل اللوبي الصهيوني لصالح دولة استعمارية متوحشة ترتكب جرائم الإبادة والتطهير العرقي علنا وعلى أعين الجميع ضاربة عرض الحائط بكل الشعارات التي ترفعها الأنظمة الغربية وبكل القيم والأخلاقيات التي تؤمن بها البشرية والتي بها تكون الإنسانية.

أما على الصعيد الإقليمي فإن "طوفان الأقصى" قد أيقظ الوعي العربي أيضا بأن الجارين الإقليميين اللذين طالما تدخلا في شؤون العرب وشؤون فلسطين بالذات وطالما تاجرا بقضيتها واتخذاها شعارات لتحقيق مكاسب سياسية قد سقطت أقنعتهما لتسفرا عن نظامين لا يهمهما إلا خدمة مصالحهما وهذا ما قد يؤذن بتغير في مستوى نوعية العلاقات التي ستكون مستقبلا بين العرب وجيرانهم الإقليميين. نجح طوفان الأقصى كذلك في إيقاف، ولو مؤقت، لقطار التطبيع الرسمي بينه وبين بعض الأنظمة العربية بقدر نجاحه في إسقاط كل أوراق التوت عن عورات أنظمة عربية تعادي تطلعات شعوبها وتضع مصالح أوطانها تحت تصرف العدو ولخدمة مشروعه الاستعماري الذي لا شك أن حلقة من حلقاته ستكون لهذه الأنظمة مأساة لا تختلف كثيرا عن المأساة الفلسطينية. لقد أسقط الطوفان الأقنعة وعرى العورات وفصل فصلا قاطعا بين العدو والصديق وبين الوطني والخائن وبين من بخدم مصالح وطنه وشعبه ومن يخدم مصالح العدو حتى يبقي على كرسي نجس سيلعنه التاريخ

لم تقف ارتدادات الطوفان دون حركة حماس نفسها، فالتحول الذي نرى يوميا أدلة عليه في الإعلام عبرت عنه يكل وضوح في الوثيقة التي أصدرتها بعنوان "هذه روايتنا...لماذا طوفان الأقصى؟" إذ جاءت هذه الوثيقة لتعلن بأن حركة حماس قد التقطت، مخيرة أو مضطرة، أبرز رسالة كان يفترض أن تستوعبها من وقت طويل مفادها أن أية مقاومة إذا لم تكن مقاومة وطنية وأية حركة إذا لم تكن حركة تحرر وطني هدفها الأول والأخير هو تحرير الأرض المغتصبة وإعادة الشعب المهجر إلى مدنه وقراه ومواطنه، وإذا لم تدرك أن الصراع مع العدو ليس صراعا دينيا كما يحاول العدو نفسه أن يجر نحو هذا الطرح، وإنما هو صراع لين دولة محتلة وشعب مستعمر من جهة وكيان استعماري استيطاني محتل من جهة أخرى، فإنه من الصعب أن تتمكن من إقناع العالم بعدالة قضيتها وأن تكسب الرأي العام العالمي الذي تستطيع لواسطته أن تجابه النظام العالمي الراهن ومؤسساته المهيمن عليها أمريكيا وإسرائيليا. إن المعركة ليست معركة دينية بل هي معركة تحرر وطني ضد قوة استعمارية غاشمة لا تختلف عن كل المعارك التي خاضتها شعوب كثيرة من أجل إخراج المستعمر من أراضيها وتحرير بلدانها. من حق حماس ومن حق كل قوى المقاومة أن تستثمر وتوظف كل العوامل التي تضمن بها التفاف شعبها حول معركته من أجل التحرر ومن بينها تلك التي تثبت مقومات الانتماء من دين وحضارة وثقافة ورموز وتقوي اللحمة بين مكونات الشعب وتقنع شعوب العالم الحرة بعدالة قضيتها وبأن ما تدافع عنه وتضحي في سبيله بعود نفعه على الإنسانية قاطبة وعلى قيمها وأخلاقياتها. وقد قدم الشعب الفلسطيني في غزة خاصة وطوال المعركة صورة شديدة التأثير إنسانيا للدين والإيمان عندما يتحولان إلى مصدر تستمد منهما القوة على مواجهة الوحشية والطغيان والقدرة على الوقوف في وجه آلة الإجرام الصهيونية وعلى التضحية من أجل الحرية والكرامة وهذا في حد ذاته مكسب يحسب لصالح رسالة الإسلام. في المقابل كشفت المعركة نفسها كيف أن الدين إذ يستغل سياسيا كما تفعل الصهيونية إذ لاستغلالها لليهودية وتحويلها إلى مصدر شرعنت به الإجرام والتعدي على الحقوق وارتكاب أبشع جرائم التطهير العرقي والجرائم ضد الإنسانية، لتظهر هذا الدين بذلك إيديولوجيا فاشية لا تختلف في شيء عن الإيديولوجيا النازية وعن غيرها من

الإيديولوجيات المستبدة التي صنعت أبشع الجرائم في حق الشعوب والإنسان عامة ومنها الصهيونية نفسها.

غياب الأنسنة لقاطني قطاع غزة فى ظل عملية (السيوف الحديدية الإسرائيلية)

د. هند فؤاد السيد

المقدمة

بعد هجوم طوفان الأقصى الذى قامت به عناصر من كتائب القسام فى السابع من أكتوبر 2023 الماضى والذى ترك أثرًا بالغًا فى تأمين وحماية المواطنين فى إسرائيل مما أحرج الحكومة الإسرائيلية أمام مواطنيها وأمام العالم، لذا أعدت حكومة نتنياهو عملية أطلق عليها "السيوف الحديدية" والتى عمدت على تجريد سكان القطاع من الحقوق الإنسانية كرد فعل لهذا الهجوم، وفى ظل الاعتداءات والانتهاكات التى كانت ترتكبها حكومة نتنياهو فى الحروب السابقة على فلسطين دون معاقبتها من قبل القانون الدولى، عمدت هذه الحكومة إلى تعميق وترسيخ فكرة عمومية المسئولية على كامل سكان القطاع، وبالتالي التوجه نحو تجريد القطاع من الإنسانية بتفاصيلها المختلفة، وعدم الفصل بين المدنيين بوصفهم بشرا ولهم حقوق إنسانية والعناصر القتالية فى كتائب القسام أو المقاومة الفلسطينية فى تلك الرؤية[1].

وظهرت تلك الإشكالية واضحة، على سبيل المثال، فى الجدل الذى شهده الكنيست الإسرائيلى حول رفض مساواة أطفال قطاع غزة وحقهم فى الحياة بأطفال إسرائيل، وتحميلهم مسئولية ما يحدث كما قالت النائبة ميراف بن آرى، عضو الكنيست عن حزب هناك مستقبل (يش عتيد) الذى يتزعمه رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق يائير لبيد، والتى قاطعت النائبة العربية عايدة توما سليمان عدة مرات أثناء حديثها عن ضرورة وجود مساواة بين حياة الأطفال الإسرائيليين والفلسطينيين، ورفضت ميراف الحديث عن مساواة الأطفال أو وجود تماثل على مستوى الأطفال لدى الطرفين، مؤكدة أن الأطفال فى غزة هم من جنوا على أنفسهم[2].

ساهم ما سبق فى توسيع مساحة الاعتداء على القطاع، والتعامل مع الحرب بوصفها حرب إسرائيل ضد حماس، كما يتم الحديث عنها وتغطيتها فى العديد من التصريحات ووسائل الإعلام خاصة الغربية، من أجل تقييد المسئولية والتجاوز عن المعاناة الإنسانية للمدنيين فى القطاع، والتركيز على فكرة أنها حرب بين إسرائيل وحماس فقط

وليس ضد قطاع غزة بكامل سكانه البالغ عددهم 2.3 مليون نسمة، وتم وفقا لهذا تفريغ الحرب إلى درجة كبيرة من معناها وانعكاساتها الإنسانية الحقيقية، بوصفها حرب غزة الخامسة بكل ما تحمله فكرة الحرب على القطاع وسكانه من معانى، وما يترتب عليها من ضحايا وخسائر بشرية ومادية، والتى تم وصفها من قبل المنظمات الدولية المختلفة، وخلال أيام من الحرب الإسرائيلية ضد القطاع، بأنها عقاب جماعى وتهجير قسرى، وجرائم حرب[3].

فقطاع غزة هو شريط ساحلى محاط برياً بمستوطنات غلاف غزة وممر بري بينه وبين مصر، لا يملك أي مقدرات اقتصادية، ويعتمد فى إمداداته بمقومات الحياة على معابر وممرات تتحكم فيها إسرائيل. ولأن الأخيرة اعتادت انتهاك القوانين الدولية وعدم الاكتراث بقرارات الأمم المتحدة، مارست سياسات خانقة على القطاع وأهله على مدار 16 عاماً، حتى أصبحت الحياة فيه خانقة وصعبة، بل وتتصف بكل مظاهر الممارسات الاستعمارية والاستيطانية التى باتت جزءا من سرديات التاريخ فى كل العالم، عدا "غزة" ومدن أخرى من فلسطين المحتلة، لتبقى غزة عنوانا ونموذجا لـ"الاحتلال الاستيطانى الأخير" فى العالم[4]. لذا تحول قطاع غزة تدريجياً منذ 2007 إلى "سجن كبير"، تزيد أعداد قاطنيه يوماً بعد يوم لتصل إلى 2.3 مليون نسمة، بينما تقل مساحته تدريجياً بفعل ممارسات الحكومة الإسرائيلية الاستيطانية المخالفة لقرارات الأمم المتحدة[5].

فى هذا السياق، يثار هنا التساؤل حول الحقوق الإنسانية للفلسطينين القاطنين بهذا القطاع التى تأثرت – رغم تأثرها المسبق من السجن المفروض عليهم من قبل – من تداعيات طوفان الأقصى وعملية السيوف الحديدية، وإلى أى مدى يتمتع أهل القطاع بحقوقهم الإنسانية فى ظل هذه الحرب المستمرة؟

أولا: الحقوق الإنسانية للقاطنين بقطاع غزة

فى ظل الضربات الجوية المكثفة للمبانى فى القطاع، وجنوبه ووسطه التى وصلت إلى تدمير 80% من مبانى القطاع حتى لحظة كتابة هذه الدراسة، وارتفاع أعداد القتلى من سكان غزة إلى أكثر من 22 ألف و185 فلسطينى، وإصابة ما يصل إلى

57,035 شخص، غالبيتهم من الأطفال والنساء وفقا لبيان وزارة الصحة الفلسطينية. (حتى مساء الثلاثاء 2 يناير 2024). ومع الهجوم البري المتدرج بالدبابات والمدرعات والقصف المدفعى، تزايدت أعداد النازحين من الشمال إلى جنوب غزة لأكثر من 750 ألف نازح. هذا الوضع الإنسانى القاسى من المتوقع أن يزداد تعقيدا فى ظل عدم صدور قرار من مجلس الأمن بوقف إطلاق النار بين الجانبين، أو عدم امتثال الحكومة الإسرائيلية لمثل هذا القرار حال صدوره، أو عدم الامتثال للهدنة الإنسانية بين الجانبين التى تمت بوساطة مصرية قطرية أمريكية، كعادة إسرائيل المتغطرسة[6].

إن ارتفاع أعداد القتلى إلى أكثر من 22 ألف إنسان فى غزة، وعمليات العقاب والقتل الجماعى والتهجير القسرى داخل القطاع، وبعض من التطهير العرقى، والحصار الجماعى، والسعى إلى تدمير القطاع بالكامل، وانهيار شامل للقطاع الصحى، والأهم فى ظل هذه الأوضاع المأساوية هى تدفقات الصور والفيديوهات على شاشات التلفازات الفضائية العربية والأجنبية، وانعكاساتها على غالبية الشرائح الاجتماعية داخل البلدان العربية، وهو ما أدى إلى ما يلى:

قرار الحكومة الإسرائيلية بفرض "حصار" كامل على قطاع غزة، وهو ما يعنى تحول غزة من "سجن" يسمح بتمرير الكهرباء والطعام والعلاج بصعوبة إلى "صندوق" مغلق تماماً بلا ماء أو كهرباء أو طعام أو دواء، بداخله 2.3 مليون إنسان تحت القصف المتواصل والعشوائى. وبالتإلى يزيد هذا من تداعيات تمس بالحقوق الإنسانية لسكان هذا القطاع فيما يتعلق بالمياه والصحة والتعليم والمأكل وتلك حقوق أساسية يجب توافرها لأى إنسان وغيابها يحدث كارثة إنسانية وتجويع جماعى بما يحقق هدف إسرائيل من الإبادة الجماعية لسكان القطاع[7].

1) الحق فى الحياة الأمنة

لم يتمتع الفلسطينون بصفة عامة منذ ما يقرب من خمسة وسبعين عاما من الحياة الأمنة منذ بداية تهجير اليهود إلى أراضى فلسطين فى عام 1948 برعاية بريطانية فى البداية ثم رعاية أمريكية حتى الآن، وظل أهل فلسطين فى نزوح وتهجير قسري مستمر من أراضيهم من قرى يافا وحيفا وغيرها على حدود القطاع، وحتى الآن لم

يستطع الفلسطينيون التمتع بالحياة الأمنة فى ظل الحصار المفروض عليهم والعيش فى سجن كبير يتحكم فيه جيش الاحتلال بشكل كبير، وزاد الأمر سوءا مع تداعيات طوفان الأقصى والعمليات الانتقامية "السيوف الحديدية" التى تبنتها حكومة نتنياهو رغم اعتراض الكثير فى إسرائيل، وفى ظل غياب صريح للقوانين الدولية توقف تلك الانتهاكات، بجانب ازدواجية الخطاب الغربى فى التعامل مع الحرب، ولكن ظلت عمليات الانتقام مستمرة وتستهدف المدنيين أكثر من عناصر المقاومة وحماس.

ومن ضمن متطلبات الحياة الأمنة توفير مستوى معيشى لائق، وتوفير موازنة عامة للدولة الفلسطينية تساعد على تحقيق متطلبات العيش الكريم، لكن من قبل عملية طوفان الأقصى وحتى بعده ظلت الموازنة العامة تعانى من عجز يُقدر بـ536 مليون دولار، ارتفع بنسبة 29% خلال عام 2023، ومن المتوقع أن تزداد هذه النسبة بشكل كبير بعد عملية "طوفان الأقصى."

وفيما يتعلق بالديون المثقلة بها الدولة الفلسطينية فكانت تُعانى من زيادة كبيرة فى حجم الديون، إذ تبلغ نسبة الدين من الناتج المحلى الإجمإلى فى عام 2023 نحو 58.5% بحسب توقعات صندوق النقد الدولى، ومع هذه الخسائر المادية التى لحقت بتدمير قطاع غزة من البنية التحتية للخدمات والمدارس والمستشفيات والأسواق والمبانى الحكومية والمنازل وغيرها، فإن نسبة الديون ستزداد بشكل كبير جدا لدى الجانب الفلسطينى[8].

وأوضح المكتب الإعلامى فى غزة عبر بيان له أن عدد المنازل التى تعرضت للقصف بلغت 6 آلاف و500 منزل، وعدد الوحدات بلغ أكثر من 190 ألف وحدة، وعدد الهدم الكلى بلغ 32 ألف وحدة وأصبحت غير صالحة للسكن. كما أن عدد المقرات الحكومية التى تعرضت للقصف فى غزة من قبل طيران الاحتلال بلغ 79 مقرا، وهناك عشرات المرافق والمنشآت الخدماتية والعامة، كما تم قصف 47 مسجد و3 من الكنائس بمدينة غزة، بالإضافة لتضرر المدارس والمستشفيات، وما زالت هذه الإحصاءات غير مكتملة مع استمرار الحرب على القطاع[9].

وأوضح مدير المكتب الإعلامى سلامة معروف أن 18 ألف طن من المتفجرات التى قصف بها الاحتلال غزة وهى توازى حجم القنبلة النووية التى ألقيت على هيروشيما

مرة ونصف المرة. كما أفاد ارتكاب الاحتلال الإسرائيلى آلاف المجازر بحق العائلات الفلسطينية راح ضحيتها آلاف الشهداء، بجانب استشهاد 35 صحفيا، و124 من الكوادر الطبية، و18 من طواقم الإنقاذ من الدفاع المدنى، كما هدد جيش الاحتلال بقصف المركز الثقافى الأرثوذكسى ومدرسة تضمان أكثر من 1500 نازح[10].

جميع هذه الأحداث والمجازر المرتكبة فى حق الشعب الفلسطينى قاطني قطاع غزة تنم عن غياب الأنسنة والحياة الأمنة للقطاع، وعدم المساواة فى الحقوق بين الفلسطيني صاحب الأرض والإسرائيلي المحتل.

2) الحق فى الصحة

ظل سكان القطاع يعانون من العديد من التعديات من قبل الجيش الإسرائيلى والتحكم فى مصادر الوقود المغذية للمستشفيات، والتحكم فى دخول المساعدات والأدوية منذ فرض الحصار على قطاع غزة، فكان دخول المساعدات وتشغيل المستشفيات بأوامر من جيش الاحتلال، وظلت انتهاكات حقوق الإنسان فى مجال الرعاية الصحية مستمرة حتى عملية طوفان الأقصى، وبعدها أصبح كل شئ غير متاح ومستهدف، فالعمليات الانتقامية لجيش الاحتلال استهدفت حياة المدنيين من القتلى والجرحى ولم تكتفِ بذلك؛ بل أصرت على تدمير القطاع الصحى ومنع وصول الكهرباء والوقود لتشغيل المستشفيات لعلاج المصابين، هذا بخلاف منع دخول المساعدات الطبية والأدوية بما يعنى حدوث كوارث على مستوى الحق فى الصحة، فتدمير ومحاصرة محيط مستشفى المعمدانى والقدس والشفاء وغيرها من المستشفيات التى دمرها جيش الاحتلال وقطع الكهرباء واستمرارها لمدة خمس أيام متواصلة أدى لاستشهاد جميع المرضى فى مستشفى القدس من بينهم قسم الأطفال والحضانات، الأمر الذى يُنذر بخطورة كبيرة على سكان القطاع، ورغم نزوح البعض منهم إلى الجنوب إلا أن الحصار والضغط على الموارد الصحية والمستشفيات يؤدى لتقليل نصيب الفرد المعدوم أصلا من الرعاية الصحية والخدمات[11].

إذ أوضحت وزارة الصحة الفلسطينية فى بيان لها:

– أوضح المتحدث باسم وزارة الصحة فى غزة الدكتور أشرف القدرة إن 12 مستشفى و32 مركز رعاية أولية خرجت عن الخدمة، إما بسبب استهدافها من قبل الغارات الإسرائيلية أو بسبب عدم إدخال الوقود.

– كما أوضح الدكتور ريتشارد بيبيركورن من منظمة الصحة العالمية أن المستشفيات التى نعمل معها، جميعها يقوم بتشغيل المولدات بالحد الأدنى من المستويات فقط لعمليات إنقاذ الحياة، كما أكدت الأمم المتحدة، إن ثلث المستشفيات ونحو ثلثى عيادات الرعاية الصحية الأولية فى غزة أغلقت أبوابها بالفعل بسبب الأضرار الناجمة عن الحرب ونقص الوقود[12].

وتم حصار (مستشفى الشفاء) أكبر المستشفيات فى شمال غزة وقطع عنها الكهرباء مما تسبب فى وفاة جميع الأطفال فى قسم العناية المركزة، حتى الجثث المتراكمة أمام باب الطوارئ للمستشفى لم يتمكنوا من دفنها بسبب الحصار والقصف المستمر على المستشفى. واستمرار قطع الكهرباء زاد من الأوضاع سوءا وجعل المستشفى خارج الخدمة، وتسبب فى قتل العديد من المصابين المحتجزين فى العناية المركزة، كما جعل الوضع مأزوم بالنسبة للأطباء[13].

وقد وثّقت منظمة الصحة العالمية 48 هجمة على مرافق صحية داخل القطاع، تم تسجيلها فى نظام مراقبة الهجمات على مرافق الرعاية الصحية التابع لمنظمة الصحة العالمية. وأسفرت هذه الهجمات عن مقتل 12 من العاملين فى مجال الرعاية الصحية، وإصابة 20، وأثرت على 18 منشأة للرعاية الصحية وما لا يقل عن 20 سيارة إسعاف [14].

ومنذ مساء يوم 7 أكتوبر، توقفت السلطات الإسرائيلية عن بيع وتزويد الكهرباء لقطاع غزة، مما أدى إلى خفض ساعات الكهرباء إلى 3–4 ساعات يوميًا، ونفاذ الوقود من محطة توليد كهرباء غزة وتوقف تمامًا عن العمل، مما أدى إلى قطع مصدر الكهرباء الوحيد فى القطاع. وحذرت السلطات الإسرائيلية من أنها ستهاجم المحطة إذا تم تزويدها بأى وقود لإعادة تشغيلها. ونتيجة لذلك ظل القطاع تحت ظلام دامس حتى الآن[15].

3) الحق فى المياه الصالحة والصرف الصحى

منذ بداية التصعيد، ألحقت الغارات الجوية الإسرائيلية أضرارًا بالغة لسبعة من مرافق المياه والصرف الصحى والنظافة فى شمال غزة، والتى كانت توفر فى السابق خدمات المياه والصرف الصحى لأكثر من 1,100,000 شخص (أى ما يعني أن نصف عدد السكان تقريبًا بلا مياه أو خدمات صرف صحى). وفى بيت لاهيا وبقية المنطقة الشمالية، تتراكم مياه الصرف الصحى والنفايات الصلبة فى الشوارع بسبب الأضرار التى لحقت بخطوط الصرف الصحى والبنية التحتية. وجاء فى (التحديث 5) لتقرير OCHA، أنه منذ يوم 16 أكتوبر تم قطع الكهرباء بما يعني أن القطاع يقبع تحت ظلام دامس. ويعنى انقطاع الكهرباء أنه لا يوجد ما يكفي من الطاقة لتشغيل آبار المياه وضخ المياه من خلال النظام، ونتيجة لذلك، خرجت آخر محطات تحلية المياة فى غزة من الخدمة بما يهدد حياة الآلاف نتيجة الجفاف وانهيار منظومة النظافة العامة، كما تأثرت خدمات الصرف الصحى فى جميع أنحاء قطاع غزة. وتوقفت محطات معالجة مياه الصرف الصحى فى غزة عن العمل بسبب نقص الوقود، ويتم التخلص من أكثر من 120 ألف متر مكعب من مياه الصرف الصحى فى البحر يوميًا. كما انقطعت تمامًا إمدادات المياه من إسرائيل منذ مساء يوم 8 أكتوبر وحتى كتابة المقال، مما تسبب فى نقص حاد فى مياه الشرب لأكثر من 650 ألف شخص(16).

كما استهدفت الغارات الجوية العديد من منشآت الاتصالات، مما أدى إلى تدمير اثنين من الخطوط الرئيسية الثلاثة للاتصالات المتنقلة. ويعتمد سكان غزة الآن على خط واحد فقط للاتصالات عبر الهاتف المحمول والإنترنت، مما أدى إلى انقطاع خدمات الهاتف المحمول والإنترنت(17).

4) الحق فى الغذاء الأمن

إن فرض الحصار على قطاع غزة والذى من شأنه تهديد حياة المدنيين بحرمانهم من السلع والخدمات الأساسية الضرورية لبقائهم على قيد الحياة هو أمر مخالف للقانون الدولى الإنسانى، ما لم يكن هناك ضرورة عسكرية تبرره، كما أن فرض قيود على

حركة الأفراد والبضائع الذى من شأنه تهديد حياة المدنيين هو أمر محظور بموجب القانون الدولى. كما يعتبر الاستهداف الأخير لمعبر رفح انتهاكًا، وما ترتب عليه من تراجع للشاحنات المصرية عن الوصول إلى غزة نتيجة الخطر الذى يعترضها فى حال محاولة عبور المعبر[18].

ويستمر التجويع لسكان غزة منذ بداية الحصار وحتى الآن، نتيجة القصف المستمر للمناطق المحاصرة من أسواق تجارية وبنية تحتية ضرورية لاستمرار الحياة وقطع المياه، وقطع الكهرباء وتدمير للمبانى والمنشآت مما يشكل تجويعا وإبادة جماعية للقطاع الذى يقدر عددهم بـ 2,3 مليون فرد. كما أن منع المساعدات والشاحنات من معبر رفح يعد استمرارًا للانتهاكات الإنسانية فى حق سكان قطاع غزة، مما يزيد من سوء الأوضاع الحياتية والأمن الغذائى[19].

وأكد سكرتير عام محافظة شمال سيناء أسامة الغندور أن 193 شاحنة تحمل أكثر من 3100 طنا من المواد الغذائية والأدوية والمستلزمات الطبية قد أرسلت من الجانب المصرى من معبر رفح إلى قطاع غزة منذ 8 أكتوبر 2023 من أكثر من 20 مؤسسة مصرية. لكن لم يستقبل القطاع حتى الآن سوى 118 شاحنة فقط وفقا لتصريحات الهلال الأحمر الفلسطيني، وذلك بسبب إجراءات التفتيش المعقدة التى يفرضها الجانب الإسرائيلى فى معبر العوجة – نيتسانا مما يعرقل وصول المساعدات إلى غزة، وما تزال إسرائيل تفرض حظرا على دخول الوقود إلى القطاع حتى كتابة المقال[20].

أوضح أيضا مدير الهلال الأحمر المصرى بشمال سيناء خالد زايد أن 57 طائرة مساعدات لصالح غزة وصلت جوا إلى مطار العريش تحمل على متنها 1343 طنا من المساعدات المتنوعة مقدمة من 19 دولة عربية وأجنبية و14 منظمة دولية، وقد تم تخزينها فى 7 مخازن مؤمنة فى مدينة العريش لحين السماح بدخولها من قبل سلطات الاحتلال[21].

5) الحق فى التعليم

يوجد فى قطاع غزة ما يقرب من 183 مدرسة تديرها منظمة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينين (أونروا) التابعة للأمم المتحدة، تقدم الخدمة لما يقرب من 300 ألف طالب

وطالبة، وبسبب نقص التمويل تعمل تلك المدارس فوق طاقتها، حيث إن 63% منها تعمل بنظام الفترتين، ويستضيف المبنى الواحد مدرسة وطلابها فى الفترة الصباحية، ومدرسة أخرى بطلاب مختلفين فى الفترة المسائية، بينما تعمل 7% منها بنظام الثلاث فترات، وإلى جانب خدمات التعليم الأساسى، توفر الأونروا أيضا فرصا تدريبية مهنية وفنية لحوالي ألف طالب سنويا، فى مراكزها التدريبية فى غزة وخان يونس، وهى تستهدف الطلاب ضعيفى التحصيل والأشد فقرًا والأكثر عرضة للمخاطر[22].

ونظرًا لتكرار الحروب فى قطاع غزة ونزوح المدنيين إلى مدارس ومنشآت الأونروا التى تحمل علم الأمم المتحدة طلبا للحماية من القصف الإسرائيلى، فإن المنظمة فى العادة تجهز عددًا كبيرًا من المدارس لتحويلها إلى ملاجئ عبر تزويدها بأنظمة تساعد على المعيشة مثل زيادة عدد الحمامات، وتوفير مستلزمات وأغطية لاستقبال أكبر عدد ممكن من النازحين. وقبل طوفان الأقصى كانت المنظمة قد جهزت بالفعل نحو 80 مدرسة يمكن تحويلها إلى ملاجئ لتستقبل نحو 250 ألف نازح[23].

لكن مع بداية اندلاع الحرب فى السابع من أكتوبر 2023 حدث نزوح هائل من النصف الشمالى للقطاع إلى الجنوب وتدفق الناس تلقائيا على نحو 154 منشأة تتضمن مدارس ومخازن ومراكز صحية تابعة للمنظمة الأممية، بحيث استقبلت نحو 820 ألف نازح على الرغم من أن أغلبها لم يكن مجهزًا لذلك الغرض، وتعرضت نحو 67 منشأة لأضرار مباشرة وغير مباشرة، جراء 85 حادث قصف منذ بداية الحرب من بينها 17 حادث قصف مباشر وفقا للمتحدثة الرسمية للمنظمة تمارا الرفاعى.

وأعربت المتحدثة أن حصيلة القتلى بين موظفى الأونروا أنفسهم بلغت 104 موظف جميعهم فلسطينيون، ومئات من الجرحى أيضا. كما قصف الاحتلال العديد من المدارس أبرزها مدرسة الفاخورة عدة مرات خلال هذه الحرب. كما أوضحت أن الدراسة متوقفة تماما فى مدارس الأونروا وغيرها التابعة للحكومة الفلسطينية بسبب الحرب، وتخشى المنظمة من مشكلة سوف تواجهها بعد انتهاء الحرب وهى فقدان التلاميذ لعام دراسى إضافى فضلا عن عامين فقدا بسبب وباء كوفيد، لذا تدعو المنظمة لوقف إطلاق النار فى قطاع غزة لتجنب المزيد من الثمن الباهظ لهذه الحرب[24].

وقال المتحدث باسم وزارة التربية والتعليم الفلسطينية صادق الخضور أن 270 مدرسة من أصل 307 مدرسة تعرضت للقصف فى قطاع غزة بشكل متفاوت (بنسبة 88%). ولفت إلى أن الاستهداف الدائم للتعليم من قبل جيش الاحتلال يمثل محاولة لعدم الوعى وحرمان الفلسطينيون من حقهم فى التعليم، ويعد هذا غيابا لآدمية الإنسان الفلسطينى بالمقارنة بالإنسان الإسرائيلى الذى يتمتع بكافة حقوقه وخاصة التعليمية[25].

وتروي الأخبار الكثير من المجازر التى ارتكبها الجيش الإسرائيلى فى حق المدارس منها **(مجزرة مدرسة أسامة بن زيد)** التابعة للاونروا والتى تؤوي آلاف النازحين بمنطقة الصفطاوى فى قطاع غزة، هذه المجزرة من ضمن عدة مجازر وقعت خلال عملية طوفان الأقصى، وتسببت هذه المجزرة الإسرائيلية فى استشهاد ما يزيد عن 20 شخصا إلى جانب عشرات الجرحى. هذا بخلاف مجزرة **(مدرسة الفلاح)** التابعة للأنروا والتى تؤوى آلاف النازحين بمنطقة حى الزيتون فى قطاع غزة، وغيرها من المدارس التى كان ينزح إليها الفلسطنيون خوفا من القصف، وأشارت وزارة التعليم الفلسطينية إلى أن قتل مئات الأطفال، وأغلبهم من طلبة المدارس، إضافة إلى الكوادر التدريسية من المعلمين جرائم تستوجب الردع والعقاب والمحاسبة، فاستهداف قطاع التعليم فى غزة يشكل مخالفة وانتهاك واضح لمنظومة القوانين والاتفاقيات الدولية، بداية من اتفاقية جنيف، واتفاقية حقوق الطفل وغيرها من الاتفاقيات الأمر الذى يستوجب اتخاذ موقف حاسم بشأن الحق فى التعليم من الشركاء الدوليين تجاه ما يتعرض له قطاع التعليم فى غزة والجرائم المتواصلة فى حق الأطفال[26].

ثانيًا: غياب الحقوق الإنسانية لسكان قطاع غزة بعد طوفان الأقصى

يتضح مما سبق، ومن تطور الأوضاع أن الصورة القاتمة فى غزة لا تقف عند عدد القتلى والجرحى ولكنها صورة مكتملة الأركان لتدهور وغياب كل معانى الحقوق الإنسانية لسكان القطاع بعد عملية طوفان الأقصى والسيوف الحديدية التى تبنتها إسرائيل تجاه القطاع، إذ بات هناك توقف تام لجميع مصادر الحياة (من مأكل ومشرب وصحة وتعليم وكهرباء وغيرها) هذا بخلاف غياب الحياة من الأساس لسكان القطاع، فلم يعد هناك أمن وأمان لديهم.

أصبح الحصار المفروض على قطاع غزة أكثر قسوة وضراوة من القصف والضربات الصاروخية، لأن الشهداء فقدوا الحياة؛ بينما الجرحى والأحياء لن يتمكنوا من الاستمرار فى العيش بلا دواء أو مياه نظيفة أو كهرباء أو طعام، وبعد انقطاع الكهرباء وهدم شركات الاتصالات فقد العالم الاتصال بالمحاصرين داخل القطاع، وغابت كل معانى الإنسانية والحياة هناك. حتى النزوح القسرى لسكان غزة لم يعد حلاً تستطيع تنفيذه للبعد عن هذا الحصار كما هو الحال فى حالة نزوح أى من البشر من أماكن الصراعات المسلحة ثم عودتهم عقب نهاية الصراع، وذلك لالتزامهم التاريخى بالدفاع عن قضيتهم والبقاء فى أرضهم حتى لا يحقق الاحتلال هدفه ويتحول إلى استيطان كامل لأراضى فلسطين، ومن ثم يصبح نزوح أهل غزة داخليا وخارجيا أحد الحقوق الإنسانية والقانونية غير المملوكة لهم أيضاً[27].

فالأوضاع باتت بائسة إلى حد كبير فى ظل الحصار المحكم على القطاع، حتى بعد إقرار الهدنة وتبادل الأسرى بين الطرفين، واستمرار عمليات القصف والحرب التى تستهدف المدنيين من الأطفال والنساء، فجيش الاحتلال يتبنى فلسفة القضاء على الأعداء عن طريق القضاء على صغارهم ونسائهم، وازدادت الأوضاع سوءا بسبب الانتهاكات المستمرة فى حقوق سكان القطاع من عمليات التدمير المتعمدة للبنية التحتية من مدارس ومستشفيات ومحطات مياه وقطع للكهرباء وتدمير منازل، حتى المدارس التى نزح السكان إليها هربا من القصف استهدفوها للقضاء عليهم، فما يحدث على أرض غزة يعد إبادة جماعية لسكانها، خاصة الأطفال والنساء، لكن الأمر الذى يشكل نقطة مضيئة فى ظل هذا السواد الأعظم هم "**الأطفال الأبرياء**" الصامدون أمام كل هذه الانتهاكات فى حقوقهم الإنسانية، طامعين فى نيل الشهادة والدخول إلى الجنة أو آملين فى تغيير الأوضاع للأفضل واسترجاع وطنهم وانتصارهم، فهم يشكلون دفعة وروح جديدة للانتصار وعدم اليأس وتحقيقا للأمل، على عكس ما يحدث فى إسرائيل، فالخوف وردة الفعل الانتقامية، والقلق الذى يصيب حياتهم من جميع الجوانب يعبر عن خوفهم الشديد من صمود أهل غزة، ومن الهزيمة أمامهم[28].

كما أن "**النساء الصامدات**" من النقاط الفارقة فى صمود أهل غزة وتحملهن كل هذه الانتهاكات اللاإنسانية فى حقوقهن، فهن من يتحملن الجوع والعطش من أجل الأبناء،

يتحملن كل شئ سوء الأحوال الاقتصادية وضيق الحياة، واعتقال الأزواج والأبناء والأخوات، تحملن فراق الأزواج والأبناء والأخوات أيضا، صابرات على البلاء وعلى السجن والحصار، متحديات لكل الظروف الصعبة التى يعشن فيها دون انهيار من أجل وطنهم والدفاع عن قضيتهم وأرضهم، كما أنهن تقمن بتعليم أبناءهم وبناتهم الصمود والصبر من أجل العودة إلى أرضهم وديارهم التى فارقوها جبرًا وليس رغبة منهن فى التغيير. فهن أجبرن على النزوح القسرى وترك أرضهن بقوة النار من قبل الاحتلال الغاشم، وصامدات آملين فى العودة إلى أرضهن منتصرات [29].

وختامًا، تعد الانتهاكات والمجازر التى ارتكبها ومازال يرتكبها جيش الاحتلال الإسرائيلى فى حق الفلسطينين بقطاع غزة، أكبر دليل على غياب الأنسنة لسكان القطاع، فلم يعد هناك حق فى الحياة بسبب أعداد القتلى والشهداء، كما أن المصابين والجرحى معرضين لفقد حياتهم بسبب الحصار المفروض على الوقود والدواء والغذاء وخلافه، ويعيش النازحين فى سياق ملئ بالخوف وعدم الأمان بدون تعليم وصحة ومأوى آمن ومأكل ومياه نظيفة، فهم يعيشون فى ظلام دامس فاقدين لكل معنى للحياة. حتى المساعدات والشاحنات المرسلة من الدول والمؤسسات الأممية والدولية المختلفة لا تصل لسكان القطاع بالقدر الذى يكفى احتياجات النازحين والناجين من الحرب بسبب سلطة الاحتلال وتقييدها فى عمليات الدخول، حتى المنظمات الدولية تستغيث وتدعو لوقف الحرب دون انتباه من العالم أجمع، فما يحدث على أرض غزة يعد مجزرة إنسانية وكارثة حقوقية وموت جماعى وغياب لكل معانى الحياة فى ظل مرأى ومسمع الجميع.

المراجع

1. عبير ياسين، السردية الإسرائيلية حول حرب غزة الخامسة: محاولة للتفكيك، مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، القاهرة، 31 أكتوبر 2023.
2. المرجع السابق.
3. انظر لكل من:

– عبير ياسين، السردية الإسرائيلية حول حرب غزة الخامسة: محاولة للتفكيك، مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، القاهرة، 31 أكتوبر 2023.

– أمل مختار ونوران مدحت، حصار غزة والتداعيات الإنسانية: جريمة حرب مكتملة الأركان، مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، القاهرة، 16 أكتوبر 2023.

4. أمل مختار ونوران مدحت، حصار غزة والتداعيات الإنسانية: جريمة حرب مكتملة الأركان، مرجع سابق.
5. المرجع السابق.
6. انظر لكل من:

– سكاى نيوز، فى اليوم 88 .. ارتفاع عدد القتلى فى غزة إلى 22185 شخصا، سكاى نيوز عربية، 2 يناير 2024، الرابط:
https://www.skynewsarabia.com/middle-east/

– نبيل عبد الفتاح، طوفان الأقصى والسيوف الحديدية: المآلات المحتملة فى ظل حالة اللايقين، مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، القاهرة، 7 نوفمبر 2023، الرابط: https://acpss.ahram.org.eg/News/21045.aspx

7. نبيل عبد الفتاح، المرجع السابق.
8. رضوى محمد، ما هى الخسائر الاقتصادية المحتملة لعملية طوفان الأقصى؟، القاهرة الإخبارية، 8 أكتوبر 2023.
9. أحمد جمعة، الإعلام الحكومى فى غزة: إسرائيل دمرت 190 ألف شقة وتضرر 189 مدرسة، اليوم السابع، 26 أكتوبر 2023. الرابط:
https://m.youm.com/story/2023/10/26
10. الجزيرة، غارات إسرائيل المكثفة ألحقت الضرر بـ 203 من مدارس غزة، 31 أكتوبر 2023، الرابط: https://www.ajnet.me/news/2023/10/31
11. رضوى محمد، ما هى الخسائر الاقتصادية المحتملة لعملية طوفان الأقصى؟، مرجع سابق.
12. أميمة الشاذلى، أكثر من 40 مستشفى ومركزا طبيا يخرج عن الخدمة فى غزة، بى بى سى نيوز، 27 أكتوبر 2023، الرابط:
https://www.bbc.com/arabic/articales/crg15jnp1mgo
13. عبير ياسين، السردية الإسرائيلية حول حرب غزة الخامسة: محاولة للتفكيك، مرجع سابق.

14. الجزيرة، الحرب على غزة ..13 ألف شهيد والدبابات الإسرائيلية تتراجع وسط اشتباكات ضارية، 19 نوفمبر 2023، الرابط: www.aljazeera.net
15. أمل مختار ونوران مدحت، حصار غزة والتداعيات الإنسانية: جريمة حرب مكتملة الأركان، مرجع سابق.
16. المرجع السابق.
17. رضوى محمد، ما هى الخسائر الاقتصادية المحتملة لعملية طوفان الأقصى؟، مرجع سابق.
18. أمل مختار ونوران مدحت، حصار غزة والتداعيات الإنسانية: جريمة حرب مكتملة الأركان، مرجع سابق.
19. المرجع السابق.
20. أحمد مهران، بالأرقام .. تفاصيل "مساعدات غزة" حتى اليوم، سكاى نيوز العربية، 30 أكتوبر 2023، الرابط: https://www.skynewsarabia.com/middle east/1666086
21. المرجع السابق.
22. أحمد يحيى، ماذا نعرف عن مدارس الأونروا فى قطاع غزة والتى تعرض عدد كبير منها للقصف الإسرائيلى؟، بى بى سى نيوز عربى، 19 نوفمبر 2023، الرابط: https://www.bbc.com/arabic/articales/c878yp1e07eo
23. المرجع السابق.
24. المرجع السابق.
25. أحمد علاء، وزارة التعليم الفلسطينية: 88% من مدارس غزة تعرضت للقصف الإسرائيلى، 4 ديسمبر 2023، الرابط: https://www.shorouknews.com/mobile/news/view.aspx?
26. القاهرة الإخبارية، التعليم الفلسطينية قتل طلابنا وتدمير مدارسنا جرائم تستوجب الردع، 11 أكتوبر 2023.
27. عبير ياسين، محاولة السردية الإسرائيلية حول حرب غزة الخامسة للتفكيك، مرجع سابق.

28. نبيل عبد الفتاح، طوفان الأقصى والسيوف الحديدية: المآلات المحتملة فى ظل حالة اللايقين، مرجع سابق.
29. كريم القاضى، من سيحكم غزة بعد طوفان الأقصى؟، مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، 15 أكتوبر 2023.

صورة اليهود في حقيقتهم مع المسلمين

د. غالي بن لباد

ما نقصده بالثقافة اليهودية

الثقافة اليهودية هي مجموعة متنوعة من العناصر الدينية والتاريخية واللغوية والفنية التي تميز مجتمع اليهود. يشمل ذلك

الديانة والتقاليد: اليهودية تمتلك نظامًا دينيًا فريدًا مع تعاليم دينية مأخوذة من الكتاب المقدس اليهودي، ويتم التعبير عنها في الصلاة والطقوس.

اللغة: العبرية هي اللغة الرئيسية في التقاليد الدينية اليهودية، ولكن اليهود يستخدمون أيضًا لغات مختلفة في الحياة اليومية اعتمادًا على الموقع الجغرافي.

التاريخ: تاريخ الشعب اليهودي يعكس لنا صورتهم الحقيقية ، بدءًا من العصور القديمة حتى الوقت الحالي، مع تأثيرات كبيرة من التجارب التاريخية مثل نسخهم قردة وخنازير ، رفضهم أكل المن و السمن ، قصتهم مع السامري، قصة طالوت وجالوت. وغيرها من الأحداث التي يمكننا استخلاصها من القران الكريم.

أما الفنون والآداب: فيشمل ذلك الآداب والموسيقى والرقص والفنون التشكيلية التي تعكس التراث الفكري والثقافي لليهود، ولكنهم آثروا استثمار هذين العنصرين في الدول الإسلامية من أجل تضليلهم، فالغناء الحالي هو صورة للانحطاط العربي ودلالة صارخة على ثقافة الفجور والمجون التي أصبحت متأصلة في المجتمعات العربية.

الغذاء: من عادات اليهود أنهم لا يحبون تقاسم طعامهم مع أيٍ كان وهم يقومون بالبصق في الطعام إذا أحسوا أن هذا الشخص يريد أن يقاسمهم أكلهم ، وهي خاصية سلوكية توحي بالأنانية وحب الذات.

تمثل هذه العناصر جزءًا من تنوع وثراء الثقافة اليهودية، وتشكل جزءًا مهمًا من هويتهم الفريدة.

الدراسات الأنتروبولوجية حول اليهود

هناك دراسات انثروبولوجية حول الثقافة اليهودية والجوانب الاجتماعية والثقافية للمجتمع اليهودي. هذه الدراسات تتناول مواضيع متنوعة تشمل العائلة، والدين، والتقاليد، واللغة، والهوية الثقافية.

الأنثروبولوجيا تهتم بفهم الثقافات والمجتمعات من خلال دراسة التفاعلات والعلاقات بين الأفراد والمجتمعات. تساهم هذه الدراسات في إلقاء الضوء على التنوع والتطورات داخل المجتمع اليهودي، سواء كان ذلك في إسرائيل أو في المجتمعات اليهودية في أنحاء العالم.

يمكن العثور على العديد من الأعمال الأنثروبولوجية التي تسلط الضوء على تجارب الحياة اليهودية، وكيفية تأثير العوامل الاجتماعية والثقافية على تشكيل هويتهم وتفاعلاتهم.

دراسة الطقوس اليهودية تشمل تفصيلًا عن العديد من النواحي الدينية والثقافية المتعلقة بحياة المجتمع اليهودي. إليك نظرة عامة موجزة:

الصلوات والعبادة: تشكل الصلاة جزءًا مهمًا من حياة اليهود، وتقوم على تعاليم الصلاة المكتوبة في الكتاب المقدس. يتم أداء الصلوات في أوقات معينة وفي أماكن مقدسة.

العطل الدينية: يحتفل اليهود بعدة عطل دينية، منها عيد الفصح (بيساح) وعيد العرش (سوكوت) وعيد الفصح اليهودي (بيساح) وعيد الغفران (يوم كيبور). تختلف العطلات في طبيعتها وأساليب الاحتفال ومعانيها.

التوقيت اليومي والسنوي: تتضمن الطقوس اليهودية تعليمات بشأن كيفية قضاء الوقت اليومي والاحتفال بأحداث سنوية. يتضمن ذلك الالتزام بالسبت اليوم السابع في الأسبوع وتقديسه. وهذا لإعتقادهم أنه يوم غنيمتهم.

الحياة العائلية: تشمل الطقوس العائلية في الزواج والجنازة والاحتفال بولادة الأطفال والاعتناء بالعائلة.

هذه الطقوس تعكس ثقافة المجتمع اليهودي، ودراسة هذه الجوانب تساعد في فهم الثقافة الاجتماعية.

فاليهود يحتفلون بعدة أحداث سنوية، وتشمل بعض هذه الأحداث:
رأس السنة اليهودية (روش هشانا): يعتبر هذا اليوم بداية السنة اليهودية ويكون تركيزه على التوبة والصلاة والتفكير في مسار الحياة.

يوم الغفران (يوم كيبور): يأتي بعد رأس السنة ويعتبر يومًا للتوبة والصوم والصلاة، حيث يُعتبر يوم الغفران لطلب الغفران وتطهير النفس.

عيد الفصح اليهودي (بيساح): يتذكرون فيه اليهود خروجهم من مصر والحرية، ويقومون بسفر خاص وتناول الخبز الذي لم يتخمر (الماتزا).

عيد العرش (سوكوت): يعتبر عيد العرش أحد العطل الثلاثة الكبار، حيث يُقام فيه المأوى المؤقت (السوكا) ويحتفلون بمذاق الحياة البسيطة.

عيد الأضحى اليهودي (بوريم): يحتفل بوريم بالنجاة من مؤامرة ضد اليهود في فارس القديمة، ويشمل الاحتفال القراءة من كتاب "إستر" وإعطاء الهدايا والتبرعات. عيد الأنوار (حانوكا): يستمر حوالي ثمانية أيام، حيث يتم إضاءة شمعة إضافية في المنزل يوميًا. يعتبر رمزًا للعجائب التي حدثت في الهيكل المدمر في القدس: وهذا الاعتقاد نقله اليهود إلى بعض شعوب العرب ونجد له أثر في الفكر الميثولوجي العربي، حيث يقومون بشعل الشموع حين زيارتهم للأولياء، ويأخذ بعدا طقوسيا، حاملة دلالات كالشفاء من الأمراض، حل العقد، تحقيق الأمنيات وغيرها من الدلالات التي يمكننا استخلاصها من بعض الممارسات الطقوسية.

العلاقة بين اليهود والمسلمين هي قضية تاريخية وثقافية معقدة وتتأثر بالعديد من العوامل بما في ذلك الدين والتاريخ والسياسة. يمكن تلخيص بعض النقاط المهمة كما يلي:
التاريخ الديني: يشترك اليهود والمسلمون في الأصول الدينية المشتركة، حيث يعتبرون كل منهما إبراهيم (إبراهيم) نبيًا. ومع ذلك، تاريخ العلاقة بينهم يمتد إلى العديد من الفترات ويشمل أوقاتًا من التعايش والتعايش السلمي وأوقاتًا من التوتر والصدام. التاريخ السياسي: تأثرت العلاقة بين اليهود والمسلمين بالأحداث التاريخية مثل الفتوحات الإسلامية والصراعات في الشرق الأوسط.

النزاع العربي الإسرائيلي: تأثرت العلاقة بشكل كبير بالنزاع الفلسطيني الإسرائيلي، الذي أدى إلى توترات ونزاعات في المنطقة.

التعايش في بعض الفترات: في بعض الأوقات التاريخية، عاشت المجتمعات اليهودية والمسلمة جنبًا إلى جنب في بعض المناطق مع فترات من التعايش السلمي وتبادل الثقافة والتجارة.

التنوع الثقافي: يعيش اليهود والمسلمون في جميع أنحاء العالم، ويشكلون مجتمعات ثقافية، وهو ما تسعى اليه العولمة اليهودية ، لأجل ان تجد فضاء طبيعي تندمج فيه ولا تظهر كجنس مختلف، انها وعبر أزمنة تاريخية تبحث عن التكيف، لأن اليهود لا مجتمع لهم و لا علاقات تفاعلية و لا تجانس بينهم.

في النهاية، يعكس العلاقات بين اليهود والمسلمين واقعًا معقدًا يتأثر بالعديد من العوامل، وتتنوع هذه العلاقة بشكل كبير حسب الزمان والمكان والظروف التاريخية.

وحدة استشراف المستقبلات

مداخلة تعقيب على محاضرة د. فارس الخطاب حول مستقبلات غزة بعد طوفان الأقصى

عنوان المداخلة: "مشاهد مستقبل الحرب على غزة ودرب الحرية المتسارع"

أ. جمال العملة

تقديم

كنا نظن أن التتر والمغول هم الأكثر وحشية ودموية في التاريخ فقد كانوا يتلذذون بالقتل بلا رحمة، يدمرون المدن وينهبون البيوت والقصور والأسواق ويتركون الأرض خراباً كأنها أرضاً محروقة .. لنكتشف اليوم أن هناك من هم أكثر وحشية وفتكا منهم، حيث تقوم قوات الاحتلال الصهيوني مدعومة من حلف شمال الأطلسي وعدد غير محدود من المرتزقة الذين لا ينتمون للإنسانية بتنفيذ مذبحة على شاشات التلفاز ونحن نعيش في القرن الحادي والعشرين دون أن يرف جفن لمسؤول من القادرين على التأثير.

كنا نظن أن الخليفة المتوكل كان الأكثر ضعفا وجبنا في التاريخ العربي لنكتشف من هم أشد ضعفاً وجبنا منه في العصر الحالي، كنا نظن أن التاريخ لا يحوي من هو أشد خيانة من ابن العلقمي لنكتشف أن له تلاميذ تفوقوا عليه من أبناء جلدتنا.

سنحاول في هذه العجالة دراسة وتحليل مشاهد الواقع الذي يعقب حرب طوفان غزة مباشرة وسنبحث عن المشهد الذي يؤسس للمزيد من الاشتباك وصولا للتحرر والاستقلال، لذا فالمشاهد المنشودة هي المشاهد المستقبلية القريبة جداً خلال السنوات الخمسة الأولى من اندلاع الحرب.

المشاهد المستقبلية المستبعد حدوثها:

المشهد المستبعد الأول:- (دخول دول المنطقة كلها أو بعضها في هذه الحرب لإنقاذ من تبقى من أهالي غزة، وتتحول الحرب إلى حرب إقليمية موسعة)

فهذا مشهد عاطفي لن يحدث في ظل أن غالبية دول المنطقة مرتبطة مصائرها ومصالحها بأيدي الغرب الاستعماري، وفي ظل عدم وجود قوة دولية كبيرة مثل روسيا أو الصين على استعداد للتدخل لردع حلف شمال الأطلسي.

والمشهد المستبعد الثاني: تدمير القطاع، وكسر شوكة المقاومة والسيطرة على الانفاق، وإطلاق سراح من تبقى من أسرى العدو مجاناً، وانسحاب الاحتلال من قطاع غزة دون تهجير مواطنيه أو من تبقى منهم، وتسليمه للسلطة الفلسطينية للعودة إلى بدايات مشروع أوسلو

فهذا المشهد لن يحدث لأن السلطة الفلسطينية سترفضه رفضا باتا، كذلك لأن دولة الاحتلال هي من عمقت جرح الانقسام الفلسطيني الذي اعتبرته أكبر هدية تأتيها من أعدائها، فلن تسعى اليوم لمعالجة هذا الجرح بل لتعميقه، وهي من الأصل ضد وحدة الضفة والقطاع، وستسعى لجعل غزة جرحا نازفا ونزيفه لا يتوقف سواء بالقتال المدمر أو بالاحتواء المجهض –كما حدث لحزب الله في لبنان–

للأسف هذا السيناريو تروج له المخابرات الإسرائيلية ومراكز الأبحاث الأمريكية من أجل المزيد من احتواء الضفة الغربية، والأمريكان اليوم يتلاعبون ببعض الشخصيات السياسية الفلسطينية الذين قد تنطلي عليهم الأكذوبة الجديدة، "ومغفل من يأخذ بنصيحة عدوة أثناء حربه معه" كما قال الشاعر تميم البرغوثي.

المشاهد المستقبلية لما بعد الطوفان

أولا: المشهد الأول: تقوم دولة الاحتلال بترحيل أهل قطاع غزة إلى سيناء وتوطينهم فيها أو تشتيتهم في دول مختلفة في قارات العالم البعيدة، كما وتقوم بالقضاء على المقاومة في غزة، وتعيد احتلالها خالية من الفلسطينيين كأرض محروقة، لتنفيذ مشروع قناة البحرين الأحمر والمتوسط – أم الرشراش حتى شاطئ غزة– كبديل استراتيجي دولي لقناة السويس

مبررات نجاح هذا المشهد

- التواطؤ والدعم الغربي بقيادة أمريكا الذين يسعون لهذا الهدف بلهفة تفوق لهفة الصهاينة.
- عجز منظومة الأمم المتحدة عن اتخاذ قرارات ملزمة بالقوة لكبح جنون الاحتلال وأعوانه.
- الموقف الرسمي العربي والإسلامي الضعيف والباهت في أحسن أحواله والمتآمر والمشارك في الأحوال الأخرى، وعدم استعدادهم لاستخدام سلاح النفط والغاز ولا سلاح المقاطعة الاقتصادية، ولا بالتدخل العسكري.
- الروح الإجرامية الدموية التي يتصف بها أعضاء القيادة الصهيونية والذين أصبحوا كالوحش الهائج ولا رادع لهم.
- الحاجة الاستعمارية الغربية العميقة لهذا السيناريو من أجل إحياء خط التجارة الهندي في مجابهة طريق الحرير الصيني، وهو مشروع قديم جاءت فرصة يعتبرونها ذهبية لتنفيذه الآن.

عوامل فشل هذا المشهد

- القدرة القتالية العالية لدى المقاومة الفلسطينية والتي أرعبت العدو وأذهلت العالم، فقدرتهم على الصمود لفترات لا تخطر على بال خبراء العدو العسكريين، وليس أدل على ذلك من مرور 40 يوما دون أن يحقق الاحتلال أيا من أهدافه سوى تقتيل المدنيين وهدم المساكن وهدم الحياة. فلا شعب غزة غادر القطاع ولا المقاومة استسلمت ولا أسرى الاحتلال عادوا.
- الصمود الأسطوري لأهل غزة وتمسكهم بالوطن رغم كل المآسي وابتداعهم وسائل تحدٍ للجوع والعطش يعجز العقل البشري عن تصورها.
- الموقف العربي عموماً والموقف المصري الرافض لفكرة تهجير أهل غزة إلى سيناء أو إلى خارج فلسطين.
- التحرك الجماهيري العربي الذي بات يهدد باقتحام الحدود لنصرة أهل غزة، وهذا عامل مخيف للاحتلال وللاستعمار الداعم للاحتلال.
- التحرك الشعبي العالمي العارم الذي بات يشكل ضغطا عميقا على الأنظمة الاستعمارية أو المترددة والخائفة.

ثانياً المشهد الثاني: احتلال قطاع غزة احتلالا عسكريا كاملا، واستلام أسرى العدو مقابل بقاء أهالي غزة على أرضهم، مع السماح لرموز المقاومة والمقاتلين بالمغادرة بعد كسر شوكة المقاومة التي تقرر إنهاء نشاطاتها العسكرية حفظاً لأرواح ودماء المدنيين الفلسطينيين، وتسليم الشؤون الحياتية في القطاع لإدارة دولية من خلال الأمم المتحدة التي تسيطر عليها أمريكا، مع بقاء الجيش الإسرائيلي وقيامه بالسيطرة الأمنية والعسكرية متحكماً في القطاع

عوامل نجاح هذا المشهد

1- إصرار العدو على التدمير والمذابح بحق أهلنا في غزة دون أي استعداد للتوقف بل والسعي لتطويل الحرب وتهيئة الرأي العام المحلي والدولي لذلك.
2- الرفض الأمريكي الكامل لوقف إطلاق النار وكأن أمريكا هي من تدير الحرب بلا هوادة ضد المقاومة وتسعى لتحقيق أهدافها من هذه الحرب.
3- خطاب السيد حسن نصر الله أمين عام حزب الله في لبنان والذي حسم مسألة تعدد الجبهات وطمأن دولة الاحتلال بأن لا حرب من الجبهة اللبنانية، وللتدليل على ذلك فقد ارتفعت قيمة العملة الإسرائيلية الشيكل 3% فور انتهاء حسن نصر الله من خطابه.
4- نتائج مؤتمر القمة العربية والإسلامية حيث لا ضغط عسكري ولا اقتصادي ولا التلويح بهما، ولا ضغط سياسي أو دبلوماسي، وللدلالة على ذلك فقد ارتفعت قيمة الشيكل الإسرائيلي بنسبة 2% فور صدور بيان القمة العربية.
5- الجانب الإسرائيلي صرح في أكثر من مكان وزمان ومن أكثر من مسؤول بأن أصدقاءنا ليس فقط راضون عن القضاء على المقاومة بل يضغطون علينا للقيام بذلك! وليس أدل على ذلك من تأجيل انعقاد مؤتمر القمة العربية لما بعد مرور 36 يوما على إعلان إسرائيل وأمريكا الحرب على غزة والدماء تنزف والأشلاء تفطر القلوب! فماذا كانوا ينتظرون سوى القضاء على المقاومة !؟
6- التصريحات التي تطالب بتدويل قطاع غزة وهي كثيرة.

عوامل فشل هذا المشهد

1- لا تزال تجربة خروج الثورة الفلسطينية من بيروت عام 1982 حرصا على حماية المدنيين فلسطينيين ولبنانيين ماثلة في الأذهان!!! فماذا كانت النتيجة ؟ مذبحة صبرا وشاتيلا وأول اقتحام كان لمستشفى عكا في المخيم قتلوا الأطباء والمرضى واغتصبوا الممرضات. هذا العدو غادر وغدره اليوم سيكون أكبر وأفظع، فهذه التجربة لن تتكرر فلسطينياً.

2- الجيش الإسرائيلي بلا شك متفوق عشرات المرات على المقاومة من حيث التسليح والتكنولوجيا العسكرية والغطاء الجوي والبوارج في البحر ، بالتالي هو قادر على وصول أي مكان في قطاع غزة، لكنه غير قادر على الاستمرار في أي مكان فحرب العصابات الكر والفر أنهكتهم منذ الأسبوع الأول فلا قدرة لهم على المواصلة، والقيادة العسكرية الصهيونية اليوم ليست بقدرة ومهارة وجسارة ارئيل شارون الذي قرر الانسحاب من قطاع غزة وتفكيك كل المستعمرات وترحيل المستعمرين من القطاع عام 2004، كل ذلك قبل أن تكون المقاومة متحصنة في الأنفاق.

3- الشعب الفلسطيني في غزة يلتف حول فكرة المقاومة بغض النظر عن التنظيم، فكيف اليوم بعد كل هذه الثارات !!!

4- تجربة القوات الدولية والتدويل الإداري والعسكري لأي منطقة فشلت حيثما جربت في العالم، وشعب فلسطين حتما سيلفظها ويفشلها.

ثالثاً المشهد الثالث: (توقف الاحتلال عن القتال دون إعلان رسمي بوقف إطلاق النار وانسحاب قواته من قلب غزة وإعادة انتشارها في محيط قطاع غزة، وتوقف المقاومة عن إطلاق الصواريخ أيضا دون أي اتفاق رسمي بذلك، ودون أي التزام من أي طرف بعدم العودة للقتال أو الحرب، وحدوث عملية تبادل أسرى كبيرة من خلال وسطاء دوليين، وترك كل الخيارات مفتوحة للمستقبل

عوامل نجاح هذا المشهد

1- لعل انسحاب قوات الاحتلال من قلب غزة هو أفضل الخيارات الأمنية له، يظل حصار القطاع قائما وتظل قدرته وفرصه لقصف القطاع من محيطه قائمة دون الغرق في وحل حرب الشوارع.

2- التوقف النسبي للقصف بين الطرفين يعطي فرصة التقاط الأنفاس دون قيود تمنع تكرار القتال.

3- وقف القتال دون اتفاق .. يحرر الطرفين من الاعتراف المتبادل ويترك لكل طرف منهما فرصة التربص بالطرف الآخر في المستقبل، فكلا الطرفين له مصلحة في ذلك.

4- عملية تبادل أسرى كبرى تحقق مصلحة للطرفين أيضاً دون تنازل مبدئي لأي منهما.

5- موقف السلطة الفلسطينية الرافض للعودة لغزة على ظهر دبابة إسرائيلية، يمنحها في ظل هذا الخيار العودة الهادئة الكريمة للقطاع ويفتح فرصة للوحدة الوطنية الفلسطينية.

عوامل فشل هذا الخيار:

1- استمرار حزب الصهيونية اليهودية في إدارة الحكم في دولة الاحتلال، هذا الحزب المتمثل بالمتطرفين سموتوتش و بن غافير الذين يسعون لتكريس فكرة عودة الاستيطان الصهيوني في قطاع غزة، هؤلاء لا يفقهون لا في السياسة ولا في العسكرية لكنهم يتنفسون طقوسا توراتية استعلائية بصورة مجنونة.

2- نكث الاحتلال لأي تعهد مع وسطاء تبادل الأسرى سواء أثناء إجراء عملية التبادل أو بعدها، مستنداً للدعم الاستعماري الكبير له في كل خطواته.

3- ظهور تصدع داخل منظومة المقاومة في القطاع تجعل الاحتلال وأعوانه يسعون لخلق حالة تقسيم جغرافي وديمغرافي داخل قطاع غزة -لا سمح الله-.

لعل السيناريو المستقبلي المرغوب هو السيناريو الثالث: (توقف الاحتلال عن القتال دون إعلان رسمي بوقف إطلاق النار وانسحاب قواته من قلب غزة وإعادة انتشارها في محيط قطاع غزة، وتوقف المقاومة عن إطلاق الصواريخ أيضا دون أي اتفاق رسمي بذلك، ودون أي التزام من أي طرف بعدم العودة للقتال أو الحرب، وحدوث عملية تبادل أسرى كبيرة من خلال وسطاء دوليين، وترك كل الخيارات مفتوحة للمستقبل)

فهذا السيناريو يترك الباب مشرعاً لكل الاحتمالات ولجولات قادمة قد تصنع الأمل، وهذا هو المطلوب في هذه المرحلة وبعد هذه الجولة المحفزة.

مشاهد التحول في الرأي العام العالمي تجاه القضية العربية في فلسطين وضد الرواية الصهيونية خلال معركة الطوفان

مداخلة التعقيب على محاضرة د. غادة إبراهيم

عنوان المداخلة: **قدسية الدم الفلسطيني قلبت المشهد**

الباحث: أ. جمال العملة

ملاحظة تنظيمية

اطلعت قبل الندوة بعدة أيام على ملخص ورقة أو محاضرة د. غادة فوجدتها قد ركزت على الإعلام الافتراضي ووسائل التواصل من حيث التقنيات والأسلوب وكيفية العمل بها وكيفية استثمارها إيجابا أو استغلالها سلبا وربطت ذلك بالحرب على غزة وكيف أن الإعلام الجديد قد قلب ظهر المجن على الحركة الصهيونية ودولة الاحتلال "إسرائيل" والغضب الشعبي ضد المجازر وضد الأنظمة الاستعمارية التي تدعم الاحتلال وتتعامل بازدواجية مفضوحة.

تعريف

سيتناول التعقيب الموضوع من بعض الجوانب الأخرى، كطغيان الرواية الصهيونية المكذوبة على الإعلام العالمي والتضليل الذي يخيم على غالبية شعوب دول الغرب ومؤسساته حتى التعليمية والأكاديمية، مع وصف للمشهد النمطي الذي كان سائدا وكيف تحول، مع بعض المقترحات للحفاظ على هذا التحول في الرأي العالمي.

تقديم

لا شك أن قدسية الدم الفلسطيني الذي يتدفق بغزارة منذ مئة عام وقد أصبح شلالاً خلال العدوان القائم على قطاع غزة منذ فجر طوفان الأقصى في السابع من أكتوبر قد جعل الدم ينتصر على السيف بصورة قلبت موازين التأييد وغيرت الصورة النمطية التي كانت سائدة في الكون تجاه التعاطف مع دولة الاحتلال الصهيوني.

فكيف كانت الصورة وكيف أصبحت؟

المشهد قبل الحرب

التأييد شبه الكامل للرواية الصهيونية المكذوبة لا سيما في المجتمعات الغربية..

ومعالم ذلك:

- الحركة الصهيونية واللوبيات اليهودية تمتلك أو تحتكر الامبراطوريات الإعلامية في الغرب.
- الإعلام الغربي في غالبيته إعلام منحاز للموقف الصهيوني وينظر للفلسطيني والعربي كإرهابين مستغلين بعض التشويهات من المدسوسين على الدين الإسلامي (القاعدة وداعش ومن هم على شاكلتهم والذين هم من صنائع الغرب الاستعماري)
- وسائل التواصل الحديثة في غالبيتها بحوزة الحركة الصهيونية أو قريبة منها أو متماهية مع فكرة التقديس لليهودية الصهيونية.
- صدرت في الغرب قوانين تجرم أي تشكيك في الرواية الصهيونية مثل قضية الهولوكوست، بل أصبحت هناك قوانين تعاقب مجرد من ينتقد إسرائيل أو الحركة الصهيونية ويتهمون المنتقد باللاسامية التهمة الكفيلة بشطب حسابات المواقع الألكترونية على أقل تقدير.
- أجبروا المؤسسات الدولية والإنسانية وكثير من المؤسسات الإعلامية ومنها عربية بإلغاء التداول في تقاريرهم وبياناتهم وأخبارهم مصطلحات أو كلمات تعبر عن الواقع مثل:– الاحتلال أو العنصرية أو الاستيلاء بالقوة أو التطهير العرقي .. تجاه جرائم الاحتلال الإسرائيلي ضد الشعب الفلسطيني .. بل وإجبارهم على استخدام مصطلحات أخرى تعادل بين الضحية والجلاد وبين القاتل والمقتول مثل : الصراع الإسرائيلي العربي (لاحظ لا يقولون الفلسطيني! ليس إيمانا منهم بعروبة القضية بل طمسا لكلمة فلسطين وإنكارا لوجودها)، وعبارة "الأراضي المختلف عليها" بدلاً من الأراضي المحتلة، وتسمية "السكان المحليين" بدلا من الفلسطينيين!، وتسمية "الضفة الغربية وقطاع غزة" أو "يهودا والسامرة وغزة" بدلا من أراضي السلطة الفلسطينية بالرغم من اتفاقيات أوسلو، كذلك يمنعون تسمية "شهداء" عن الضحايا الفلسطينيين سواء أكانوا مقاومين أم مدنيين. ويمنعون تسمية الانتهاكات الاحتلالية كهدم المساكن وتجريف الأراضي وقلع الأشجار بوصف "جرائم" بل إجراءات! وعلى شاكلة ذلك الكثير الكثير.

- الكثير من القنوات العربية الرسمية والفضائيات العالمية المشهورة كالجزيرة والعربية تلتزم بالمحددات أعلاه.
- يسوق الاحتلال الإسرائيلي نفسه على أنه الضحية وأن الذي يضطهده هو الشعب الواقع تحت الاحتلال بل يدعي أنه الضحية الأولى في العالم.
- سرقوا الأرض والتاريخ والتراث والهوية الثقافية واتهموا العرب الفلسطينيين بأنهم سارقون للهوية اليهودية التاريخية وأنهم الآن يستعيدونها، تطبيقاً للمثل الشعبي الفلسطيني "الكذب المسرب أقوى من الصدق المعلوج"
- لديهم **عقدة الاستعلاء والتفوق** على سائر بني البشر وأن كل المخلوقات وجدت لخدمة اليهود فقط .

فمثلا الحاخام ياكوف بيران، نيويورك تايمز، 28 فبراير 1994 عنوان على الصفحة 1: **"مليون عربي لا يساوون ظفر يهودي واحد".**

ومثلا آخر: يقول **مناحيم بيغن،** رئيس الوزراء الإسرائيليّ الأسبق: "**اليهود أسياد العالم، نحنُ اليهود آلهة على هذا الكوكب، نحنُ نختلِف عن الأجناس السُفليّة مثل اختلافهم عن الحشرات، في الواقع، إنّ الأجناس الأخرى مُقارنةً مع جنسنا تُعتبر بهائم وحيوانات في أحسن الأحوال، قُدّرَ لنا أنْ نحكم الأجناس السُفليّة، سوف يحكم قائدنا في مملكتنا الدنيويّة بقبضةٍ من حديدٍ، وستقوم الشعوب بلعق أقدامنا وخدمتنا كالعبيد**" (خطاب ألقاه مناحيم بيغن في الكنيست الإسرائيلي، ونشره الصحافيّ التقدّمي الإسرائيلي أمنون كابيليوك، في كتابه (نيو ستيتمان)، في 25 حزيران (يونيو) سنة 1982.

- يسوقون صورة الفلسطيني أو العربي بصفة الإنسان الجاهل والإرهابي والكاذب والمنافق والمتطرف فكرا وعقيدة وسلوكه بوهيمي شاذ، وبالتالي فالعرب في نظرهم لا يستحقون التعامل الإنساني الكامل، وعليه مسموح لهم خداع العربي والتحايل عليه من أجل استغلاله، ولعل الرئيس الأمريكي السابق ترامب قال ذلك في أكثر من مناسبة بدون موارية.

المشهد يوم اندلاع الطوفان (مشهد صدمة السابع من أكتوبر)

- الصدمة والقهر والإحساس بالذل والخزي لدى كيان الاحتلال خلق رغبة مجنونة للانتقام .. فكيف يتمكن مجموعة من العرب المتخلفين أن يتفوقوا علينا أمنيا وعسكريا بهذا الشكل؟!.
- شعرت أمريكا بالخطر فأرسلت لهم النجدة بل ودخلت معهم في الحرب
- وضعوا جميعا خطة للانتقام والعقاب دون كوابح وأعلنوا استخدام بروتوكول هانيبال من اليوم الأول للحرب وبدأوا القصف الجوي بصورة جنونية.
- وقف العالم مشدوهاً وغير مصدق لما يحدث وبدأت محطات الإعلام العالمية خصوصا الموالية للحركة الصهيونية والدول الاستعمارية في حيرة ماذا تقول عما يحدث وكيف تنقل الخبر.
- اخترع لهم نتنياهو –المعروف بالكذب– قصة ذبح أربعين طفلا !!! فأخذوا يرددونها بلا منطق، حتى وقعوا في تناقض أكاذيب مذهل جعل الشعوب المعتادة على الاستماع لهم تفقد ثقتها بهم.

المشهد خلال الحرب: ظهرت الحقائق التالية:-

1- على الصعيد العسكري والأمني والاجتماعي الإسرائيلي:-

- جيش الاحتلال المعروف بأنه لا يقهر انهزم وتبين جبنه العسكري وأخذ يتلقى هزائم ميدانية لم يعرفها قبل ٧ أكتوبر وما تزال متواصلة.
- انكسرت نظرية الحرب الخاطفة التي استند إليها الجيش الإسرائيلي واضطر لدخول معركة طويلة مع أشباح.
- تماسك المقاومة الفلسطينية وقدرات عسكرية مفاجئة ونفس طويل بهدوء الواثقين.
- قتل متصاعد للضباط والجنود الإسرائيليين وخاصة من النخبة كبير جدا وتدمير الدبابات والعجلات والجرافات وناقلات الجند .. كل ذلك بصورة غير محمول لدى دولة الاحتلال، ولولا الدعم العسكري المتتالي من أمريكا ودول الغرب لما صمد جيش الاحتلال حتى اليوم.
- أصبحت التكلفة المالية للحرب مرتفعة بصورة مرعبة على الاحتلال، فضلا عن الخسائر الاقتصادية حيث أصبح النظام الاقتصادي الداخلي على حافة الانهيار لولا تحرك أوروبا وبعض دول الإقليم لتزويدهم بالتموين ومستلزمات الغذاء والدواء.

- ظهرت بصورة مشرقة مصداقية إعلام المقاومة، بالمقابل تهاوت الثقة بالإعلام الصهيوني وحلفائه.
- تزايد فقدان الثقة داخل مؤسسات صنع القرار الإسرائيلي، ولعل حادثة تفتيش رئيس هيئة أركان الجيش الإسرائيلي من قبل الحرس الخاص لنتنياهو نموذجا لذلك.
- حدث تخلخل في الجبهة الداخلية الإسرائيلية وتصاعدت الخلافات الحزبية والاثنية وغضب أهالي المحتجزين الإسرائيليين والذين هم في قبضة المقاومة.
- هاجرت أعداد كبيرة من الإسرائيليين من حملة الجوازات المزدوجة، حوالي نصف مليون منذ الأسابيع الأولى وهذه هجرة معاكسة غير مسبوقة.
- حدث شرخ اجتماعي جديد يمزق المجتمع الإسرائيلي المصطنع وتراجع الثقة بالقدرة على صناعة أمة متماسكة من هذا الكيان المنبوذ.

2- على الصعيد الدولي

- حراك شعبي عالمي متأجج وضاغط.
- خسارات إسرائيلية واسعة في الرأي العام الدولي.
- بدء انكشاف الأساطير الكاذبة للحق اليهودي في فلسطين وظهرت بحقيقتها البشعة بأنها مشروع استعماري وأداة له.
- تعرت الدول الغربية التي تدعي الديمقراطية وحقوق الإنسان وظهرت كيف أن معاييرها لا تنطبق على جميع البشر بالتساوي.
- كشفت الحرب الهوة السحيقة بين الشعوب وحكوماتها سواء عند العرب والمسلمين أو عند الدول الديمقراطية.
- ظهور جيل التوك توك بمظهر ضميري إنساني مشرف حيث أدوا دورا محوريا في كشف الحقائق وتحريك الشارع العالمي بعد أن اكتشف هذا الجيل حجم الخديعة التي كان يؤمن بها بأنه ينتمي لدول تؤمن بالحقوق الإنسانية واكتشفوا خبث الكيل بمكيالين فانفجروا بجرأة يعجز عنها الكبار.

3- ماذا فعلت القيادة الصهيونية أثناء الحرب:- لم ينتظروا انتهاء الحرب والتقاط الأنفاس وتحليل ما جرى واستخلاص العبر ثم وضع الخطط لاستعادة ما فقدوه ...! بل فهموا ما حدث واتخذوا قرارا فوريا وقالوا لأنفسهم:- "**علينا إعادة كسب الرأي العام الدولي**

قبل أن يتعمق فهمه لكينونة الفكرة الصهيونية الاستعمارية"... وركزوا على التشكيك بالحقائق الفلسطينية والعربية والإنسانية واستخدموا أسلوب تسليط الاستحواذ على الوعي وغسل الأدمغة بسرعة لا تنتظر التأخير، ثم يحاولون الطعن في قدرات المقاومة والقدرات العقلية والتقنية والتخطيط والتدريب من خلال بث إشاعات لتشويه المقاومة، بأنه كان هناك تراخٍ متعمد من قبل الأمن الإسرائيلي يوم السابع من أكتوبر بسبب أن نتنياهو بحاجة حرب لحمايته من المحاكمة ...الخ.

بالإضافة لذلك جندوا مبلغ 7 مليار شيكل (2 مليار دولار أمريكي) من أجل شن حملة إعلامية تضليلية جديدة بغرض استعادة ما فقدوه ...!!! يعني أنهم برغم تفوقهم الدولي تاريخياً لم يركنوا لذلك لاستعادة تأثيرهم بل جندوا أخبث خبرائهم ومزوريهم للاضطلاع بهذه المهمة ورصدوا لها الأموال الطائلة التي لا تقارن بما يتم صرفه عربيا على الدعاية المضادة.

4- ماذا فعلنا نحن العرب؟

- تناقلنا ونقلنا للعالم الأخبار المغمسة بالدم والأشلاء .. وهذا مجهود رائع.
- تفاعلت جالياتنا في دول العالم مع الحراكات الشعبية العالمية .. وهذا جيد أيضا.
- لكن .. لنتذكر جيدا أن الفضل كل الفضل في هذا النجاح يعود للإنجاز المبهر الذي أنجزته المقاومة، وللدماء الغزيرة التي أريقت، وللثبات الأسطوري الذي سجله شعب غزة وفلسطين للتمسك بالأرض وعدم الانجرار خلف مغريات الترحيل.
- ولم يكن لينجح ذلك لولا بطولة الصحافيين الفلسطينيين الذين أصبحوا هم وعوائلهم أهدافا للمذبحة الصهيونية بحق الفلسطينيين.

5- ماذا اكتشفت شعوب العالم؟

- الهوة بين المبادئ التي تطرحها حكوماتهم وبين التطبيق العملي لها وازدواج المعايير.
- أكذوبة الرواية الصهيونية
- مصداقية الحقيقة العربية الفلسطينية.
- البعد الإنساني والأخلاقي العميق للدين الإسلامي وللنخوة العربية، والذي تجلى في تعامل المقاومة مع الأسرى الصهاينة لا سيما مع المدنيين منهم.

- الاستعلاء الذي تمارسه الصهيونية اليهودية ضد كل البشر حيث انكشفت عورتهم في فلسطين.
- برزت أصوات اليهود في العالم في التظاهرات العالمية خلال هذه الحرب والذين يرفضون دولة الاحتلال الإسرائيلي المارقة ويطالبون بإنهائها لأنها دولة كفر لا علاقة لها باليهودية.
- اليوم باتت تعيش هذه الشعوب تحت تأثير الصدمة والبحث عن الحقيقة الإنسانية أي أنهم يعيشون حالة غضب وحيرة وحالة من التوهان الفكري.

لذا .. ومن هنا .. فإن مسؤولية الحفاظ على هذه المعرفة المستجدة والغضة وتحويلها إلى إدراك ثابت وقادر على الصمود أمام تيارات التشويه هي مسؤولية قومية ودينية وإنسانية عليا ... علينا أن نسعى لها بكل قوة، بل هي بالنسبة لنا فرصة تاريخية يجب ألا نهدرها...

فما المطلوب من الشباب العربي اليوم؟ من أجل المحافظة على حيوية الجيل العالمي الجديد ومواصلة التحرك عليه لكسب موقفه وتعميق معرفته لجذور قضية فلسطين وعدالتها، وهذا يتطلب:

1- عدم التوقف عن الحراك النشط بعد توقف المعركة بل تكثيفه بصور أخرى متجددة وإبداعية تليق بالنصر في غزة، فلقد أصبح لدينا مئات آلاف الفيديوهات التي تُنطق الصخر وتجلي الحقائق سواء من مآسي غزة أو من إبداعات أبنائها ونسائها وأطفالها الذين غدو أيقونات على المستويات العربية والإسلامية والعالمية.
2- تأجيج الحملة الشعبية العالمية للمقاطعة الاقتصادية والثقافية والرياضية والأكاديمية لدولة الاحتلال الصهيوني وداعميها -ما أمكن ذلك-
3- من غير المقبول أن تلتزم بعض الشعوب الأوروبية بحملات المقاطعة لا سيما الاقتصادية .. ولا يلتزم بذلك أبناء الأمة العربية في أقطارها المختلفة!!!
4- الدخول في قلب مؤسسات العالم الافتراضي سواء مؤسسات التواصل الاجتماعي أو المؤسسات الإعلامية بالشراء أو بالتعاقد أو بتأسيس محطات نمتلكها أو بحوزة أصدقاء من غير العرب شرط أن تكون ناجحة في جذب الشباب العالمي.

5- توسيع شبكات التواصل بين أبناء الجاليات العربية المنتشرة في العالم وبينهم وبين الشبكات الأجنبية ومواصلة العمل على التوعية والجذب من أجل الحقيقة.

ما هو المطلوب من المعهد العالمي للتجديد العربي؟

- يستطيع المعهد بحكم الخبرات التي يمتلكها القيام بدور مفصلي وتاريخي، وذلك باتباع الخطوات التالية:

1- تشكيل لجنة من علماء وأعضاء المعهد من خبراء الإعلام الافتراضي الاجتماعي ووسائل التواصل، ومن علماء التاريخ والعلوم السياسية والاستراتيجية ويطلق عليها اسم "لجنة الطوفان العربي"

2- تضطلع هذه اللجنة من العلماء بوضع مساق تعليمي على أكثر من مستوى (المرحلة الثانوية للمدارس والمرحلة الجامعية – على سبيل المثال) يشمل المساق المواضيع التالية (ويتم تحضير فهرس المنهاج التثقيفي هذا بعدة لغات):

- قضية فلسطين والحق العربي عبر التاريخ.
- الرواية الصهيونية الكاذبة وتفنيدها من جذورها.
- الديانة اليهودية وتناقضها مع فكر الحركة الصهيونية، وتسليط الضوء على طائفة اليهود السامريين "السمرة" الذين يعيشون في مدينة نابلس ((وهم فلسطينيون قلبا وقالبا ويرفضون الفكر الصهيوني اليهودي بل ويحرمونه)).
- العلاقة الاستخدامية بين الاستعمار والامبريالية وبين الحركة الصهيونية وكيانها إسرائيل.
- الأساليب التي يستخدمها الاستعمار في التحايل على مبادئ الشرعية الدولية ومواثيق حقوق الإنسان والسيطرة بالقوة على صناع القرار فيها.
- تقنيات وسائل التواصل ومنهجية الإعلام الافتراضي وكيفية تسخيرها للصالح العربي.
- تقنيات تحضير الفيديوهات الهادفة والموجهة والبوستات التي يتداولها شباب العالم بانجذاب.

3- التواصل مع جامعة الدول العربية والعرض عليها تبني خطة المساق التعليمي من أجل توزيعه على وزراء التعليم والتعليم العالي العرب لتبني تدريسه في المدارس والجامعات.

4- التواصل مع اتحاد الجامعات العربية وعرض فكرة تبني المساق من قبل جميع الجامعات العربية كواجب أكاديمي قومي.

5- التواصل مع جامعات الدول الإسلامية والصديقة من أجل تبنيها أيضا.

الهدف العام:- يهدف ذلك إلى تشكيل جيل عربي وإسلامي وعالمي قادر على خلق التغيير العميق في الفهم العالمي لماهية الاستعمار وماهية الماسونية والصهيونية وخطرهم على البشرية جمعاء.. والسعي من أجل القضاء على هذا الاخطبوط السام الدخيل حتى على الديانة اليهودية الحقيقية.

خاتمة التعقيب

الأمة العربية اليوم على مفترق مصيري من أجل أن تنهض الأمة وتكون كما يليق بتاريخها. إن طوفان الأقصى قد بدأ يوقظ المارد العربي النائم فاحرصوا أن لا يعود لسباته فقد بلغ السيل الزبى وبلغت القلوب الحناجر ..

ولعل مقولة الصهيوني هنري كيسنجر وزير خارجية أمريكا لمناحيم بيغن رئيس وزراء إسرائيل عام 1977 بعد توقيع اتفاقية كامب ديفيد:

"ها قد سلمتك أمة نائمة فخذ منها ما تشاء قبل أن تفيق، واحرص على ألا تفيق، فإنها إن فاقت فسوف تسترد في عام واحد ما فقدته في مئة عام"

فلنحرص من خلال معهدنا الرائد ألا تضيع الدماء الفلسطينية هباءً .. لأنها أمانة في أعناقنا وأعناق كل أحرار العالم.

مشاهد مستقبلات قطاع غزة بعد الحرب الإسرائيلية

د. فارس خطاب

لقد أفرزت حرب غزة التي تفّجرت بعد عملية "طوفان الأقصى" التي قام بها مقاتلو حركة "حماس" فجر يوم السابع من تشرين الأول / إكتوبر 2023م، عدة واجهات ومواقف دولية وإقليمية إضافة إلى الصور التي باتت سيدة المشهد العالمي والتي أتت وتأتي يومياً من داخل قطاع غزة والضفة الغربية وفلسطين المحتلة "إسرائيل". بدايةً لم تبقِ حرب غزة أية مساحة إخبارية لأي حدث عالمي آخر مهما كانت أهميته بما فيها أخبار أوكرانيا وروسيا التي شُغل العالم بها قسراً لفترة طويلة، ثم دفعت هذه الحرب ومرتكزها "طوفان الأقصى" كل دول العالم الغربي للتسابق، بما تعنيه هذه المفردة من معانٍ، إلى تقديم ولائها لحكومة نتنياهو مع فتح بوابات مخازن أسلحتها وعتادها كلها لتكون تحت إمرة الكيان الصهيوني مع حشد إعلامها ومواقفها السياسية والدبلوماسية لمنع وإبطال أي جهد من هذه الدولة أو تلك وبعضها "دول عظمى" لإصدار أي قرار يوقف هذه الحرب أو يمنح هدنة إنسانية للمدنيين الفلسطينيين الذين صبت "إسرائيل" حمم نيران أسلحتها فوق رؤوسهم وبناياتهم وقطعت عنهم عناصر الحياة المتمثلة بالماء والغذاء والدواء والوقود، حتى تجاوز عدد شهداء غزة فقط، وكلهم مدنيون ، أكثر من عشرة الآف شهيد، 70 بالمائة منهم من الأطفال والنساء ، إضافة إلى تقديرات تجاوزت الثلاثة آلاف آخرين قتلوا نتيجة قصف بناياتهم ودفنهم تحت أنقاضها لم تتمكن الإدارة المدنية للقطاع من الوصول إليهم بسبب ضعف إمكاناتها الفنية من جهة ، ولعدم توقف قصف الطائرات والمدافع الإسرائيلية نهائياً من جهة أخرى.

ما شاهده العالم من سلوك غير أخلاقي للجيش الإسرائيلي في حربه على غزة، مدعوماً بتصريحات القادة السياسيين للكيان الصهيوني، أسقط ما وسِم به هذا الجيش بتأثيرات المنظمات الصهيونية حول العالم، كونه "الجيش الأكثر أخلاقية في العالم" ، نعم شاهد العالم كيف يقتل الجيش الإسرائيلي المدنيين الفلسطينيين بشكل متعمد، وشاهدت المنظمات الأممية العاملة في قطاع غزة عمليات قصف لم يوازها بشاعةً إلا القنابل النووية التي أسقطتها القوة العالمية المارقة فوق مدينتي هيروشيما وناجازاكي

اليابانيتين، بل حتى المدارس الخاصة بالـ(UNRWA) والمستشفيات لم تسلم من نيران القصف الإسرائيلي حتى تحولت أجزاء كبيرة من قطاع غزة إلى ركام تملؤه رائحة الموت.

لا يوجد جيش في العالم يتلذذ بقتل المدنيين كالجيش الإسرائيلي، وربما يوازيه إلى حدٍ كبير الجيش الأمريكي خلال حروبه في فيتنام وأفغانستان والعراق، فقتل المدنيين هو العقيدة التي بنيت عليها منظومة جيش الدفاع الإسرائيلي، لكن، وفي ظل العالم الرقمي الذي نعيشه الآن، بات كل سكان الأرض، يرون ويسمعون ويشاركون في الرأي والقرار بعضهم البعض، حتى أن الضمير الإنساني دفع ملايين البشر من الكثير من دول العالم للخروج بتظاهرات غاضبة ضد "إسرائيل" ومتعاطفة مع الشعب المدني الأعزل في غزة.

نقترب الآن من شهرين وغزة تقاوم آلة الحرب الإسرائيلية، تململت دول عديدة بسبب طريقة تعامل الجيش الصهيوني مع المدنيين فيها وتزايد أعداد القتلى إلا واشنطن، ولندن وبرلين وفرنسا، فهم لم ينفكوا يرددون ما تقوله حكومة نتنياهو، لكن لماذا بدأت تصريحات بايدن وبلينكن تأخذ منحىً يميل إلى "هدنة إنسانية" تسمح بدخول بعض الإمدادات الإنسانية لداخل قطاع غزة ؟ إن الحقائق على الأرض تقول أن واشنطن ستكون الخاسر الأكبر في حال استمرار هذه الحرب وبالطريقة التي تسّيرها فيها "إسرائيل" ، وبدأت دوائر الدفاع والمخابرات المركزية الأمريكية ، تحذر من أخطار متصاعدة ستلحق بالقوات الأمريكية المتواجدة في المنطقة ، وأن من مصلحة الولايات المتحدة تهدئة الغضب الشعبي العربي من خلال فتح ممرات مساعدة إنسانية للغزيين المحاصرين في جنوب غزة ، لكن الضغوط التي يواجهها رئيس حكومة الاحتلال الصهيونية كبيرة جداً ، كما أن صدمة السابع من إكتوبر ما زالت تسيطر على أفعاله ، وهو معني بإعادة الاعتبار لمكانته السياسية المتدهورة؛ (27% فقط من الإسرائيليين يعتقدون أن نتنياهو مناسب لرئاسة الحكومة) ، من خلال أمرين مهمين ؛ القضاء على حماس ، وإعادة "تحرير" الأسرى الإسرائيليين من قبضة كتائب "القسام" و "الجهاد" وغيرها.

لقد كشفت الحرب على غزة عورات النظام العربي بشكل فظيع؛ إذ اكتفت معظم الدول العربية ببيانات خجولة ومتحفظة للتعبير عن ضرورة إبعاد المدنيين عن أي أعمال عسكرية، ويشاهد الحكام العرب هذه العملية ليشارك بعضهم المنظور الإسرائيلي في أن المشكلة في "حماس"، وأن غزة بدون حماس ستكون آمنة مزدهرة، فيما تستعر نيران الغضب لدى شعوبهم والتي سيكون لها ما يكون ولو بعد حين.

قد يتصور كثير من الناس أن نتيجة الحرب محسومة لصالح "إسرائيل" كونها غير متماثلة في الأصل، فالجيش الإسرائيلي مجهز بأحدث الأسلحة وتكنلوجيا الحرب والاتصال ودعم العالم الغربي وبعض المحيط العربي ، فيما أسلحة الكتائب المدافعة عن غزة محلية الصنع ومحدودة الكمية والتأثير، لكن الفرق بين عقيدتي القتال كبير جداً ، والمعارك الحقيقية إنما تُكسب بأفئدة الرجال ، فالجندي الإسرائيلي تحرك بأوامر من قادته وهو غير معني بـ"غزة" ولا يرغب مُطلقاً بالموت بسببها، فيما يدافع الغزاوي بدافعين، أولهما وطني متجذر في أعماقه من طفولته وهي "تحرير فلسطين والقدس"، وثانيهما "الاستشهاد" دون ذلك الهدف.

تحدث أستاذ دراسات الشرق الأوسط في كلية جاكسون للدراسات الدولية في جامعة واشنطن ومحلل الأبحاث الأول في معهد كوينسي، ستيفن سيمون، في مجلة فورن أفيرز"، عن مستقبل قطاع غزة في حال نجحت إسرائيل في القضاء على حركة حماس، المصنفة إرهابية. وأشار سيمون إلى أنه من المعروف أن العمليات العسكرية في المناطق الحضرية صعبة وتكلفتها البشرية عالية، وسيكون من المستحيل اقتلاع حماس بالكامل، باعتبارها حركة اجتماعية وليست مجرد جماعة عسكرية.

العملية العسكرية الإسرائيلية يشارك فيها حتى الآن أكثر من 350 ألف جندي احتياطي و170 ألف جندي في الخدمة الفعلية موزعين بين قطاع غزة والحدود مع لبنان، مع سيطرة كاملة على المجال الجوي والشريط الساحلي والحدود البرية لغزة، يقابلها بضعة الآف مقاتل من حماس كحدٍ أقصى.

المشاهد المحتملة لقطاع غزة

لا تزال هناك حالة من الضبابية تحيط بالتصورات المتعلقة بمستقبل "حماس" ذاتها ولا سيما في ظل صعوبة الاستشراف في الوقت الحالي على خلفية تصاعد الأحداث من ناحية، وتعدد الفواعل من ناحية أخرى، وتعقد التحركات من ناحية ثالثة، لكن يظل مستقبل "حماس" محورًا أساسيًا ورقمًا رئيسًا في تفكيك هذا المشهد بالغ التعقيد.

بدايةً فإن عملية القضاء على "حماس" ليست باليسيرة، بل ستشكل مهمة معقدة للغاية، وذلك على خلفية عدّة عوامل؛ يتعلق أولها بصعوبة القتال داخل قطاع غزة في ظل كثافة سكانه، وثانيها وجود ما يزيد على 200 محتجز لدى "حماس"، ويتصل ثالثها بوجود شبكة من الأنفاق للحركة والتي يتعين على قوات جيش الاحتلال الإسرائيلي التوغل بعمق في قطاع غزة حتى يستطيع تدميرها، ويدور رابعها حول قدرة قادة الحركة على التخفي فضلًا عن وجود عدد منهم خارج فلسطين.

ناهيك عن الخبرة التاريخية في هذا الصدد، حيث حاول جيش الاحتلال تنفيذ عمليات برية في قطاع غزة لكنها فشلت في تحقيق أهدافها:

كعملية الرصاص المصبوب (2008–2009) التي كان الهدف منها القضاء على الهجمات الصاروخية الصادرة عن قطاع غزة.

غير أن "حماس" استطاعت على المدى الطويل استئناف هذه الهجمات مرة أخرى.

كذلك عملية الجرف الصامد (2014) التي أعلنت إسرائيل في أعقابها أنها نجحت في إضعاف حركة "حماس"، لكن اتضح مع الوقت فشل هذا الطرح. أما بالنسبة لإجابة السؤال الثالث، فلم تضع إسرائيل تصورًا لمستقبل القطاع حال نجاحها في القضاء على "حماس"، إذ تشير تصريحات المسئولين الإسرائيليين أنفسهم إلى أنهم ليس لديهم تصور واضح لمستقبل القطاع في مرحلة ما بعد "حماس"، وبالتالي فإن الإطاحة بـ"حماس"، تنصرف إلى احتمالية أن يشهد القطاع حالة من الفراغ يترتب عليها موجة ضخمة من الفوضى وعدم الاستقرار، وذلك على خلفية أن القضاء على "حماس" لا يعني بالضرورة القضاء على باقي فصائل المقاومة التي ربما تستمر في حالة التصعيد ضد الاحتلال.

وفي ضوء هذه الإشكالية يبرز سيناريو ليس بالجيد بالنسبة لإسرائيل وهو توليها السيطرة المباشرة على القطاع، مع الأخذ بالحسبان أن هذا السيناريو ليس بالجديد لأنها كانت قد سيطرت عليه في الفترة من 1967 وحتى 2005 وانسحبت منه على خلفية التهديدات الأمنية الكثيفة من قبل فصائل المقاومة الفلسطينية، ومن ثمّ فإن عودة إسرائيل للسيطرة على القطاع مرة أخرى سيعزز من المقاومة الفلسطينية، كما سيزيد من الانقسامات في الداخل الإسرائيلي على خلفية التكلفة العالية التي من المرجح أن تتحملها إسرائيل حال توليها إدارة القطاع.

وزير الدفاع الإسرائيلي "يوآف غالانت" قال بأن الحرب في قطاع غزة تتكون من ثلاث مراحل؛ تركز المرحلة الأولى على تدمير "حماس" وتفكيك بنيتها التحتية، وتهدف المرحلة الثانية إلى القضاء على جيوب المقاومة، بينما تسعى المرحلة الثالثة إلى إنشاء نظام أمني جديد في قطاع غزة، وإزالة مسئولية إسرائيل عن الحياة اليومية في القطاع.

المشاهد المحتملة

المشهد الأول: انتصار إسرائيل أو حماس

دوافع المشهد: رغبة إسرائيل بالانتصار واجتثاث حماس وفرضية صمود حماس حتى يجبر العالم إسرائيل على وقف الحرب

- هو أن تقوم القوات الإسرائيلية بقتل أو أسر أكبر عدد ممكن من أعضاء «حماس»، وتفجير الأنفاق ومخازن الصواريخ، ثم ونتيجة لتزايد الخسائر الإسرائيلية، ستبحث إسرائيل عن طريقة لإعلان النصر والخروج من غزة. ويدعم هذا السيناريو إيمان الولايات المتحدة بعدم قدرة إسرائيل على تدمير أو اجتثاث "حماس" خصوصاً مع دخول الحرب شهرها الثاني وتزايد تبلور رأي عام دولي متصاعد ضد هذه الحرب التي تمثل شكلاً صارخاً من أشكال الإبادة الجماعية، كما المواقف الغربية الرسمية ومجموعة السبعة تذهب كلها باتجاه إنهاء هذه الحرب وإيقاف قتل المدنيين في غزة وهو أمر ليس في صالح الكيان الصهيوني ونتنياهو شخصياً.

يقابل هذا المشهد

- تمكن مقاتلي حماس من الصمود والمقاومة للقوات الإسرائيلية حتى التوصل إلى قرار أممي بوقف إطلاق النار وقيام إسرائيل بإطلاق سراح جميع الأسرى الفلسطينيين مقابل إطلاق حماس لكل الأسرى والمحتجزين لديها، وهو أمر ستستخدمه "حماس" وتعلن من خلاله انتصارها على الجيش الإسرائيلي بما يغطي نفقات هذا النصر من إستشهاد أكثر من 15 ألف مدني في قطاع غزة(حتى الآن).

المشهد الثاني: سيناريو تمدد الصراع إقليمياً

الدوافع: (تزايد النقمة العربية والإسلامية، خشية الأنظمة العربية من تصاعد الحراك الشعبي، رغبة قوى من خارج حماس بقطف ثمار تضحيات أهل غزة لصالحها)

من خلال تطور الأحداث وتزايد النقمة الشعبية العربية على الدور العربي والإسلامي الضعيف والمساهم بدرجة ما في تمادي الكيان الصهيوني في الانتقام من أهل غزة وقتل أكثر من 15 ألف مدني بينهم نسبة كبيرة من الأطفال والنساء والمسنين بالإضافة إلى من سيقضي بسبب الجوع والعطش وعدم وجود الأدوية وحتى المستشفيات، كل هذا سيفضي وبحسب رئيسة المفوضية الأوروبية أورسولا فون دير لاين لتحول الحرب على غزة إلى حرب إقليمية. يتحدث هذا السيناريو تحديداً عن انفجار الموقف خارج حدود غزة من خلال مساهمة قوى كـ "حزب الله" و "إيران" وكل القوى المنضوية تحت سيطرتها، في التعرض للقوات الإسرائيلية وبوسائل عدة، وقد أشارت إيران أكثر من مرة وعلى لسان عدة مسؤولين منهم وزير خارجيتها إلى أن "إيران لن تبقى على حياد إذا فشلت الولايات المتحدة في كبح جماح إسرائيل." وهذا السيناريو تخشاه عدة أنظمة عربية ونقلوا لوزير الخارجية الأمريكي بلينكن معارضتهم استمرار قتل المدنيين الفلسطينيين، لأنهم يخشون من تصاعد الغضب الشعبي في أنحاء المنطقة عندما يرتفع عدد القتلى الفلسطينيين في دولهم وفي عموم المنطقة.

لكن ومع استمرار الحرب لم تحرك إيران ساكناً واكتفى "حزب الله" بمناوشات حدودية قتل من أنصاره أكثر مما قُتل في الجانب الصهيوني، ومن تجربة المواقف الإيرانية

الخاصة بالكيان الصهيوني خلال نصف قرن مضى فإن من المستبعد جداً قيام أي حالة من حالات الحرب بينها وبين هذا الكيان لأسباب تاريخية وسياسية معلومة.

المشهد الثالث: سيناريو الدفع باتجاه التهجير

الدوافع: (جدية المشروع الإسرائيلي بتهجير أهل غزة مع مشاركة دول غربية في فتح أبواب هجرة الغزيين لدولهم)

يعد تهجير أهل غزة أحد السيناريوهات المتوقعة، وكشفت أوساط سياسية إسرائيلية عن مخططات عدة لترحيل سكان قطاع غزة؛ المخطط الأول أُعدّ في معهد "مسغاف" الذي يقوده مئير بن شبات، أمين أسرار نتنياهو ومبعوثه الشخصي للمهام الخاصة، ثم عيّنه رئيساً لمجلس الأمن القومي وكلفه ملف «اتفاقات إبراهيم» وهذا المخطط يتحدث عن ترحيل أهل غزة إلى قلب المدن المصرية وتدمير كل المباني في القطاع وتحويله منطقة سياحية إسرائيلية وإعادة الاستيطان اليهودي فيها ليصبح امتداداً لمدن الساحل؛ تل أبيب وأشدود وأشكلون.

ويتحدث الثاني الذي أُعدّ في وزارة الاستخبارات الإسرائيلية عن التأثير في الوعي الفلسطيني وإحداث انقلاب في عقلية الفلسطينيين بحيث يصبحون يرون في «حماس» سبباً في كارثتهم ويظلون يتذكرون لأجيال أن من يُحدِث جرحاً عميقاً كهذا بإسرائيل يدفع ثمناً باهظاً، مثل فقدان الأرض والوطن وليس فقط الأقرباء الأعزاء. ويشير هذا المخطط إلى ترحيل أهل القطاع إلى سيناء، مع خيار استيعاب مجموعات كبيرة منهم في دول الغرب.

المخططان يتحدثان عن دفع أهالي غزة بالقوة إلى المنطقة الجنوبية من قطاع غزة، إلى حين يجوعون ولا يجدون الماء ولا الدواء، ومن ثم يتم دفعهم إلى شبه جزيرة سيناء المصرية. وهناك تكون مصر مرغمة على فتح معبر رفح واستقبالهم وتولي شؤونهم.

رئاسة المفوضية الأوروبية حددت رأيها للوضع المستقبلي في قطاع غزة وفق هذا السيناريو من خلال طرح مبادئ تتماشى والرغبة الإسرائيلية في هذا الاتجاه ودون حساب للإرادة الفلسطينية فقد اعتبرت المفوضية:

أولا: أن غزة ملاذا آمنا للإرهابيين مشيرة إلى وجود منظمة "حماس" بالاسم. معتبرةً أي هدنة طويلة الأجل معها سيمكنها على الفور من إعادة بناء ترسانتها، والاستعداد للصراع المقبل.

ثانيا: تكون السيطرة وإدارة القطاع إما من خلال السلطة الفلسطينية في الضفة أو من خلال إنشاء قوة سلام دولية بتفويض أممي."

ثالثا: إن غزة جزء أساسي من أي دولة فلسطينية "مستقبلية." لذا لا يمكن أن يكون هناك وجود أمني إسرائيلي طويل الأمد فيها.

رابعا: لا للتهجير القسري للفلسطينيين من غزة، لأن ذلك لن يكون إلا وصفة لمزيد من عدم الاستقرار الإقليمي."

خامساً: لا لحصار مستمر على غزة، فإن هذه السياسة لم تنجح. حيث أصبح 70% من الشباب في غزة عاطلين عن العمل. وهذا لا يمكن أن يؤدي إلا إلى المزيد من التطرف. وأي دولة فلسطينية مستقبلية يجب أن تكون قادرة على البقاء، من الناحية الاقتصادية أيضا."

سادساً: وبحسب رئيس الدبلوماسية الأوروبية جوزيب بوريل، بأن المأساة في الشرق الأوسط تمثل فشلا أخلاقيا وسياسيا للدبلوماسية الدولية التي لم تبذل جهودا كافية لحل النزاع بين إسرائيل وفلسطين.

الخاتمة

في ضوء معطيات الواقع الحالي والمتوقع في الزمن القريب فإن السيناريو الأقرب للحدوث فعلاً هو توقف القوات الصهيونية عند الحدود بين شمال غزة وجنوبها حيث وافقت مضطرةً لوقف إطلاق النار وتبادل الأسرى والرهائن مع حركة حماس وبمشاركة إيرانية فاعلة، ثم يتم تسليم الكيان الصهيوني، قطاع غزة لقوات أممية متآلفة يحكمها قرار لمجلس الأمن الدولي يكون من بين عديدها ائتلاف من بعض الدول العربية مع قادة فلسطينيون سيأتون (من خارج) منظمة التحرير الفلسطينية المتواجدة في (رام الله) ويقيمون حالياً خارج فلسطين، هذه القوات ستستمر في الحفاظ على أمن غزة وإدارتها

حتى تتشكل قيادة فلسطينية تشمل الضفة والقطاع لن يكون فيها أي دور للرئيس الفلسطيني الحالي، محمود عباس، وفق معايير إسرائيلية وأمريكية.

أحد أهم المخرجات لهذا السيناريو سيكون تفعيل قرار "حل الدولتين" ولكن أي دولتين، دولة فلسطين المنزوعة السلاح والهيبة ، ودولة "إسرائيل" المهيمنة والمدعومة غربياً، وبعد هذا التفعيل ستطبع دول عربية بعينها وإيران علاقاتها مع هذا "الدولة" بما يعني ذهاب كل التضحيات الفلسطينية سدىً والمزيد من التمكين للكيان الصهيوني وإيران كقوى نافذة في الشرق الأوسط على حساب منظومة عربية فاقدة للقدرة على التأثير إلى حين.

وحدة الدراسات اللغوية والأدبية

أمسية فكريّة وفنّية بعنوان " أدب المقاومة"

د. زاهر حنني

افتتح الجلسة افتتاحيّة شعريّة ثمّ رحّب بالحضور الكريم في شخص رئيس المعهد والسّادة المحاضرين الكرام من أعضاء المعهد والضيوف، متوّجا كلمته بقصيدة وطنيّة بعنوان (جيش من ورق)(مرفقة) متغنّيا بروح الصّمود تزامنا مع أحداث غزّة وتجربة المقاومة الفلسطينيّة عامّة .. مشيرا إلى أنّ مفهوم أدب المقاومة ما زال إلى حدّ اليوم عائما، منوّها بتجارب من كتبوا في أدب المقاومة من داخل المعتقلات، لا سيما تجربته الشّخصيّة وبعض أصدقائه في انتفاضة الحجارة التي بدأت نهاية سنة 1987، مبرزا مدى تأثير أدب المقاومة في المتلقّي شكلا ومضمونا، لميله إلى التغنّي بقيم الحرّية والانتصار والسّلام التي تهفو إلى تحقيقها كلّ شعوب العالم. وفي ختام الندوة أثنى على جهود المتداخلين مشيرا إلى عظيم المنجز الإبداعي والفنّي في مجال الشّعر والأغنية المرتبطة بالحدث الرّاهن، مشيرا إلى ضرورة تنظيمه وإخراجه في ثوب فنّي وإعلاميّ مناسب، مطمئنا الحاضرين والأصدقاء على غزّة وأهلها، وفلسطين وشعبها.

******

أ. **ريم الماجري:** مقررة وحدة الدراسات اللغوية والأدبية، مديرة الأمسية، أستاذة وباحثة في اللّغة واللّسانيّات (تونس).

وضعت في كلمتها موضوع الأمسية الفكريّة والفنّية في إطاره العامّ من النّشاط الفكريّ للوحدة، مشيرة إلى استثنائيّة النّدوة من حيث قربها إلى الأمسية الشّعريّة والفنّية ممّا يجعلها مزجا بين الإمتاع الفنّي والمؤانسة الفكريّة. وقدمت بعد ذلك مدخلا موجزا عن أدب المقاومة، مبرزة في نبذة مختصرة ارتباط هذا الجنس الأدبيّ بفترة الاستعمار عامّة وبالقضيّة الفلسطينيّة خاصّة، مستعرضة بعض النّماذج لروّاده في أدب المقاومة شعرا ونثرا.

*****

شارك في الأمسية:

- الأستاذ الشّاعر **هشام الخلفاوي** (مؤسّس فرقة الشّمس الموسيقيّ، شاعر ومؤلّف غنائيّ).
- الأستاذ الفنّان **عبد اللّطيف النجّار** (أستاذ الموسيقى ومؤسّس فرقة الشّمس الموسيقيّ، عازف وملحّن ومؤدّ).

*****

د. خضير المرشدي: رئيس المعهد العالمي للتجديد العربي

تحدث عن أهمّية أدب المقاومة، مشيرا إلى أنّ ما يواجهه أدب المقاومة هو ذاته تلك المشكلات التي تواجهها القضيّة الفلسطينيّة والمقاومة معا، منبّها إلى دور الفعل الثّقافي في خلق المقاومة التي تنهض بفعل التحرّر والعدل والسّلام، بعيدا عن روح المخاتلة والخيانة والخداع. كما أبرز دور الأدب –باعتباره شكلا من أشكال المقاومة النّاعمة– في خلق الوعي السّياسيّ بما يخدم القضيّة والمقاومة في الآن نفسه، متسائلا عن دور المهرجانات والأغنية الوطنيّة في إشاعة روح المقاومة الخالصة التي تدفع باتّجاه تقوية الجبهات الدّاخلية للمقاومين، وفي إطار التّجديد (وهو شعار المعهد) دعا الشّعراء العرب المخلصين للقضيّة الفلسطينيّة، للمشاركة في تظاهرات وطنيّة وإقليميّة وعالميّة، فكريّة وأدبيّة نصرة للمقاومة والشّعب الفلسطينيّ.

*****

تأملات في فعل المقاومة وفعل الأدب

د. سعيد أصيل

على سبيل التوطئة

عرف الأدب، عبر مساره الطويل، تطوراً كبيراً وهائلاً، وصاحب الإنسان في هموم حياته وتحولاتها، وارتبط بجميع مراحل حياته؛ يعبر بواسطته عن حالاته المتقلبة، ويأوي إليه لبث شكواه وآلامه وأحلامه ومشاعره وأحاسيسه...

ومع مرور الزمن أخذ هذا الأدب يتحول نحو توجهات جديدة أفرزتها تحولات هذا الإنسان نفسه؛ فقد عرفت مجموعة من الأقوام والشعوب اعتداء بعضها على بعض وسلب حقوقه وحريته، واستعباده بشتى الطرق والأساليب التي لم يرتضيها كثير من الناس؛ فكانت المقاومة وسيلة لإعادة الحقوق ونيل الحرية وطرد الاستعباد.

من هنا برز فعل المقاومة، وصاحبه التعبير عنها حتى وصلنا إلى إنتاج أدب مقاوم سيتخذ أشكالاً متعددة مصاحبة للفعل وداعية إلى فهم القضايا المتصلة به ووعيها.

وقد حفل الأدب العربي بإنتاجات غزيرة من هذا النوع الذي يقارب هموم الثورة والتحرر والمقاومة، وصاحب المجتمعات والبلدان العربية في مسيرتها النضالية، عاكساً تلك التحولات والأحداث التي صاحبتها وعبرت عنها أصدق تعبير...

ما هي المقاومة؟

هي رفض للخضوع هي صمود ومواجهة لقوة المعتدي هي ردة فعل مجتمعية واعية ضد واقع مرفوض غير مشروع أو هي مواجهة لاستبداد أو استعباد أو ظلم أو تمييز أو احتلال.

فكيف يتفاعل الأدب مع المقاومة وكيف تتفاعل المقاومة في ظل الأدب؟...

في ظل الأوضاع العربية والتخلف الحضاري والغثائية المستشرية وترسانية الإعلام والثقافة التافهة أي دور للأدب العربي وللأدباء العرب أساسا؟

إن انخراط كثير من الأدباء والمثقفين العرب في تيارات الانحطاط بحثا عن شهرة أو حرصاً على جائزة مشبوهة معلومة التمويل ومحددة الأهداف وواضعة للشروط (ظاهرةً أو خفية أو ملتبسة) أمر يحتاج إلى مراجعة ودراسة.

ما العمل إذن؟.

نحن اليوم في أمس الحاجة إلى أدب ملتزم بقضايا وطنه وقيمه، ساعٍ إلى تجاوز الوضع المهترئ الجارف بتيارات الانحطاط الفكري والقيمي والأخلاقي والعلمي...

بين الهوية والتحديث والأدب

هل يعني التحديث تغيير كل شيء وتبديل، أو إبدال، الهوية ككل بهوية أخرى أكثر حداثة وتحديثا؟

إن الحفاظ على الهوية مقاومةٌ لاحتلال من نوع آخر: أخطر وأعمق وأطول وأكثر استمراراً وتجدراً.. إنه هزيمة يُلحقها طرف بالطرف الآخر، تصل مداها إلى الهزيمة النفسية التي ستستتبعها، بالتلازم، جميع الهزائم المرتبطة بالأبعاد الحضارية لمجتمع معين؛ وبالتالي بالأفراد المنتمين لهذا المجتمع.

الجمع بين الهوية والمقاومة لا ينفي، ولن ينفي، ضرورة الاستفادة من مستحدثات الحياة الجديدة وإنتاجاتها ومظاهرها التي يجب أن تتحول إلى محفزات نحو الإبداع والابتكار والتغيير الإيجابي الذي لا يقضي على الهوية ولا يعمل على تشويهها أو اقتلاعها من جدورها.

إن تحديث الحياة بوعي وفهم يغدو ضرورة لمراجعة واعية للهوية ومتطلبات العصر.. إنه تحديث واعٍ للحياة ومستلزماتها المتعددة؛ فعل يفيد الاعتزاز بهذه الهوية وإدراك عميق من أجل الحفاظ عليها وتحدٍّ لما يمكن أن يفسدها... وفي الوقت نفسه إدراك أن بعض مظاهره تحتاج إلى مراجعة تستحضر الأبعاد والتحديات المحيطة بها والمهدِّدة لوجودها، ثم الصراع الطبيعي القائم بين مختلف الحضارات والمجتمعات والهويات في إطار تدافع حضاري مشروع وفطري.

لابد، إذن، من تحديد استراتيجيات التغيير باعتبارها حاجة وضرورة ملحة؛ تحديث الإدارة، مثلاً، وتحديث المؤسسات والمناهج والآليات والمعارف والاقتصاد والسياسة وغيرها... ذلك كله مع الحرص على مقاومة اغتصاب الهوية واحتلال العقول عبر القصف الإعلامي والسياسي والفكري والأدبي بما يحمله من قيم "تغريبية" قاتلة لمكونات الهوية أو لبعض تلك المكونات...

إن دخول الأدب في صف المقاومة تماما مثل ما تدخل المقاومة المسلحة ضد العدو المحتل وتكافح وتستبسل لطرده من أرضها ودحره ورد عدوانه وطغيانه المستمر... كذلك يدخل الأدب ضمن مقاومة قيم التيئيس والانهزامية والضحالة الفكرية والأخلاقية والمعرفية والنفسية والفنية والأدبية...

هما، إذن، خطان متوازيان متلازمان، أو وجهان لعملة المقاومة الواحدة؛ لكلٍّ مساحته، ولكلٍّ فرسانه، ولكل استراتيجياته.. إنهما مقاومة السيف والقلم معاً، وأحيانا قد تكون الحاجة ماسة إلى أن يكونا متوازيين متلازمين، بل أحياناً متحدين.. ولعل غسان كنفاني يمثل هذا الاتحاد المقاوماتي المتلازم والمُتَّزِن للوعي بالقضية ولنشر هذا الوعي ولتحقيق نصر كان لابد من أجل تحقيقه الجمعُ بينهما، وكان على هذا الإنسان أن يحمل بندقية بيد ويحمل بالأخرى رواية أو قصة أو قصيدة مُتَدَثِّرَةً بالوعي بالقضية التي تدافع عنها تلك البندقية ليتأبطهما المقاومُ تحت إبطيه معاً؛ يخطوان معه أينما خطا، ويسددان الضربة معاً نحو الهدف كي لا تموت القضية التي يؤمن بها ويدافع عنها، وفي الوقت نفسه حتى لا تسقط البندقية التي تترجم هذا الوعي أو تَتْعَبَ الأكتافُ الصامدة التي تحملها وتحمل معها القنبلة وباقي المعدات التي تُسْنِدها...

إذا كانت الأرض العربية في أغلبها قد حُررت من الاحتلال العسكري الغربي الأوروبي فإن احتلالا آخر حل محلها وظل يشتغل من أجل توطين نفسه، في وعي العرب وفي لاوعيهم، حتى يحافظ على مصالحه، ويضمن استمرار هيمنته وفق رؤية غربية لم يستطع أن يتخلص منها أو ينهج منهج التعاون والتعايش والتثاقف، بمعانيها الحقيقية، بل احتفظ بها باعتبارها مجرد شعارات فخمة وفضفاضة تُقَوّيها آليات الإعلام القوية وخطابات الساسة والمسؤولين والمثقفين أمام كاميرات الشاشات والقنوات وعلى

صفحات الجرائد والمجلات والكتب، في الوقت الذي تم تمريرها من خلال إليه الأدب والفنون أيضا.

الأدب يكشف ويفضح زيف الشعارات والقيم التي يعمل الآخر، بمفهومه العام، على إشاعتها وتثبيتها داخل وعي الإنسان العربي كي يوصله إلى حالة يستطيع من خلالها السيطرة عليه واستغلاله؛ ومن ثم توجيهه، فيتحول إلى كائن استهلاكي طيّعٍ لجميع المنتجات التي يصنعها أو يهيئها أو يهندسها...

لقد رأينا، في مسيرة الأدب العربي الحديث، دعوات لعدم مقاومة الآخرين، واستنساخ كل ما له من منتوج تقني وصناعي وأدبي ونقدي لأنه متفوق ونحن متخلفون ومتقدم ونحن متقهقرون.. هو غالب ونحن مغلوبون، والمغلوب مولع بتقليد الغالب ومحاكاته والاستسلام له وفتح الأبواب مشرعة حتى يدخل بقده وقديده؛ وبالتالي نتنفس الهواء الذي جاء يحمله معه وإن لم يتنفسه هو لعلمه المسبق بأنه ملوث وغير صالح للحياة...

لقد كان الأدب، ولا زال، "في ثورة متصلة بالفعل (...)، ثورة توازي الثورة السياسية المتصلة في مسيرها أيضًا، وتعاني من صور الركود واليقظة والتقدم والتراجع ما تعاني زميلتها."

إن ما يمكن أن تقوم به القصيدة والقصة والرواية، وغيرها، ليس أقل مما تقدمه البندقية والقذيفة والصاروخ.. للنص الأدبي أيضاً زناده الذي يمكن أن نصيب من خلاله العدو في مقتل...

كما يمكن للأدب أن يكشف الوجه القبيح للعدو والمحتل وللعدو المدسوس بيننا، وأحيانا فينا.. يمكن للأدب أن يوقظ الخامل بيننا أو داخلنا بل في عمق عمق دواخلنا ولاوعينا...

يمكن للأدب، أيضاً، أن يمارس فعل "التطهير" الفكري والقيمي والنفسي، ويفجر تقلبات الروح نحو الالتزام بالقضايا وبالإنسان، بل إنسانية الإنسان وحريته وعدالة قضيته؛ تلك التي تغتالها آليات التشييئ والتبضيع الممنهج بأحدث علوم التسويق ودراسات اشتغال الدماغ البشري والدعاية والحرب النفسية، ومختلف وسائل التوجيه والتأثير...

إن انخراط الأدب في فعل المقاومة لا يعني تفريطه في أدبيته وفنيته؛ فهما أساس انبنائه ووسمه بصفة الأدب، ولا يعني التفريط في المقومات الأساسية التي ينبني عليها النص الأدبي، بمختلف أنواعه أو تداخلها وبمختلف تمظهراته، بل لا بد من الحفاظ على تجليات الإبداع الأدبية والفنية التي من خلالها نسمي نصاً ما أدباً، وندرجه في باب من أبوابه.

مرحلة أساسية في تاريخ الأدب العربي المقاوم

دخل المستعمر، إذن، بخيله ورَجْلِه، وفرض وجوده بقوة السلاح والبطش والعسكر، لكنه –وحتى يبسط سلطانه داخل "دواخل" الإنسان العربي كي يطول أمد المكوث أكثر وأكثر ما يستطيع– ساند غزوه ذاك بأنواع أخري من الاستعمار التي تسمح له بمزيد من التغلغل... وفي الوقت نفسه كانت المقاومة المسلحة تسير جنباً إلى جنب مع حضور الأدب المقاوم. ويقسم زكي نجيب محمود صور المقاومة تلك (وإن جاء الحديث عن مصر فإنه يمكن تعميمه على باقي الأقطار العربية) إلى ثلاث مراحل؛ لكل مرحلة مميزاتها وخصائصها:

1. المرحلة الأولى: امتدت من لحظة الاحتلال إلى نهاية الحرب العالمية الأولى، جاءت المقاومة خلالها تنبيهًا مباشرًا للناس أن يستيقظوا للخطر الداهم، الذي أحاق بالوطن وبالعقيدة؛

2. وأما المرحلة الثانية فقد امتدت خلال فترة ما بين الحربين، وفيها أضيفت إلى الأدب السياسي المباشر، الذي اشتعل بالدعوة إلى الحرية والاستقلال عقب الثورة الوطنية عام ١٩١٩م، أقول إنه قد أضيفت إلى هذا الأدب السياسي المباشر خلال المرحلة الثانية بحوث في الحرية من حيث هي كذلك، كائنة ما كانت جوانبها وميادينها، وسرعان ما ألحقت بهذه البحوث النَّظريَّة، سير لأبطال الحرية تجسد للناس معانيها في رجال عاشوها، وقد اختير هؤلاء الأبطال من الغرب تارة ومن التاريخ العربي تارة؛

3. ثم جاءت المرحلة الثالثة لتمتد من الحرب العالمية الثانية إلى يومنا هذا، منقسمة شطرين: في أولهما كان الاستعمار عسكريًّا سافرًا، وفي ثانيهما أخذ يتسلل

في خفاء إلى حياتنا الفكرية بغير جند ولا سلاح، على أن المقاومة — كما انعكست في الأدب — خلال هذه الفترة الثالثة بشطريها، قد اتسمت بطابع واحد متصل، هو طابع إيجابي بالقياس إلى الطابع السلبي الذي ميز المرحلتين الأوليين، إذ اتخذت المقاومة هذه المرة طريق البناء لثقافة جديدة، تحمل خصائصنا القومية الأصيلة، وتفتح أبوابها – في الوقت نفسه– لعوامل التطور الحضاري الحديث، وذلك رغبة منا في تقرير ذواتنا، وتحصين وجودنا الشخصي المتميز الفريد.

كان لا بد للحركات الأدبية أن تسير جنبا إلى جنب مع الحركات الفكرية والسياسية وكان لابد، في هذا الإطار، أن تتم الثورة على الشكل كما على المضمون؛ ذلك أن الأشكال والقوالب الأدبية لم تعد "تصلح" للتعبير عن هموم ووعي الإنسان الحديث والمعاصر.

ساعد اطلاع الأدباء والمفكرين العربي، سواء الذين ابتُعِثوا للدراسة في الغرب أو عبر الترجمة التي أتاحت التعرف على آداب وفكر الغرب في وعاء الأجناس والأنواع الأدبية والفكرية الجديدة مثل القصة والرواية والمقالة وغيرها فكانت الثورة تأخذ طريقين متوازيين بل متداخلين.

إن فعل المقاومة هذا شكل ثورة واعية للعلاقة بين الشكل والمضمون الجديدين فتغيرت لغة الخطاب وأساليبه وطرائقه؛ الأمر الذي انتبه الغرب المحتل إليه حينما رأى هذا التحول الذي أدرك خطره عليه وعلى مشاريعه... إنه أدب يقاوم أدباً، وفكرٌ في وعاء أدبي يقاوم قمع المستعمر وسلاحه ودسائسه التي لم يكن يصبها في المجال السياسي والمناورات السياسية، وحسب، بل أدرك أهمية الحرب الفكرية والأدبية فسخر إمكاناته ومفكريه، من المستشرقين والمُسْتَلَبين والمتعاونين معه، لهذا الأمر ولعل حادثة مؤسسة "فرانكلين" ودورها الخطير ينبهنا إلى هذا العمل.. وهو ما يتم تكراره اليوم من خلال نشر وتفريخ العديد من المراكز البحثية والمواقع في سبيل هذا الأمر؛ فالحرب لم تنته بعد، ولن تنتهي...

يقول حسين هيكل، وهو يتحدث عن فترة الاستعمار الإنجليزي لمصر تحديداً، والاستعمار الغربي للعالم العربي عموما: "ولم تكن ثورة الأدب هذه ليغيب عن الأذهان جلال خطرها، ولم تكن أقل لفتًا لنظر الغرب من الحركات السياسية التي دمغها الطابع

القومي، والتي امتدت إلى بلاد الشرق جميعًا، ومهما يكن من غمر الحوادث لزعماء ثورة الأدب في ميادين السياسة فإن جهودهم ظلت تراقب وتحلل كأدق ما كانت جهود الزعماء السياسيين تراقب وتحلل؛ ذلك بأن الأدب واتجاهه في أيَّةِ أمة من الأمم هو العنوان الصحيح لحضارتها، وهو القوة التي لا تستطيع قوة أخرى كبحها والقضاء عليها بالسهولة التي تقضي بها القوات المسلحة على الثورات السياسية، وإنما يقضى على ثورة الأدب باندساس عوامل تفسد توجيهها..."

لقد عاشت المقاومة الأدبية والمقاومة السياسية والمسلحة جنباً إلى جنب، ولم تكن إحداها تشتغل بمعزل عن الأخرى، بل إننا نجد نماذج كثيرة ممن جمعوا بين أنواع المقاومة الثلاثة في فعل واحد متصل ومتكامل كان يضمن الوعي بالقضية ونشر هذا الوعي في أكمل صورة وأوضحها وأجلاها، قولاً وممارسة... وهو ما جعل أدب المقاومة ينتشر خارج القطر ليعم الأقطار الأخرى ويمارس فعله الداخلي والخارجي دفعة واحدة، بل أدى الأمر إلى تلاقح مثير في أدب المقاومة في العالم العربي لا سيما من خلال المجلات التي لم تكن لتقف في حدود البلد المصْدِرِ وإنما تتعداه لتصل إلى البلدان الأخرى التي تدخل في حوار ونقاش مع المكتوب وقضاياه وصاحبه؛ ومن ثم يشيع فكر المقاومة ويجد صداه في كافة الأنحاء. وهو الأمر الذي فطن له المستعمر فقام بنفي العديد من الأدباء والمفكرين وامتدت يده إلى طرد آخرين من مناصبهم من أجل تنْيِهِم عن كتاباتهم واستنهاضهم للناس والمواطنين لعل في ذلك تهديد لغيرهم...

نماذج من أدب المقاومة العربي

1- حافظ وشوقي

لم يكن أحمد شوقي وحافظ إبراهيم شاعرين فحسب، بل كانا لسان الشعب المصري، والعربي، يستنهضان الهمم ويؤثران أيما تأثير في الناس؛ فقد عاشا تطورات المجتمع المصري وقضاياه وعبرا عن ذلك رغم ما طالهما من تضييق ونفي.

كان الجو الحركي للساحة الفكرية والسياسية يوازيه وعي اشتغل الجميع على نشره والتعبير عنه. ولم يمر حدث سياسي أو فكري أو اجتماعي إلا ورصدته قصائد وقصص ومقالات الشعراء والكتاب.

حمل شوقي وحافظ، وغيرهما، رسالة مجتمعهما، وأدركا الحاجة الماسة للتعبير عن همومه ومشاكله وقضاياه، وتفاعلَا مع ذلك أيما تفاعل، بل انتقلا إلى فعل المواجهة الواعية بواسطة الكلمة والموسيقى والمضمون المبثوث داخلها، وواجها اضطهاد المستعمر لأبناء وطنهما مواجهة قوية حتى اضطر إلى نفي أمير الشعراء والتضييق على شاعر النيل.

ونورد هنا ما تلا حادثة دنشواي التي وقعت يوم الأربعاء 13 يونيو 1906م، عندما أعدم المحتل أربعة من أهالي القرية وحكم بجلد وحبس ثمانية آخرين، فقد تصدى الكتاب والمفكرون والشعراء للحدث، وكتب أحمد شوقي قصيدته "ذكرى دنشواي" :

يا دِنشِوايَ عَلى رُباكِ سَلامُ   ذَهَبَت بِأُنسِ رُبوعِكِ الأَيّامُ

شُهَداءُ حُكمِكِ في البِلادِ تَفَرَّقوا   هَيهاتَ لِلشَملِ الشَتيتِ نِظامُ

مَرَّت عَلَيهِم في اللُحودِ أَهِلَّةٌ   وَمَضى عَلَيهِم في القُيودِ العامُ

كَيفَ الأَرامِلُ فيكِ بَعدَ رِجالِها   وَبِأَيِّ حالٍ أَصبَحَ الأَيتامُ

عِشرونَ بَيتاً أَقفَرَت وَانتابَها   بَعدَ البَشاشَةِ وَحشَةٌ وَظَلامُ

يا لَيتَ شِعري في البُروجِ حَمائِمٌ   أَم في البُروجِ مَنِيَّةٌ وَحِمامُ

نَيرونُ لَو أَدرَكتَ عَهدَ كَرومِرٍ   عَرَفتَ كَيفَ تُنَفَّذُ الأَحكامُ

نوحي حَمائِمَ دِنشِوايَ وَرَوِّعي   شَعباً بِوادي النيلِ لَيسَ يَنامُ

إِن نامَتِ الأَحياءُ حالَت بَينَهُ   سَحراً وَبَينَ فِراشِهِ الأَحلامُ

مُتَوَجِّعٌ يَتَمَثَّلُ اليَومَ الَّذي   ضَجَّت لِشِدَّةِ هَولِهِ الأَقدامُ

السوطُ يَعمَلُ وَالمَشانِقُ أَربَعٌ   مُتَوَحِّداتٌ وَالجُنودُ قِيامُ

وَالمُستَشارُ إِلى الفَظائِعِ ناظِرٌ   تَدمى جُلودٌ حَولَهُ وَعِظامُ

كما كتب حافظ إبراهيم قصيدته:

أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو   أقصاصا أردتم أم كيادا؟

جاء جهالنا بأمر وجئتم ضعف ضعيفه قسوة واشتدادا

أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو أنفوسا أصبتم أم جمـادا؟

ليت شعري أتلك محكمة التفتيـ ش عادت أم عهد نيرون عادا؟

أضافت قصيدة شوقي وقصيدة حافظ بعداً أدبياً فنياً للقضية، ونقلتاها إلى الناس في حلة أثيرة أحدثت وقْعَها وجلَّت المذبحة بطريقة تحرض على الثورة والمقاومة لهذا المحتل المعتدي، كما كشفت وجهه وحقده، في مقابل عزة وشموخ الذين تم الاعتداء عليهم، والذين لم يرضوا بالهوان والذل الذي أصلبهم بعد مقتل أحد الأهالي في القرية؛ مما يبعث الإحساس الصادق والمشاعر الثرية في روح القصيدة ويعكسهما لدى المتلقي لها، ويلهب شعور المصريين ويثير حماستهم كي يهبوا لنجدة بلادهم والدود عليها ضد هذا العدو المحتل القاتل الغاشم...

وتأتي عملية وصف الأحداث في صورة شعرية بديعة ببلاغة الشاعرين وإيقاعية الأبيات؛ مما نقل الحدث من مجرد حدث عابر – مثل أحداث قتل وإعدام أخرى سابقة – إلى حدث تفاعلت معه ساكنة مصر وشعبها كله؛ وبذلك يتم توظيف الخصائص الشعرية التي تبعث الحياة في الأشياء وتمنحها حركية لا يمنحها مجرد حكي الوقائع والأحداث من أي شاهد كان... الأمر الذي يبرز أهمية الأدب في التعبير وأثره الكبير في المتلقين، وفاعليته التي تحفز على فعل المقاومة والنضال من أجل الحرية والتحرر والتغيير.

كانت المعركة محتدمة لا سيما بعد أن طغى المحتل الإنجليزي وكشر عن أنيابه لافتراس مصر وخيراتها وأهلها، وكانت ثورة 1919م شرارة الثورة والمقاومة، ظل أوارها يتسع شيئاً فشيئاً حتى نيل الاستقلال.

وقد صاحب أحمد شوقي وحافظ إبراهيم كل التحولات الاجتماعية والسياسية التي وقعت، داخل مصر وخارجه، وعبَّرا أحسن تعبير عن ذلك شعراً فصيحا مأثراً ومحرضاً. ويكفي أن نشير، على سبيل المثال، إلى قصيدة شوقي "نكبة دمشق" التي عرض فيها مذبحة المحتل الفرنسي التي أوقعها بالأهالي السوريين في مدينة دمشق، وقصيدة

2- أبو القاسم الشابي

كثيراً ما تُنعَتُ الرومانسية بأنها حركة منكفِئَة على نفسها، تردد عذابات الوجدان والبحث عن الخلاص الفردي الذاتي والهروب عن المجتمع وقضاياه وهمومه ومشاكله إلى "الغاب" حثث الهدوء و"حلول" الطبيعة في ذات الشاعر، والعكس، لكن هذه الحركة لم تكن في جوهرها وفي نماذجها الكبرى كذلك، بل كثيراً ما كانت حاجة تعكس لوعة الشاعر والأديب الحارقة التي يتضوَّر قلبه ووجدانه ناراً حارقة من واقعه البئيس الذي جثم عليه الاستعمار بكلكله، فضَيَّقَ عليه حتى نفَسَه والهواء الذي يريد أن يشتَمَّه وينتعش به، فجاء الكَمَد الذي وصل حداً لا يطاق حتى انفجر الشاعر ينشر الأمل ويدعو إلى التفاؤل والعمل من أجل إزالة "الظلماء" التي عمّت ربوع الوطن بسبب ما فعله المحتلُّ الغاشم.. داء النفس الْضَيَّقِ عليها، وداء

هكذا يصرخ أبو القاسم الشابي (1909 - 1934) الذي أضناه السقم وأعياه الداء وتقاعسُ الأهل وهوانهم ورضاهم بالحال الذي صنعه المحتل وفرض عليهم الاستسلام له وعدم التأوه والضجر منه ومما يفعله فيهم. يعلنها مدوية في قصيدته الخالدة "نشيد الجبار" أو "هكذا غنى بروميثيوس" ، والتي كتبها عام 1933:

كالنِّسْر فـوقَ القِمَّةِ الشَّمَّـاءِ   سَأعيشُ رَغْـمَ الدَّاءِ والأَعْـداءِ

بالسُّحْبِ، والأمطارِ، والأَنـواءِ...   أَرْنو إلى الشَّمْسِ المضِيئَّة، هازِئاً

ما في قرار الهُوّةِ السـوداءِ...   لا أرمقُ الظلَّ الكئيبَ..، ولا أَرى

غرِداً- وتلكَ سعادةُ الشـعراءِ-   وأسيرُ في دُنيا المشاعِر حَالمـاَ،

وأذيبُ روحَ الكونِ في إنْشائي   أُصغِي لموسيقى الحياةِ ، وَوَحْيها

يُحيي بقلبي مَيّتَ الأصْـداءِ   وأُصِيخُ للصّوتِ الإلاهيّ الَّـذي

عن حرب آمالي بكل بـلاءِ:   وأقول للقَدَرِ الذي لا يَنْـثني

موجُ الأسى، وعواصفُ الأرْزاءِ   لا يطفئُ اللهبَ المؤجَّجَ في دَمي

سيكون مثلَ الصَّخْرة الصَّمَّاءِ   فاهدمْ فؤادي ما استطعتَ، فإنَّهُ

وضَراعَةَ الأَطْفالِ والضُّعَفَاء لا يعرفُ الشكْوى الذليلةَ والبُكا،

بالفَجْرِ..، بالفجرِ الجميلِ النَّائي ويعيشُ جبَّارا، يحدِّق دائماً

وزَوابعِ الاَشْواكِ، والحَصْباءِ" "واملأْ طريقي بالمخاوفِ، والدّجى،

رُجُمَ الرّدى، وصواعِقَ البأساءِ" "وانشُرْ عليْهِ الرُّعْبَ، وانثُرْ فَوْقَهُ

قيثارتي، مترنِّماً بغنائـي" "سَأَظلُّ أمشـي رغْمَ ذلك، عازفاً

فـي ظُلمـةِ الآلامِ والأدواءِ" "أمشـي بروحٍ حالـمٍ، متَوَهِّـجٍ

فَعَلامَ أخشى السَّيرَ في الظلماءِ؟" "النّور في قلبِـي وبينَ جوانحـي

في هذه القصيدة الرائعة التي جمعت بين ثورتين جليلتين: ثورة الشكل وثورة المضمون، بمعنييهما الشعريين؛ حيث صب الشاعر معاناته في قالب يغالب الواقع المرير الذي يعيشه فردا، كما يعيشه مجتَمعاً وبلداً ووطناً.

القصيدة دعوة إلى الحرية والانعتاق، بحثاً عن نور جديد يزيل الظلام ويشعشع في الأرجاء، ويغيظ الأعداء.. دعوة لمقاومة الواقع الذي فُرِض على الشاعر في الوقت الذي فُرض فيه على بلده تونس، وباقي البلدان العربية الأخرى.

في هذا النص يرفع الشابي التحدي ضد المرض الذي ينهش جسده، وضد المرض الذي يُحكِم قبضته على وطنه وينهش تفاصيل جسديهما معاً هذه المرة. ولذلك يصعب حصر معنى ومضمون القصيدة في حيز الذاتية الفردانية المتآكلة المتأوِّهة والمنعزلة، كما يصعب ربط هذا الجو المتفائل المقاوِم المتطلع إلى النور، الذي سيزيل الظلماء، في خاصة الشاعر وأناهُ.

يعتبر كثيرون الشابيَ نبي بلده ووطنه، لأنه ما فتيء يثير الدعوة إلى فعل المقاومة، ويتنبأ بحالها ونتائجها للأفراد وللمجتمع والوطن معاً. ولكي تقاوم الجبارين يجب أن تغدو جباراً قوياً مقاوماً ومدرِكاً لتفاصيل وغايات القضية التي تدافع عنها وتحيا من أجلها وتحارب في سبيلها.. إن مرض الجسد وأسقامه ما هي، في الحقيقة، سوى أمراض وأسقام الوطن الذي يجب أن يقاوم ويقف "نسراً" شامخاً لا تغلبه "الأنواء" ولا

الآلام التي قد تصيبه من الأعداء مادامت "الحياة" تستحق كل هذا العناء وتلك المواجهة والتضحية، مستظلة (ذات الفرد والجماعة) بالنور المتوهج الساكن بين الضلوع والقلب والجوانح والروح...

وستكون قصيدة " إرادة الحياة" ، والتي كتبها في السنة نفسها التي كُتِبت فيها قصيدة "نشيد الجبار"، أفضل معبر عن هذه الروح المقاومة المتحدية، والداعية إلى المجابِهة على اعتبار أن المقاومة قدر على الشعب حتى يكسر قيود هذا الليل الحالك الذي طال، والذي يبحث عن قلوب قوية مشتاقة للحرية وعاملة على تحصيلها بواسطة فعل المقاومة الذي يجب أن يسود الأرواح المتطلعة للاستقلال والحرية والانعتاق، وإلا تبخَّرَ في هواء الأيام المظلمة كأنه لم يعش من قبل، مادام "العيش" الذليل في ظل القهر والعبودة لا يستحق أن يسمى عيشاً ولا حياة، بالمعنى الحقيقي والفاعل والمشرِق للكلمة.

إذا الشَّعْبُ يوماً أرادَ الحياةَ   فلا بُدَّ أنْ يَسْتَجيبَ القدرْ

ولا بُدَّ للَّيْـلِ أنْ ينجلــي   ولا بُدَّ للقيدِ أن يَنْكَسِـرْ

ومَن لم يعانقْهُ شَوْقُ الحياة   تَبَخـَّرَ في جَوِّها واندَثَرْ

فويـلٌ لمَنْ لم تَشُقْهُ الحياةُ   من صَفْعَةِ العَدَمِ المنتصرْ

كان أبو القاسم الشابي، إذن، واعياً بقيمة فعل المقاومة من خلال الكلمة والأدب الذي يعطي دفعة قوية للانتقال من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل، على حد تعبير هيجل؛ الأمر الذي يحتاج إلى تسريب الوعي ونشره بين الناس حتى يشيع معنى المقاومة... وهو ما تحقق في الأحايين الكثيرة بدافع الكلمة النارية المقاومة.

3- غسان كنفاني

لا يمكن الحديث عن أدب المقاومة دون التوقف، ولو قليلاً حسب ما يتسع به المقام، عند أحد رموز هذا الأدب: ممارسة ونقداً.. إنه القاص والروائي والناقد والصحفي والمناضل الفلسطيني الشهيد غسان كنفاني.

يبدأ كنفاني كتابه الهام والمؤسس "الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال: 1948- 1968"، بهذه العبارات:

"ليست المقاومة المسلحة قشرة، هي ثمرة لزرعة ضاربة جدورها عميقاً في الأرض. وإذا كان التحرير ينبع من فوهة البندقية فإن البندقية ذاتها تنبع من إرادة التحرير، وإرادة التحرير ليست سوى النتاج الطبيعي والمنطقي والحتمي للمقاومة بمعناها الواسع: المقاومة على صعيد الرفض، وعلى صعيد التمسك الصلب بالجذور والمواقف.

ومثل هذا النوع من المقاومة يتخذ شكله الرائد في العمل السياسي والعمل الثقافي ويشكل هذان العملان المترافقان اللذان يكمل واحدهما الآخر الأرض الخصبة التي تستولد المقاومة المسلحة وتحتضنها وتضمن استمرار مسيرتها وتحيطها بالضمانات، ومن هنا فإن الشكل الثقافي في المقاومة يطرح أهمية قصوى ليست أبدا أقل قيمة من المقاومة المسلحة ذاتها، وبالتالي فإن رصدها واستقصاءها وكشف أعماقها تظل ضرورة لا غنى عنها لفهم الأرض التي ترتكز عليها بنادق الكفاح المسلح" .

في بداية مقدمة هذا الكتب ينسج كنفاني خيوط العلاقة بين الأدب والمقاومة، ويرسم هدفهما معاً: تحرير الأرض، ولا غنى لأحدهما عن الآخر. ويتتبع الكتاب نماذج لهذا الأدب المقاوم، شعراً وقصة ومسرحية.

ولم يتوقف غسان عند هذا التتبع النقدي في هذا الكتاب فقط، بل إن مساهماته الأدبية أكثر من أن تعد وتحصى رغم أنه لم يعمر طويلاً (1936- 1972)؛ إذ سرعان ما ستمتد يد الغدر الصهيوني إليه وتغتاله؛ مما يبين الخطر الذي كان يشكله على بقاء هذا العدو، زما كان يمثله من وعي وتوعية بالقضية الفلسطينية وجوهر فهمها وكشف تفاصيلها وفضح الممارسات المخلة بنجاح المقاومة حين تتحول الأمور وتصبح أهداف الفلسطيني المُهَجَّر والمغترب والمقهور مجرد البحث عن سبل العيش له ولذويه بعيداً عن البحث عن الحل الجدري لذلك كله؛ وهو المحتل الغاصب الذي تجب مقاومته وطرده، واستعادة الأرض منه وإرغامه على المغادرة والتسليم لأصحاب الأرض.

في كل أعماله، وبأسلوب أدبي إبداعي بديع سلس وبسيط ودقيق، يفضح كنفاني محاولات الاحتلال في التضييق على الفلسطيني من أجل دفعه للتنازل عن أرضه

ومغادرتها؛ فيضيِّق عليه في حريته وفي رزقه وفي هويته حتى يجعله يعيش حالة من الانهيار والهزيمة النفسية التي ستؤدي حتما إلى "الموت": موت القضية، لا سيما حين تضعف وينضب معينها عند أصحابها، ولا تنتقل إلى الأجيال التالية، ويبقى الفلسطيني حبيس نفسه وهمومه باحثاً عن خلاص فردي، يظل، من خلاله، معزولاً مطارَداً منبوذاً، يبحث لنفسه عن هوية أخرى يستعطفها غير هويته الفلسطينية المستَلَبة.

في روايته "رجال في الشمس"، ينتقد كنفاني هذا الخلاص الفردي الذي يؤدي إلى موت "حقير" ذليل داخل خزان، الشاحنة التي كان سائقها المخصي يعمل على تهريبهم عبرها إلى الكويت من أجل العمل هناك. وعند نقطة تفتيش على حدود الأردن يطول حديث السائق مع الحراس فيلتهب الخزان بسبب أشعة الشمس الحارقة. وعندما ينتهي يعود إلى الشاحنة فيكتشف أنهم ماتوا جميعاً خنقاً، فيظل يصرخ فيهم: "لماذا لم يدقوا الخزان؟"، لتعلن الرواية أن الخلاص الفردي مصيره الموت الهجين الذليل دونما تحقيق هدف فردي ولا جماعي. وهي دعوة واضحة لترك مثل هذه الحلول والانكفاء على فعل المقاومة والنضال من أجل لاسترجاع الأرض والوطن؛ فلا وطن للفلسطيني غير بلاده، ولا أرض له غير وطنه!...

وبعد رواية "رجال في الشمس" تأتي رواية "ما تبقى لكم" لترصد تجربة النزوح والتشتت الفلسطيني من خلال أسرة فلسطينية تنزح من يافا، بعد احتلال اليهود لها، إلى غزة، فتعيش التفتت والتشرد والضياع والفاقة؛ فيضيع (حامد) ويعاني وتضطرب حياته وهو يحاول الهجرة إلى الأردن، في حين تجد أخته (مريم) نفسها فاقدة لكل ما كانت تملك وتضيع أحلامها وآمالها التي كانت شيدتها في (يافا)، وتتعرض للاغتصاب من قبل المدرس (زكريا) الذي له خمسة أولاد، والذي دخلت معه في علاقة غير شرعية أدت إلى حملها، فاضطرت إلى الزواج منه سراً، وهو الخائن الذي يدل الصهاينة على (سالم)، لتختتم الرواية بقتل (مريم) لـ"زكريا) انتقاماً لشرفها، وبعدما فشلت في استعادة أي شيء، ولم يتبقَّ لها غير ذكريات أخيها التي يزورها شبحه بين الحين والآخر...

رواية "ما تبقى لكم" تعيد السؤال بصيغة أخرى جعلت (مريم) تحدث نفسها: "ماذا تبقى لي بعد أن غادر الكل؟...".

بحث (حامد) عن خلاصه الفردي من خلال الصحراء لعلها توصله إلى الأردن، وظلت (مريم) تائهة فاقدة لكل الأشياء؛ وهي بذلك تكون رمزاً للأرض/ فلسطين التي ستظل جزءاً بسيطاً من الصحراء الشاسعة، لا يأبه إليها أحد إذا لم تخلص نفسها، وتحدد كينونتها وماهيتها من خلال أبنائها البررة الذين يقاومون الواقع المرير والمحتل البغيض واليأس المستشري في نفوس وقلوب الكثيرين.

هكذا يتآلف الأدب مع المقاومة عند غسان كنفاني ويعاضدان ليبعثا الأمل في الوجوه الماهوي الذي يبحث عنه الإنسان المقاوم الذي يعكسه النص الأدبي في حلة قشيبة مؤثرة وفاعلة وحيوية... ذلك كله تفعله القصة كما الرواية كما المسرحية كما الشعر.

إن الشاعر، مثله مثل الأديب، قد أدرك قيمة السلاح الذي يمتلكه، "وهو الكلمة الشاعرة، فساهم بها في معركة المصير التي يحاربها المجتمع كله، إيماناً منه بأن مصيره رهن بمصير الجماعة. (...) في "الكلمة الشاعرة" تتمثل كل القيم التي يحارب المجتمع معركته من أجل تقريرها وتحقيقها، وفي قمتها حرية الإنسان وكرامته. فالكلمة الشاعرة في هذا السياق هي الكلمة الحرة الكريمة النزيهة الصادقة المخلصة.. هي الكلمة الواعية، والكلمة الكاشفة، والكلمة الهادمة البناءة" ...

تركيب

إن معركة التغيير، معناه العام الإيجابي، يمكن أن تدار بطرق وتكتيكات متعددة ومتنوعة، ويمكن لفعل المقاومة أن يختار ما يوصله إلى الهدف وطرد المحتل أرضاً وعقلاً وقيماً. كما يمكن للأدب أن يأخذ حيزا معقولاً، بل أساسياً، في هذه المعركة وفي هذه الحرب، ليس ليقولَ فقط بل، أيضاً، ليهاجم.. ليس ليدافع، فقط، بل ليفضح الخذلان ومسببات الهزيمة والساكنين في دواخل الكثير منَّا أو من بني جلدتنا المختبئين في حِسِّهِم المُبَلِّدِ والمتبع لمختلف أشكال الانصياع والعبودية الطوعية، بل والمدافع عن انهزاميته وانسلاخه الطوعي الإرادي من إدارة المعركة أو المشاركة فيها، ولو رمزياً أو على الأقل، بالصمت والسكون في مربع القاعدين غير المثبطين...

وللحديث بقية، كما للمقاومة قضية، وللأدب حواريوه الصادقون في معركة البقاء والنصر والاستشهاد...

ويظل فعل المقاومة مستمراً، لا ولن يموت في مسيرة الأجيال الجديدة المتجددة دماً وقلماً وبندقيةً...

لائحة المصادر والمراجع

- أحمد شوقي: "الشوقيات"، الجزء الأول، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2012
- أبو القاسم الشابي: "أغاني الحياة"، الدار التونسية للنشر، تونس: 1970؛
- حافظ إبراهيم: "ديوان حافظ إبراهيم"، ضبطه وصححه وشرحه ورتبه: أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، الهيئة المصرية للكتاب، الطبعة الثالثة: 1987؛
- محمد حسين هيكل: "ثورة الأدب"، كتاب مجلة الدوحة، الدوحة، قطر، العدد: 64، فبراير 2013؛
- عز الدين إسماعيل: "الشعر العربي المعاصر: قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية"، دار العودة، بيروت، الطبعة الثالثة: 1981.
- غسان كنفاني: "الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال: 1948-1968"، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، الطبعة الأولى: 1968؛
- زكي نجيب محمود: "في حياتنا العقلية"، دار الشروق، القاهرة/ بيروت، الطبعة الثالثة: 1410هـ/ 1989م.

جيش من ورق

شعر: د. زاهر حنني

قبل البدء

لم يبق عن يميننا سوى هدير البحر

لم يبق عن يسارنا سوى عويل الصبر

لم يبق شيء خلفنا

إلا أجيج الجمر

وفوقنا النعيب والقِرا والقَر

وتحتنا الزلزال والأهوال من هدايا العصر

لم يبق يا أحبتي إلا بقايا الشهر

أمامنا طوفاننا ونحن أهل الأمر

فلنمخر العباب

نسحق الإرهاب

نشتري لنا بقايا نصر.

****

جيش من ورق

يا كاتب التاريخ قف!

لا، لم أقل مهلا..

ما عاد خطك مقروءاً، ولا سهلا

قف عند ناصيةٍ .. ثم انعطف مَيْلا

عبئ فراغاتٍ تركتَ رموزَها

واكتب كما نملي عليك، فلست أهلا ...

* اكتب:

- هنا بدأت رعود قاصفات

واستمرت تمطر الويلات ويلا

وما زالت روايةَ عاشقٍ تُملى...

- هنا من غزة الأحرار لبى العاشقون

بنبضهم سيلا فسيلا

- من بحرنا، انتفضت على الأمواج

ذَرَّت في عيون (الغول) رملا

- ثم لَبَّت سابحاتُ صقورِنا؛ هطلا

- من بعد صرخة أُمِّنا الثَّكلى

وقد أحيَتْ بهم روحَ الجبابرةِ التي كانت لنا أملا

قفز المظليون فاكتشفوا...

أن الذين يقال عنهم (ليس يقهر جمعهم)

ليسوا سوى جيشٍ من الورق

- يسترجلون بِعدِّهم وعتادهم ومؤونة النزقِ

يسترجلون بقاذفات دمارهم وبطائرات القتل والحنقِ

- أعددتَ -يا ربي- رجالا ليس يَقهرُهم لهيبُ النارِ

وليس تهزمهم قنابل من شنار

- لم يبق شيء... كلهم أحرار

* اكتب، وقد كنت الكذوب، ولم يعد لك أن تكون...

- سحلوا جنودا من ورق،

أسروا جنودا من خرق،

- وصلوا إليهم فوق تلك الصافنات

وتحت جنح السابحات

- فَفَرَّ منهم من نجا؛ ليكون يوما مخبرا...

* اكتب:

- هنا نابلس، أو جنين، أو طولكرم، أو غزة...

رجال الحق والعزة

- هنا يطوون صفحةَ مكرٍ من مكروا ومن ظلموا ومن قتلوا ومن جاسوا ومن داسوا ومن باعوا ومن خانوا...

- هنا الفاروق والمقداد والأولى هنا حمزة

وتُطوى صفحة التطبيع... تحدث في المدى هِزة

- معلقةٌ عيونُ العالم الخَجلى

وتنتظر القلوبُ مصيبةً حُبلى

وما زلنا كرأس الحربة الأَولى

نوزع في المدى سُبُلا

مللنا عد قتلاهم وأسراهم

ودمرنا أساطير الحكاية مرة أخرى

كشفنا كل أقنعة الخرافات

كشفنا زيف أنظمة العصابات

دفاعا عن كرامتنا... وما متنا

- ليضحك عالم مأفون ينتظر الممات

ونحن نخرجه من الظلمات

* اكتب:

- هنا كانوا...

- هنا ظلت فلسطين التي بالدم والطوفان

أنجزت الخلاص، لكي تعيشوا...

* اكتب:

- هذا نداء نشيدنا الحيوي

جددناه بالنَّهجِ المُدمَّى

ها نحن نُقتلُ كي يعيش الآخرون

- ها نحن نُقتل كي يعيش الطيبون

الخيرون الصالحون

* اكتب:

- وصايانا على دمنا

ومن دمنا

- الله أقرب من حبل الوريد بنا

- طعم البلاد على أصابعنا

- لا شيء يهزمنا

فنحن هنا

* اكتب:

- هنا طوفان أقصانا

حملنا فوق أعناق الرجال ملامح الفرقد

لكي نحمي الزهور لكم

ونحرسَ قيمة الإنسان والمعبد

حملنا فوق أعناق الرجال مدامع عصرنا المجهد

ألا فاشهد...

يا أيها المبهور بالمشهد

يا أيها المفتون والمبعد

ألا فاشهد...

- فلن يحميهم الآن الجدار

ولا حمولة طائرات الجو والمرصد

ولن يحميهم الغرقد

* اكتب هنالك:

- لم يعد يجدي البكاء

نساؤنا جفت مآقيها

وصارت كبرياء.

****

في غزة ينبت طفل الغمام

شعر: د. سعيد أصيل

نعد الأكفان لكل غيمة

ونروي للرواة تاريخ العصافير المحلقة في سماء الضيق..

نعد الأكفان كي نرى..

فلا نرى سوانا..

لا بحر لنا،

لا نهر،

لا مكانا

سوى حزنٍ يذرف دمعه على لون الحصاد...

- "لا أرض لنا بعد اليوم!"،

قال طفل التراب،

صاحت بطون الأديم:

- هنا ينحني الزمن وينقى

كي بسمةُ الفجر النابت في ضوئه تبقى،

كي في جحر الخنافس المخبوءة في صمتها تشقى،

وجميعا من ثقب الباب نرقى

نفتح الغابات..

نفتح الآهات..

ونرمي باليباب خلف وراء الوراء...

فيا غصن ليلتي...

هنا سيمتد الفضاء

وتمشي الأيام حافية القدمين،

وقد نسيتُ نفسي في نفسي

وأشعلت بالماء نار الجحيم...

فأبصرتك،

يا أيها الطود الملثم بالشموخ..

أبصرتك في أسطورة الملحمه

أبصرتك بين غيوم بيت حانون

بين نجوم لاهيا

فوق حروف جباليا

في شموس غزة وفوق كل رابية عاليا...

فيا غزةَ !...

ياغ......زه

يا غزهْ

يا فجر الصابرين على حتفهم

يا تراب العاشقين

يا وجنة العزهْ

ويا نور الأحرار

وعيون التائهين في خيباتهم...

يا كحل الشهداء

يا مسرى الإباء

يا خيمة الساقطين في يمِّ الغواية

يا ذل الساقين من ثوب الوشاية

يا غزة النصر التي تهوي على ذل الهوان

تروي للحكايات أطفال الرجولة،

وتقول:

- سقياك يا قبر الهزيمة..

سقياك يا قميص العبث الممزق

على رصيف المغول

هديةَ إخوة يوسف لحائط المبكى وللأفول...

ولكنك، يا طفل الغمام،

ستنام بين نجيمات الحياة

وبِلَّوْراتِ الأنفاق الزاهية

ستكتب لي ذكريات عشب

سارت على لآلئه الشطحات

وأهدي إليك كتابي كي ترويني من جفاف الروح....

ستموت لكي نعيش

ستلون الموت بالبرتقاليّ

وتخط الحياة بالرماديّ

وتنشر العناقيد في فنائي..

تركب خيل الله

فنرى صهيل الأرض يعوي،

في ربوع غزة..

في نشيد الماء السائل تحت صرح بلقيس...

آه، يا بلقيس...

لا تكشفي ساقيك

فسليمان سملوا عينيه كي لا يبصر بهما

كي يفقأوا ساقيك من أخمصهما

ويمضوا...

وهم يصفقون بأرجلهم على فراش الضباب الوتير...

تراك تراني

يا ولدي

من خلف الستار!

فهل ينبح السحاب في ظلام العيش

وينثني؟...

ضحكتْ عيناي من كلماتي

رسمتْ دائرةِ الحلم

تسخر من قِصَرِ الحروف

وقامت في غيمة السير...

جلست على ماء يسيرُ

في سماء الهوى.. بين الجليل وخانيونس

فشربت يقطين الحياة على سُفْرة طفلي العاري من الأسماء غير دمه

يسقي ليالينا...

ويلتقط بقايانا المتناثرة في هواء العيش الذليل...

****

يا طفل الغمام..

هاتِ يداك

التقط..

يمناك في يسراك

كي تدكَّ صمت الجدارْ

كي تفرش القلب قمحاً وغُبارْ..

أُركضْ نحو الموت

الهارب من ظله

ففي غزة

يفر الموت

وينسى قدميه

فيغدو حافي الوجه..

أُخرجْ أيها الهوان من بين أصابعي

وانشر إكسير العيون في خيام المدينة

فلا.. ولن يكون هناك، بعد اليوم، هراءُ..

سيكون صوتكَ،

سيرقى لونك،

وستَخْبِزُ فوق التل سنديانة العام الجديد

وتوزع نشوة الظلال على قيظِ صدإٍ الحديد

على هدنة حلم أكثَفَ من غابات الحنين

فليس للقرابين نقع في قرى الزيتون

كي تنتظر مرور النبيذ المعتق بمسير العرايا...

هي لا تنام تحت الباب الخلفي للأيام...

هي غروب القمح في شتاء الروح

وشرفة الفؤاد نحو شارع الورود والحمام...

هي طنين الرياحين في صمت التراب

وفي صحراء قلوب تغطي نفسها برايات الضفاف البعيدة...

هي غزة الدار والجدار...

هي فسيلة الجرح

عطشى ترويها طيور النبوءة

حتى مَلْقى الخلود...

أدب المقاومة والصراع الفكري

د. منيف أحمد حميدوش

كلمة

لست مهزوما ما دمت تقاوم، المقاومة أن تكتب عن الجدار والفلاح، وربة المنزل، أن تكتب عن الإنسان والجني والزيتون، والكلمة المقاومة أن تكتب شعرا ونثرا وقصصا وأهازيج وروايات تعمل فعلها في عقل القارئ فيدفعه إلى الفعل المقاوم.

الكلمة المقاومة فعل لا أكثر، ورسالتها: نحن باقون ما بقي الزعتر والزيتون، قال الزهاوي:

إن كان للمرء عزم في إرادته   فلا الطبيعة تثنيه ولا البشر

المقاومة بالكلمة والبندقية لا ترتبط بلحظة عابرة، ولكنها روح تسري، وتترسخ فينا، فتتحول إلى ثقافة تنعكس على السلوك والفعل، فالدفاع عن الوطن ومقاومة الإرهاب يجمعان الناس على اختلاف مذاهبهم وإثنياتهم وانتمائهم.

فالمقاومة بالكلمة فعل تغيير وعامل من عوامل تغيُّـر الكتابة العربية وتغييرها. والتحرير من هيمنة الخارج جزء من مهمات المقاومة بالكلمة.

مفهوم المقاومة

هي إرث ثقافي، وطني، وحضاري، ومعرفي، ووجداني، ومهاري متراكم، وهي فعل تغيير، أدواته، البندقية، والقلم، والإعلام، تتوارثها الأجيال، للحفاظ على هويتها الوطنية من الاستلاب الاحتلالي، والتي تعمل على تحشيد الطاقات المجتمعية لمواجهة العدوان واسترداد الحقوق.

السؤال: أين تكمن مشروعية المقاومة؟

أولا: حق المقاومة في القانون الدولي العام

انطلق أبو القانون الدولي غروتيوس (1583–1645م) من فكرة احترام الحق الطبيعي للأشخاص ليدعو إلى المقاومة، واعتبر أن حقوق الإنسان مستمدة من القانون الطبيعي الأسمى، لذا فإن أي انتهاك لهذه الحقوق يمنح الأفراد حق مقاومة الظلم والتعسف.

- حق المقاومة في الأمم المتحدة:

أقرَّ ميثاق الأمم المتحدة في المادة الأولى منه: "حق تقرير المصير والمساواة في الحقوق بين الشعوب". وجاء في مادته 55 :"رغبة في تهيئة دواعي الاستقرار والرفاهية الضروريين لقيام علاقات سلمية وودية بين الأمم المتحدة مؤسسة على احترام المبدأ الذي يقضي بالتسوية في الحقوق بين الشعوب وبأن يكون لكل منها حق تقرير مصيرها".

ثانياً–الشرعية الدينية

أ–المقاومة في الدين المسيحي

إذا أردنا استرجاع تطور حق المقاومة تاريخياً، يمكن القول إن صورة "المسيح المصلوب" كانت أول تعبير واضح عن صورة الشهيد الذي يستشهد من أجل قضية سامية، صورة دعا الله البشر من خلالها إلى رفض الظلم والطغيان. ودعا المسيحيين إلى الاقتداء بالتعاليم الأساسية للمسيح وأهمها "الشهادة للحق"، ورفض الشر ومقاومته، والثورة على الظلم.

ب–حق المقاومة في الإسلام

كل الآيات والنصوص والأحاديث الدينية تعتبر"إذا احتل العدو أي شبر من بلاد المسلمين وجب على المسلمين أن يخرجوا للدفاع عن أرضهم ومقدراتهم، ولا أحد يستطيع أن يلغي احق المقاومة ضد العدو؛ لأن فيه نصا من قبل الله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (الحج: 39)

وعد الجهاد في الشريعة الإسلامية متعددا، فمنه جهاد الكلمة وجهاد القلم وجهاد الموقف وجهاد السيف ...الخ

نماذج من الآيات التي تحثُّ على الجهاد أو المقاومة

قوله تعالى :

- 1) ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّة وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (الأنفال – 60).
- 2) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة 218)
- 3) ﴿ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ *وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (آل عمران 158)
- 4) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة 35)
- 5) ﴿ ومَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (العنكبوت6)
- 6) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (التحريم 9)
- وهناك الكثير من الآيات القرآنية التي تحث على الجهاد والقتال في سبيل الله، وفي سبيل الوطن، وضد الظلم والاستكبار

لن أدخل في الموضوع التاريخي للمقاومة لدى الأمة العربية، فتاريخها طويل وحركاتها الاستقلالية أعطت ثمارها بتحرر شعوب المنطقة من الاحتلالات المتعددة، وتبقى فلسطين هي القضية الجوهرية والمركزية للأمة العربية والإسلامية، ولكن سأدخل مباشرة بموضوع أبعاد المقاومة التي تجلت بها في أمتنا العربية:

أبعاد المقاومة

أولاً– البعد السياسي

شهدت الفترة السابقة تحولات هامة على الصعيدين الدولي والإقليمي كانت المنطقة العربية في مركز القلب منها وفي دائرة الخطر فقد كشر المارد الأمريكي عن أنيابه بعد أحداث 11 أيلول 2001وأخرج كل ما في سجله من مؤامرات ولم يستطع المجتمع الدولي بجميع مؤسساته وضع حد لذلك البركان الذي ما زال يقذف حممه في كل اتجاه.

وقسم العالم إلى خطوط طول وعرض ومحاور خير وشر واعتدال وتطرف يتأسس على منهج يحمله أصحاب الرؤوس الحامية من المحافظين الجدد الذين نقلوا العالم من حرب باردة إلى حروب ساخنة بدأت تكوي شعوبهم بنيرانها بعد أن أشعلوا فتيلها، واستمراراً للمشروع الأمريكي الصهيوني في المنطقة والذي يستند إلى عقيدة إستراتيجية تتأسس على سيناريو أعد في مراكز الأبحاث والدراسات في واشنطن يقوم على قاعدة أن القرن الحادي والعشرين يجب أن يكون قرناً أمريكياً بامتياز.

أهداف الولايات المتحدة الأمريكية المرحلية

1. إحكام السيطرة على المنطقة العربية والإسلامية سياسياً واقتصادياً وعسكرياً.

2. السيطرة الكاملة على منابع النفط وتعزيز الرقابة التامة على ممراته من خلال التواجد العسكري المباشر.

3. الالتزام المطلق بأمن الكيان الصهيوني وقوته وحمايتها وجعل الدول المحيطة بها سوراً واقياً لها.

4. ربط سائر الأنظمة الموجودة بالمشروع الأمريكي وتحويل حكامه إلى وكلاء محليين للمشروع الأمريكي ومنفذين له.

5. القضاء على كل أشكال المقاومة سواء في سورية أو لبنان أو فلسطين أو العراق أو تونس أو أي دولة عربية رافضة للهيمنة الصهيو- أمريكية.

6. خلق بيئة سياسية وثقافية تتناغم مع المشروع الأمريكي وتُمهّد للتطبيع مع الكيان الصهيوني.

الضغوطات التي مارستها الولايات المتحدة الأمريكية على دول المقاومة:

1. اتهام سورية بحيازة أسلحة الدمار الشامل وإرسال المقاتلين للعراق وتسهيل مرور البعض الآخر.

2. اتهام المقاومة اللبنانية بزعزعة استقرار لبنان وامتلاكها سلاحاً غير شرعي حسب زعمهم.

3. اتهام الحركات التحررية في فلسطين وغيرها من دول المنطقة بالحركات الإرهابية.

4. استصدار قرارات من مجلس الأمن هدفها الضغط على الدول الرافضة للهيمنة الأمريكية بسبب تلك المواقف، ومحاولة فرض عزلة دولية عليها.

5. شن حرب إعلامية واقتصادية، وفي بعض الأحيان عسكرية (كاحتلالها لمناطق من سورية) هدفها التأثير في الرأي.

6. استخدام الكيان الصهيوني بشكل سافر ليكون الأداة المباشرة لتهديد المقاومة

7. محاولة ضرب العلاقات الإستراتيجية القائمة بين دول المنطقة، والتي شكلت حالة مواجهة حقيقية للمشروع الأمريكي.

8. اتباع سياسة المحاور للحيلولة دون تحقيق موقف عربي وإسلامي موحد تجاه التحديات التي تواجهها الأمة العربية والإسلامية.

9- والخطر الأكبر ليس في المشروع الأمريكي ومضمونه الإسرائيلي، الخطر هو من واقعنا المزري حيث تحول كثير من الحكام إلى أدوات منفذه للمشروع الصهيو – أمريكي

الأمة بحاجة اليوم أكثر من أي وقت مضى لكي تكتشف ذاتها وقدرتها وامتلاك إرادتها والدخول في المواجهة المحسومة من أجل صنع اليوم العربي المنشود المتحرر والمتقدم والموحد.

ثانياً – البعد الفكري : {الأدبي، الإعلامي، الرسوم}

- **الأدبي**

في قراءتنا هذه سنلقي الضوء على أهم التجارب الشعرية التي حاول الشعراء من خلالها أن يصفوا ببلاغة أقلامهم حال الحرب التي يشنها الكيان الصهيوني الغاصب على فلسطين ولبنان وسورية.

وما يثلج الصدر حقاً أن ما كتبه أولئك المبدعون كان يمثل تجارب حية ومعاشة، وجاءت قصائدهم صورة صادقة لما عاشوه وعاشه العربي ولما يزل حتى اللحظة. وما يؤلم أن تلك القصائد نبتت في أرض الحرب، وأثمرت في تربة السلام، يقول الشاعر:

قـاومتُ أعداءَ البـــلادِ بذاتي	بالسيفِ.. بالبارودِ.. بالكلماتِ
وقد انتصرتُ على الطّغاةِ جميعِهِم	واجَهتُهُـــم كالليثِ في الحَلَباتِ
وأنا انتصرتُ بحكمتي.. وإرادتي	وبقبضَتي. ومَسَدَّسي.. وصَلاتي
قرآنُنا حَمَلَ المسيحَ.. مُبَجَّــلاً	والمريَــمَ العـــذراءَ في الآياتِ
والأنبيـــاءُ تَوَحَّــدوا بكتابِنا	هُــمُ سـادَةُ الأكوانِ والساداتِ
ها نحنُ كالجسدِ السليم إذا اشتكى	عضـوٌ مِنَ الأعضــاءِ في الأزَماتِ

يتّهمون القصيدة بسرعة التأثر، ونقل الحدث في مسارب الانفعال، ولكن التراجيديا العربية في أقطار الأمة اليوم أكبر من أن تعبر عنها نصوصنا القصيرة، وعندما تتوقف الحرب، وتعود الأرض لأصحابها ويعم الاستقرار، نحتاج إلى نصوص ملحميّة طويلة ينام في ظلّها الناجون والغرقى. تكون هناك تراجيديّات على أيّ حال، نحن الآن نبشّر بتلك القصيدة، التي تتخمّر في كلّ زهرة دم تقطف على مرأى العالم، يقول الدكتور منيف حميدوش:

كفى حزناً ... إذا ماتتْ عيونُ الزَّنبقِ المصلوبِ ..

في بلدي

كفى حزناً إذا اغتالتْ يدُ الجبناءِ .. أحلامي بلا عددِ .

كفى نوحاً ... إذا داستْ جحافلُ خزيهمْ يوماً ..

على جسدي.

كان التاريخ يُكتَب شعراً قبل أن يكتب نثراً، دون أنْ نُغفل الوظيفتين الجمالية والمعرفية. وفي القرون التالية تابعَ الشعر تسجيل الوقائع التاريخية حتى بعد ظهور علم التاريخ ومناهجه، خُذْ مثلاً قصائد المتنبي عن سيف الدولة، وقصائد أبي تمام عن المعتصم. وحتى في عصر الصحافة والإعلام كتب كثيرٌ من الشعراء عن أحداث القرن العشرين، تصويراً وتسجيلَ موقفٍ وشهادةً على العصر، خُذْ ما كتبه "بريفير" و"إيلوار" عن

الحرب العالمية الثانية. وعندنا في الشعر العربي الحديث أمثلةٌ كثيرة على الوظيفة التاريخية للشعر.

والسؤال المهم: هل هنالك جدوى من الشعر اليوم؟

والجواب: نعم هناك جدوى من كتابة الشعر تتجلى في:

1- تشكّلُ كتابةُ الشعر صرخةً من الشاعر في وجه طغاة العالم. وفي وجه المحتل، والإرهابي، والمستكبر

2-للشعر جدوى في تسجيل الوقائع وإبقائها في الذاكرة. فهناك الكثير من الدواوين الوطنية التي تجسد الحالة الوطنية.

3- للأدب دور في كتابة التاريخ فأدب الحرب العالمية الأولى والثانية ما زالا حتى تاريخه يحتلان الصدارة في التاريخ الأدبي

4- الشعر وثيقة تاريخية تبقى خالدة في أذهان الأجيال.

إنَّ الكتابة الجيدة تجمّلُ القبحَ ليس لتسويقه وإنّما لدحضه وقتلهِ، وبهذا يتحولُ الناصُّ إلى مقاتل ويكونُ النصّ سلاحاً في معركة لا تختلف عن معركة تُستخدم فيها كل صنوفِ الأسلحة، إذا عرفنا أن هذه الكتابة النوعية والمزلزلة كانت مُحاربة قبلُ في البلدان التي هُجِرَت بسبب الحرب. يقول الدكتور أسامة الحمُّود في قصيدته شَآم:

تِيهِي بِحُسنِكِ واشمخِي يا شامُ	لايُشغِلَنَّكِ ما جَنى الأقـــزامُ
شُهَدَاؤنا رَسَمُوا خَرَائِطَ نَصرِنا	ومَضـوَا تُزَيّنُ دَربَهُم أعــــلامُ
هَمَسُوا بأذنِ الفَجرِ سِرَّ بَهَائِهِم	وتَدَثَّـــرُوا بالياسَمِينِ ونَــامُوا
أسطُورةُ الوَهمِ المَقِيتِ تبَدَّدَتْ	ولسَوفَ تسقُطُ ها هُنا أوهَامُ

الكتابةُ في أحدِ أوجهها استشفاء وفي أحدِ أوجهها رسالة بغض النظر إذا كانت رسالة لأحد معين أو جماعة أو رسالة سيضيعُ دمها في الفضاء قبل أنْ تصل، لكنْ هي معنية بأحدٍ ما كفعل، ولهذا فالكتابة في المقاومة لا تعدُّ إخلاصاً للواجب فحسب،

وإنّما هي تماه بينَ المراكمة النفسية والمعرفية للإنسان وبين المُعاش اليومي بوصفه سلوكا، لا يمكن الفصل بين النار والأوكسجين.

ومن المجحف القول إنَّ الشُّعراء لم يواكبوا المحرقة حركة المقاومة بكل تجلياتها، ويكفي أن ننظر إلى الكم الهائل من النصوص والمجموعات الشعرية التي اتخذت من الواقع المؤلم مادة لها، كحالة تدوينيه آنية، غير أن الإنصاف يكمن في القول بأن كل الذين ساهموا في حركة تدوين يوميات المقاومة انطلقوا من غايتين واضحتين هما: محاولة فعل ما يستطيعونه في ظل سيطرة الرصاص لفضح المجرم، والرغبة بإظهار المعاناة اليومية، وربما كلا الغايتين تندمجان تحت باب فعل المستطاع للتخلص من عقدة الذنب وتأنيب الضمير، يقول الشاعر منيف حميدوش:

من لي ليمسح عن خدودي دمعتي　　إذا ما بكتْ تلكَ العيون زمـــاني

أغمضتُ عيني عن حدودكَ موطني　　فتكاثـــر البــومُ وحلّقتْ غربانِ

إنِّي أرى مـــوتي بصرخـــــةِ طفلةٍ　　وأرى الــدُّمــــوع كأنَّهــا أكفــاني

أنا يا حبيبتي عاشقٌ درب الهـــوى　　قد ذاب في بحـــرِ الهوى وجداني

عمري الذي اغتالتهُ نيرانُ الجنون　　تغتالُ أمِّـــــــي الآن بالخُـــذلانِ

فالشعر إنما يخصُّ هؤلاء الذين يعملونَ على نصوصهم باعتبارها مشاريعَ حياتية تهمّهم بوصفهم أناسا فاعلين وكذلكَ باعتبارهم أصحاب رأي، والصورة هنا لوردة حمراء لم ترَ لها مكاناً بين المحبين، وإنما أصبحت رمزاً لتربة الشهداء، يقول الشاعر الدكتور منيف حميدوش:

يباعُ الوردُ في وطني شهيداً

وقد أغرته هاتيكَ السَّنابل

أغرتهُ شقائق النعمان

وتربةُ الشُّهداء

وأغرته تغاريدُ البلابل

تناسْتهُ حدائقُنا... طفولتُنا

دفاترُنا ...وأحرفُنا

وشرفاتُ المنازل

يُباعُ الوردُ ...ومن إحساسنا خرجَ

ولم ندرِ بأنَّ الوردَ إن عشقَ

تكفَّن جفنه بالدَّم حيناً

وأحياناً من زرد السلاسل

*** ****

- **الإعلامي**

اعتمدت المقاومة الأساليب النفسية والمعنوية الحديثة في عملية التأثير سواء على الرأي العام المدني أو العسكري في صفوف العدو. فقد تمكنت المقاومة من استخدام التقنيات الحديثة لتصوير العمليات الأمر الذي يحدث لأول مرة في تاريخ المقاومة ضد الاحتلال.

وقد استفادت منه المقاومة في حربها، إذ يتمَّ تصوير العمليات الدقيقة والمعقدة. واللافت في الصياغة الإنشائية الإخبارية والتحليلية للإعلام المقاوم في تناوله لقضايا المقاومة وأعمالها وانتصاراتها، وفي تغطيته لعمليات المقاومة، اتبع النهج التأييدي لطروحات المقاومة والدفاع عن أعمالها وخططها واستراتيجية حضورها. وذلك من خلال اعتماد منطق " فرز الثنائيات" كالتضاد الذي كان حاصلا في المواقف المؤيدة علانية للمقاومة وتلك المتحفظة على دورها، أي اتباع المقارنة والمقابلة.

وجود برامج ومن خلال المراقبة الأولية لتلك البرامج يمكن استخلاص بعض الفرضيات التي سيتم التأكد من جدواها من خلال نتائج الدراسة:

1- الثقافة الإسلامية والتعاليم القرآنية كانت العامل الأساس والأقوى بين الجماهير من حيث الالتزام بقضاياهم والتضحية من أجلها.

2- ربط عملية الاستشهاد بالمكافأة الإلهية غير المحدودة دفعت الكثير لترك الدنيا وطلب الآخرة.

3- من خلال عملية التعلم بالمراقبة قدمت تلك البرامج نماذج يحتذى بها للإنسان العربي والمسلم للالتزام بقيمه وعاداته وثقافته.

4- أسهم الإعلام المقاوم في عملية رفع الروح المعنوية لدى المقاومين وأضعفها لدى عناصر العدو.

5- أسهم الإعلام المقاوم في تجاوز حالة اليأس والإحباط التي أصيب بها الشعب العربي نتيجة الهزائم المتكررة على جميع الأصعدة.

الرسم والصورة

وتتوزع ثقافة الصورة على فضاءات فنية مختلفة، نحو الفضاء الفوتوغرافي والفضاء التشكيلي والفضاء الكاريكاتيري، وكل فضاء يمتاز بتقنيات فنية وأبعاد هندسية مشبعة بالإيحاءات الدلالية، ونظرا لخصوصية التقنية الفنية لكل فضاء ينبغي دراسة الصورة وفق نوعها.

ولا يخفى الدور الوظيفي للصورة في الخطاب الثقافي السيميائي، فقد أضحت الصورة قناة تواصل مائزة تملك قدرة على منافسة الكلمة في كثير من السياقات والمقامات، وتعود تلك القدرة إلى حزمة من المواصفات، نحو غياب القناع الدلالي، إذ تتجلى الدلالة في الصورة أكثر من دلالة الكلمة التي قد تتحصن خلف الأقنعة والرموز والإيحاءات.

كما أن الصورة تمنح المتلقي فضاء تأمليا يتسع لكل الأحداث التي تعبر عنها ويستوعب الأطياف الوجدانية التي تنجم عن تفاعل المتلقي مع الصورة

يستحضر الخطاب الكاريكاتوري مخزونا تاريخيا موغلا في القدم تقترب أحداثه من المعطيات الأسطورية؛ إذ يربط بين سد مأرب العظيم الذي تهدم بسبب الفئران التي قرضت قواعده وأركانه، والمسجد الأقصى المبارك الذي تهدده الحفريات الصهيونية المتواصلة منذ احتلال القدس عام 1967.

ولا يخفى أن الرواية التي تربط انهيار سد مأرب بالفئران تحتاج إلى إعادة تمحيص وقراءة وفق المنظور الجيولوجي، ولكن ما يعنينا في هذا السياق هو الدلالة السيمائية التاريخية



صورة الفئران التي تنتشر على حروف كلمة (هدم) ، وهي دلالة تختزل مخزونا ثقافيا ينذر بالعاقبة الوخيمة لاستمرار الحفريات تحت المسجد الأقصى ،ولا تقتصر دلالة صورة الفئران في هذه اللوحة على الربط بين انهيار سد مأرب ، وهدم المسجد الأقصى بسبب الحفريات ، بل تدل الصورة على خطورة العامل الزمني ؛ فقد استغرقت الفئران في قرض أسفل السد فترة طويلة ،كذلك مضى على الحفريات أسفل المسجد الأقصى أكثر من ثلاثين عاما . وقد اشتمل البناء الفني للوحة على محورين أسلوبيين.

الأول : البنية السطحية للوحة التي تتمثل بالدال الكتابي لكلمتي (هدم والأقصى)، ولا يخلو هذا المحور من مثيرات فنية ونفسية، فكلمة الأقصى بلونها البرونزي تحوي بعداً هندسياً جمالياً، وكلمة (هدم) بلونها الأسود وهيئة حروفها تمنح اللوحة فضاء نفسياً مشبعاً بالخوف والترقب والتوتر.

والثاني : البنية العميقة التي تتجسد بمثيرين أسلوبيين وهما صورة الفئران – وقد تقدمت دلالتها – ، وعدد الفئران في الصورة ، إذ إن ظهور ستة فئران في الصورة



ليس أمرا عفويا، بل هو خطاب سياسي توراتي مبهر، فالعدد ستة يرمز إلى النجمة السداسية أو ما يعرف بنجمة داود، وما دام هدف الحفريات هو محاولات يائسة للعثور على هيكل سليمان المزعوم، فإن عدد الفئران الستة ينسجم مع الدلالة التوراتية المزعومة التي تكمن في النجمة السداسية وهي العثور على الهيكل تحت المسجد الأقصى.

وإذا كان عدد الفئران هو الذي أفضى إلى تناص توراتي يزعم أن الهيكل موجود تحت الأقصى فإن اللوحة التالية تُظهر النجمة السداسية على الفئران، وبهذا تصبح دلالة التناص التاريخي والتوراتي أكثر شفافية من الدلالة التي تضمنتها اللوحة السابقة.

كما تظهر اللوحة مقدار الحفريات المستمرة منذ أكثر من ثلاثة عقود وهو ما يتضح في صورة تساقط الأتربة والحجارة من الأعلى إلى الأسفل. وقد اعتمدت اللوحة الأولى على الدال الكتابي للدلالة على المسجد الأقصى.

وتستحضر لوحة الكاريكاتير استجابة الخليفة المعتصم لصرخة المرأة المسلمة في عمورية (و امعتصماه)، وتجسد اللوحة مفارقة في الاستجابة، فالمعتصم استجاب لنداء الندبة والاستغاثة، فجهز جيشا وفتح عمورية، أما صرخة المرأة التي تماهت مع القدس فلم تلق استجابة من أحد.

وقد تجلى الخطاب الساخر في لغة اللوحة من خلال البنى الصرفية (أنا اسمي عصام، أنا اسمي عاصم، أنا اسمي عصمت) التي تمثل سلبية الموقف الرسمي. ولا يخفى أن هذه البنى الصرفية الاشتقاقية تجسد حالة الانفصام بين منظومة القيم زمن المعتصم وثقافة القيم في الزمن الحاضر.



لا يخفى تعدد الدلالات الرمزية للأفعى في اللاوعي الجماعي، وقد اهتم الرسم الكاريكاتيري بالأفعى رمزا للشر والتدمير، كما يبدو في اللوحة الآتية التي تصور التفاف الأفعى حول القدس واستعدادها لابتلاع الأقصى، وحركة الالتفاف التي تعد خاصية للأفعى في حالة التفافها حول الفريسة أو الضحية تشير إلى الحزام الاستيطاني الذي يلتف حول القدس.



طوفان الأقصى أو معركة السَّابع من تشرين

هي عمليةٌ عسكرية مُمتدة شنَّتها فصائلُ المقاومة الفلسطينية في قطاع غزة وعَلى رأسِها حركة حماس عَبر ذراعها العسكري كتائب الشهيد عز الدّين القسام في أوّل ساعات الصباح من يوم السبت (7 تشرين الأول/أكتوبر 2023 م) الموافق لـ (22 ربيع الأوَّل 1445 هـ)، إذ أعلَن القائِد العام للكتائب مُحمَّد الضيف، بدء العملية ردًّا على «الانتهاكات الإسرائيلية في باحات المَسْجِدِ الأقصى المُبَارك واعتداء المُستوطنين الإسرائيليين على المُواطنين الفلسطينيين في القُدس والضّفّة والدّاخل المُحتَل»

بدأت عمليَّة طُوفَان الأقصى عبر هُجومٍ صَاروخي وَاسعِ النطاق شنّته فصائل المقاومة، إذ وجَّهت آلاف الصواريخ صوبَ مختلف المستوطنات الإسرائيليّة من ديمونا في الجنوب إلى هود هشارون في الشمال والقدس في الشرق، وتزامنَ مع إطلاق هذه الصواريخ اقتحام برّي من المُقاومين عبر السّيارات رُباعيّة الدّفع والدّراجات النّارية والطّائرات الشّراعيّة وغيرها للبلدات المتاخمة للقطاع، والتي تُعرف باسم غلاف غزة،

حيث سيطروا على عددٍ من المواقع العسكريّة خاصة في سديروت، ووصلوا أوفاكيم، واقتحموا نتيفوت، وخاضوا اشتباكاتٍ عنيفة في المستوطنات الثلاثة وفي مستوطنات أخرى كما أسروا عددًا من الجنود واقتادوهم لغَزَّة فضلًا عن اغتنامِ مجموعةٍ من الآليّات العسكريّة الإسرائيليَّة.

قد واتتنا "كتائب القسام" بأنموذج آخر من الحروب الشعبية التي لا يسندها أحد من أهلها، فالعرب الذين يملكون أحدث الأدوات الحربية، البرية والبحرية، والطائرات العسكرية قد كفُّوا أيديهم عن أي مساعدة أو دعم، ولو كان سريا، لتلك الكتائب التي يقودها الشباب الفلسطيني.

فعملية القسام انموذج حربي آخر يضاف لتاريخ القتال الشعبي، تنطلق استراتيجيته من غزة الصامدة البطلة؛ إن النجاح العظيم لتلك العملية قد أجبر نتانياهو الصهيوني ان يقول إنها حرب مخيفة؛ ومثلما قال قاله وزير دفاعه.

وأذهلت العملية النوعية، التي غطت خطتها سرية تامة؛ العالم العسكري قبل السياسي، ولا يزال كرمها العسكري الحربي واسعا ضد الصهاينة، كما سيبدو في الأيام المقبلة.

ما قامت به حركة حماس هو فعل طبيعي وحق مشروع لحركة مقاومة ضد الاحتلال. إلا أن العملية الفدائية تدخل في سياقات أخرى نظرا إلى تموقع حركة حماس كحكومة وسلطة تحكم في قطاع غزة وتتعامل معها العديد من الدول على هذا الأساس.

تمكنت الفصائل الفلسطينية من توجيه ضربة قاصمة للجيش الإسرائيلي ومنظومته الأمنية التي تعد الأفضل بين الدول في المنطقة.. فما أسرار نجاح عملية طوفان الأقصى

وبمقاييس العلوم العسكرية والعمليات الحربية الخاصة كانت المرحلة الأولى لعملية "طوفان الأقصى" –التي نفذتها المقاومة الفلسطينية حول غلاف غزة– نوعية ومتكاملة، وبمقاييس نظرية الأمن الإسرائيلية كانت ضربة قاصمة.

ووفق التقييم الأولي لمسؤولين أمنيين صهاينة تحدثوا لنيويورك تايمز، فإن نجاح هجمات عناصر المقاومة في عمليتها المباغتة تلك يعود إلى مجموعة إخفاقات أمنية

وعسكرية ارتكبتها مخابرات إسرائيل وجيشها، منها الفشل في رصد ومراقبة قنوات الاتصال الرئيسية التي تستخدمها الفصائل الفلسطينية والمقاتلون الذين نفذوا الهجمات.

يضاف إلى ذلك الاعتماد المبالغ فيه على كفاءة الأجهزة ومعدات الاستشعار عن بعد في مراقبة الحدود، والتي استطاع عناصر المقاومة تعطيلها بسرعة، مما مكنهم من التسلل ومداهمة القواعد العسكرية ومباغتة الضباط والجنود وهم في أسرّتهم.

ولهذا كانت النهاية ما حدث من تحطم نظرية الأمن الإسرائيلي التي تعتبر إسرائيل تتفوق على كل أعدائها، وكذلك نظرية الردع التي ترتكز على التخويف من القوة الضاربة.

عجز الكيان الصهيوني عن دخول غزة والتهديد بالنووي

إنَّ عجز الكيان الصهيوني عن اقتحام غزة بالرغم من مرور حوالي الشهر ونيف على القصف الهمجي الذي لا يرحم الحجر ولا الشجر ولا الأطفال أو النساء ولا دور العبادة.. حوَّل هذا العجز إلى حقد مضاف إلى حقده السابق تجاه أي عربي بشكل عام وأي فلسطيني بشكل خاص، ومن هنا كان تهديده بالسلاح النووي على لسان وزير تراثه المزيف.

فالكيان الصهيوني لا يعترف رسمياً بامتلاك السلاح النووي، لكن تقارير دولية أكدت أن لدى دولة الاحتلال برنامجاً نووياً، على الرغم من أن العدد الدقيق للرؤوس الحربية محل خلاف ما بين(90–200) رأس نووي.

ورغم نفي «الكيان الصهيوني " امتلاكه السلاح النووي فإن التصريحات المتطرفة الصادرة عن ما يسمى وزير التراث الإسرائيلي، عميحاي إلياهو، بشأن إلقاء قنبلة نووية على قطاع غزة، تعزز التأكيد على أن "الكيان الصهيوني " حرص على امتلاك مقومات البنية الأساسية النووية منذ قيامها عام 1948 وبدعم غربي.

خلال نحو شهر منذ بدء القصف الإسرائيلي لغزة، بلغ حجم القنابل التي أسقطها الكيان الصهيوني على القطاع المحاصر نحو 25 طناً من المتفجرات(حتى الآن)، بحسب المرصد الأورو متوسطي لحقوق الإنسان، وهو ما يكافئ القوة التدميرية لقنبلة هيروشيما أكثر من مرة ونصف.

يقول الشاعر منيف حميدوش في قصيدته (غزة الحلم)

غزَّةُ لستِ إلاَّ جريحةَ الألمِ

أشرقتِ عزاً

وكنت أوَّلَ الكَلِمِ

صاغتكِ أقدارُ الحياةِ عزَّةً

كوني لروحكِ رقَّة العلمِ

هذي أيادي الحقِّ تكتبُ سطرَها

فغدتْ لعزِّها رايةَ القممِ

يا غزَّة الحلمِ

قد ناجتكِ أغنيَّةٌ خضراءُ

فوق الروابي

فكان اللحنُ في الألمِ

آهٍ على حلمٍ

في ضفافِ جنينَ هنا

قد ضاعَ منَّا

وسيفُ الحِلمِ لم يَنَمِ

حلمٌ في الضفافِ

غدا

لون الحياة

به، والحلمُ في الهِمَمِ

أطفالها

كتبوا في الحربِ فلسفةً

أشبالها

رسموا لون الحياةِ

من عدمٍ

شُيَّابها

نفرت من بين أسطرها

لا الظلمُ يبقى

ولا المحتلُ لم يَدُمِ

هذا أقصانا

لا نبتغي بدلاً

بالدَّارِ دارٌ

ولا بالقدس ...والحرمِ

سبحانَ من أسرى

بثوارٍ هنا انتفضوا

في الليلِ نورٌ

وشمسُ الحقِّ

في العلمِ

من تحت أجداثِ الركام

بنوا

حصناً منيعاً

كأنَّ الحصنَ في القممِ

شادوا

على سفن التاريخ ملحمة

الحلمُ فيكِ يا غزَّةَ الحُلُمِ

– لم يحقق الاحتلال الإسرائيلي النهاية المرغوبة وهي النصر على حماس. وجميع الطلعات الجوية الإسرائيلية، والكميات الهائلة من المتفجرات لم تفلح حتى الآن إلا في هدم المباني والمستشفيات والمدارس وقتل المدنيين العُزَّل"

– استمرار القصف على "إسرائيل" يجبر جيش الاحتلال أن يكون في أتم جاهزية ودخول الإنذار على مدار الساعة.

– لن يتمكن سلاح الجو الإسرائيلي من حسم المعركة.

– توجد طرق تُمكن المقاومة في غزة من إعاقة سلاح الجو الإسرائيلي عن تنفيذ مهامه.

– لا يمكن للكيان المحتل أن يتحمل خوض حرب طويلة الأجل، بسبب تداعيات تلك الحرب، وتكاليفها الاقتصادية.

- هناك احتمالية لتوسع رقعة الحرب ودخول أطراف إقليمية ودولية أخرى. فاليمن دخل ساحة الصراع وأعلنها صراحة، ولبنان المقاومة أعلنت وقوفها إلى جانب شعب غزة وجبهتها ملتهبة، وسورية أيضا أعلنت وقوفها إلى جانب الشعب الفلسطيني وليس جديداً عليها وهي السند الذي تتكئ عليه المقاومة في كل ساحات الصراع بالرغم من جراحها
- وتونس بموقفها المشرف بوقوفها إلى جانب الشعب الفلسطيني .. وغيرها

المواقف الأمريكية والغربية المساندة للكيان

يتوافق الغربيون الرسميون على ضرورة إدانة «حماس» وعدم إدانة إسرائيل، مهما تجاوزت في «الرد» وغالت في «الدفاع عن النفس» وقتلت المدنيين والأطفال، الذين هم «مجرد دروع بشرية ألقت بهم (حماس) في أتون الصراع» وجعلتهم مجرد «أضرار جانبية» كما يقول ساسة غربيون بوضوح. لذلك، فإن المواقف الرسمية الغربية

ستتضافر لكي تمنع صدور أي قرار بوقف إطلاق النار، كما حدث في «قمة القاهرة للسلام» وفي مجلس الأمن، وستحرص أيضا على أن تستمر العمليات العسكرية لحين إتمام إسرائيل «مهمتها» المتمثلة في القضاء على «حماس» وإخراجها من حسابات الصراع.

الموقف العربي

في ظل غياب أي دور فاعل للجامعة العربية في مختلف الكوارث التي تحل بالعالم العربي منذ عقود، يفرض السؤال نفسه، ألا يشعر كبار المسؤولين في ذلك الكيان الميت الذي لا يغري سوى موقعه المطل على النيل، أن الراتب الذي يتقاضونه من لحم المواطن العربي مشكوك في مشروعيته؟ كالعادة ومنذ أن بدأت الحلقة الأحدث في الصراع العربي الإسرائيلي متجسدة في الحرب التي ترتكب خلالها إسرائيل أبشع الجرائم غاب أي تأثير للجامعة التي باتت نسياً منسيا، ولا يتذكرها أحد ولو من قبيل الترحم عليها.

إن العالم قبل 7 أكتوبر، غير العالم بعد هذا اليوم، هذا ما ندركه بالتدريج وعلى مستويات مختلفة. فبعد أن عزلت فيها غزة عن العالم، واختفت من نطاق التغطية ليلة 27 أكتوبر/تشرين الأول «بدأت بهذه المرحلة جرائم تتم في الظلام ضد التوثيق، وفي عماء كامل من العالم، جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية وعملية إبادة جماعية، يحركها جنون اليمين المتطرف في إسرائيل الذي يتحرك بكروت خضراء من العالم الذي يصف نفسه بأنه حر ومتحضر وإنساني».

هناك صدمة لدى بعض الحكومات العربية، بعد أن اكتشفت الوجه الأكثر إجراما ووحشية لدى الاحتلال، وأظن أيضا أن رهانات بعض العرب على إسرائيل قد سقطت تماما بعد أسابيع من العدوان الإسرائيلي الهمجي على قطاع غزة.

فلسطين ليست مجرد أرض أو وطن

فلسطين في القلب لدى الجميع الطائع والعاصي والمتدين وغير المتدين والليبرالي واليساري.

- أفضل عنوان كُتب عن أحداث غزة كان في مجلة «صوت الأزهر» وهو «لا مسيح في الغرب ليحيي كل هذه الضمائر الميتة» وتحته صور عشرات الأطفال الغزاويين القتلى في أكفانهم. «فداك يا رب» كلمات بسيطة قوية رائعة قالها شاب فلسطيني وهو ينعى ابنه الجميل الذي استشهد بقذائف جيش الاحتلال، الحمد لله، فداك يا رب، فداك يا رب، ويشير إلى ابنه قائلا: شوفوا زي القمر، ويردد «فداك يا رب» مرات ومرات. كلمات لا تصدر إلا من ولي عظيم من أولياء الله فليست الولاية إلا بالتسليم الكامل لله، وبحسن التوكل والإنابة إليه.

لذلك كتبت قصيدة بعنوان طوفان الأقصى تقول كلماتها:

تهـــــاوت فينـــا أحـــرُفنا	وصار الحـــــرفُ طوفانا
تهشَّـــمَ بوحُـــها غضباً	وبات البـــوحُ قـــربانا
رداءُ الحـــــقِّ من دمنا	مراكبَ ترســـــو شطآنا
ويكسو الدَّمُّ لي جسداً	لباسُ القبـــــحِ عدوانا
فأولادٌ هنـــا قُتلـــوا	وأحفـــــادٌ هنـــا الآنـا
وقصــــفٌ طال منزلنا	بصـــــاروخٍ ونيــــرانـا

كيف ستهزم فلسطين؟ كيف ستهزم فلسطين وهي ليست أرضا أو وطنا فحسب؟

هم نسوا تاريخ هذه الأرض، بالله عليكم كيف تهزم أرض كل الأنبياء في أرض فلسطين

- نبي الله إبراهيم هاجر إلى فلسطين.
- نبي الله لوط بعد أن نجاه من العذاب وبعد أن ترك قومه هاجر إلى فلسطين.
- نبي الله داود عاش في فلسطين وبنى محرابه في أرض فلسطين.
- ولده نبي الله سليمان حكم العالم من أرض فلسطين
- والنملة التي تكلمت مع نبي الله سليمان كانت في قرية في أرض فلسطين.
- نبي الله زكريا بنى محرابه في أرض فلسطين
- نبي الله موسى بن عمران طلب من قومه أن يدخلوا الأرض المقدسة وهي أرض فلسطين

- نبي الله عيسى بن مريم كانت ولادته على أرض فلسطين
- السيدة مريم عليها السلام وهي في أشد حالات ضعفها لما قال لها الله هزي بجذع النخلة كانت في أرض فلسطين
- المسيح الدَّجال ستكون نهايته في أرض فلسطين
- ياجوج ومأجوج ستكون نهايتهم في أرض فلسطين
- أرض المحشر والمنشر هي أرض فلسطين
- المسجد الأقصى في أرض فلسطين
- النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم صلَّى بالأنبياء في أرض فلسطين
- عُرج بالنبي إلى السماوات العلى من أرض فلسطين
- التراث العريق في أرض فلسطين
- مهد الحضارات والرسالات أرض فلسطين
- كيف لهم أن يمحو أثرنا من أرض فلسطين وفلسطين كلُّ ما ذكرت ؟
- كيف لهم أن يتغلبوا على هذه الرسالات السماوية والأنبياء والمرسلين برسائل حقدهم وظلمهم وعدوانهم؟

كلمات تبقى للتاريخ ولنوثق جرائم الاحتلال

كتبت قصيدة سفن الطوفان التي حاكت بأسلوبها وقافيتها قصيدة قيلت في الثورة الجزائرية.

طوفاننا قد سارَ في ركابٍ ظافره وأنهى عقوداً من الليالي الكافرة
بوركت يا طوفاننا رمزَ الحياة وجُعلت في عينِ الإلهِ السَّاهره
حققتَ نصراً لم يكن بِحسابنا كانت يــد اللهِ فيــهِ الآمــرة
بُوركت يا طوفاننا رمزَ الحياة وقلعتَ عــين إسرائيل العاهره
ومضيت في ركب الحياة مسافراً ونفضت عنَّا ذلَّ الحياة السَّافرة
وصرختَ في وجهِ الطُغاةِ مُقاوماً سفنُ الطوفان في بلادي متكرِّرة
هي لحظةٌ فيها الشَّهامة تُرتجى لا قيدَ... لا انكسار... لا مُصادرة
في غزَّة تحمي الأسودُ عرينُها من بيت لحم لعسقلان والنَّاصرة
سفنُ النجاةِ في طوفاننا متكرِّرة أهــلاً بمــن لبَّى النداء وآزره

شهداؤنا رمزُ الحياةِ بأرضنا وقــوافلُ للعزِّ في الحياةِ الآخرة
أرض النُّبوات ترتوي بدمائنا هي فــرحةُ تلك القلوب الآثرهْ
بوركت ياطوفاننا من عزَّة غـــزَّة الأبيـــة لا تنامُ ساهرة

خاتمة البحث

لا يمكن إقصاء أي من مفهومي المقاومة والإرهاب عند محاولة تعريف أي منهما وذلك أنهما بالدرجة التي يلتقيان بها يفترقان، إذ يلتبسان في الفعل وينفصلان عند المبررات والأهداف، وهما في هذا وذاك يؤسس الواحد منهما الآخر. وبالتالي لا بد من التوصل إلى عدد من التساؤلات منها:

- مبررات المقاومة قائمة في المجتمع وإن لم توجد المقاومة بعد، أما الإرهاب فلا يمتلك هذه المبررات إلا بوجوده.
- تمتلك المقاومة إجماعاً اجتماعياً عليها وإن اختلف حول صورها، بينما لا يمتلك الإرهاب والاحتلال مثل هذا الإجماع.
- الغاية من المقاومة غايات غير متعدية إلى غير مجتمعها، بينما الإرهاب لا تتخطى غاياته ومراميه أبعد من الشريحة المجتمعية التي ولدته.
- المقاومة تلتقي لحظة انتهائها بلحظة تحقق أهدافها، بينما لا نهاية لأهداف الإرهاب إذ إنها غير واضحة ولا مبررة أصلا.
- المجتمع العربي ضحية تاريخية لإرهاب الدول الغربية ومشروعاتها في المنطقة. وتطرح الدراسة سؤالها الأخير عن اللبس المزعوم بين المقاومة والإرهاب، وذلك من خلال علاقة الأنا بالآخر وتأويل أحد الطرفين لأفعال الآخر.
- إن الأدب المقاوم، بشقيه الشعري والنثري، لم يكن مرآة تعكس على نحو آلي هموم الأمة، بل كان أيضا أداة إيقاظ وتحفيز وتنوير، عبّر عن وجدان الناس من جهة، واستشرف المستقبل من جهة أخرى.

النتائج

1- تأكيد خيار المقاومة الأهلية المتمثلة بالتحرير والتحرر معاً، وحيث لا سيادة للدولة ولا لحرية لأفرادها من دونها.

2- إقرار مشروع متكامل لبناء دولنا على أسس حديثة.

3- التأسيس من أجل بناء وحدة عميقة بين الدولة كقاعدة للحياة القانونية والمؤسساتية التي تضمن حقوق الأفراد وحرياتهم وتطمئنهم عليها، وثقافة المقاومة التي تشكل الروح الوطنية في المجتمع.

4-إطلاق عملية إعادة بناء أخلاقية وقانونية وسياسية، تسمح بتخطي العصبيات الطائفية والمذهبية على مستوى المجتمع المدني ومستوى السلطة معاً، والتأسيس لمقاومة متكاملة، ينخرط فيها الجميع كل بحسب قدرته وامكاناته.

5-إن المقاومة ليست محصورة في المقاومة العسكرية، بل هي مقاومة حضارية شاملة لكل ميادين الحياة.

6-للتربية دور رئيس في تعزيز ثقافة المقاومة لدى الناشئة، وتأهيلهم لحمل رسالة المقاومة والصمود في المعركة. ولا بد لتربية المقاومة أن تكون تربية شاملة، بأبعادها الفكرية والتعليمية والسياسية والأمنية والاقتصادية والاجتماعية.

7-التأسيس لمشروع متكامل يوطد الثقة والتكامل بين المقاومات وحركات التحرر في العالم، وذلك من أجل بناء "المقاومة التكاملية" بحيث يصبح نجاح أي مشروع مقاوم هنا، يؤدي إلى استفادة هناك، وهكذا يتكامل العمل المقاوم مما يؤدي إلى انهيار مشروع السيطرة والهيمنة على المنطقة.

في ظل الظروف الدولية الراهنة، وبعد ما حصل في لبنان والعراق وفلسطين وسورية وبلدان الوطن العربي، تغدو الحاجة ماسة إلى إعادة تأكيد المفاهيم الإنسانية السليم للمقاومة، والحفاظ عليها حقوقاً إنسانية ثابتة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالقيم الحضارية وبحق الشعوب في تقرير مصيرها، والمحافظة على شرعية مقاومة الاحتلال الأجنبي واستعادة حقوق الشعوب المشروعة.

التوصيات

1-تكاتف كل وسائل المقاومة الثقافية في المعركة، من مسرح ونشيد وفلكلور شعبي، وإعلام مرئي ومسموع، ورسوم وخطوط وغيرها.

2-تصميم خطط وبرامج لتحصين الشباب العربي من الاستلاب الصهيوني والسقوط في العمالة، وجرفهم في تيارات العولمة ومفاهيمها ومصطلحاتها

3-ضرورة الحفاظ على ثقافة المقاومة وحمايتها من الانحراف عن بوصلتها الحقيقية ضد الاحتلال.

4-بناء الاقتصاد الوطني المقاوم

5-تعزيز الانتماء للوطن والولاء لمصالحه العامة، فوق الانتماء للخارج والصالح الضيق.

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. الإبداع والبناء الثقافي والاجتماعي: زكي محمد إسماعيل، دار المطبوعات الجديدة، الإسكندرية،1989.
3. ثقافة المقاومة: حسن حنفي. مؤتمر فيلادلفيا الدولي العاشر: بعنوان ثقافة المقاومة في الآداب والفنون، الأردن، عمان،2005.
4. ثقافة المقاومة: عز الدين المناصرة. مؤتمر فيلادلفيا الدولي العاشر: بعنوان ثقافة المقاومة في الآداب والفنون، الأردن، عمان، 2005.
5. ثقافة المقاومة: علي رزق. مؤتمر فيلادلفيا الدولي العاشر: بعنوان ثقافة المقاومة في الآداب والفنون، الأردن، عمان، 2005.
6. المتطلبات التربوية لتعزيز ثقافة المقاومة: نافذ سليمان الجعب. فلسطين، غزة، 2009.
7. الحرب الإعلامية: نموذج الإعلام المقاوم في لبنان. الدكتورة مي العبد الله، لبنان.

8. ملامح في الأدب المقاوم" فلسطين أنموذجاً ": دراسة. منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق ،2009.

9. مشروع القومية العربية إلى أين: د. حسين جمعة.

10. لسان العرب: ابن منظور. دار صادر، بيروت.2000.

11. رواية المقاومة: عبد الله أبو هيف. مجلة الكاتب العربي، العدد 75، الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب، دمشق، 2007م.

12. أدب المقاومة: غالي شكري. دار المعارف، القاهرة، 1970.

13. قضية الشعر الجديد: محمد النويهي. دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧١م.

عَاجِلٌ !!!

د. محمد بن علي العوفي

هُنَا الْحَمَامُ بِنَارِ الْقَصْـفِ يَلْتَحِـفُ

وَفِي يَدَيْهِ عَصَا الزَّيْتُونِ تَرْتَجِـفُ

هُنَا الْمَـآذِنُ ثَكْلَى قَضَّ مَضْجَعَـهَا

رَعْدُ الْأَزِيـزِ كَسَيْلٍ بَاتَ يَعْتَصِفُ

هُنَا السَّمَـاوَاتُ حُبْلَى بِالدُّخَانِ وَقَدْ

غُلَّتْ كَوَاكِبُـهَا وَالنُّورُ يُخْتَطَـفُ

هُنَا الْبَـرَاءَةُ تَبْكِي مَنْ سَيَحْضُنُهَا

وَأُمُّهَا فِي شَتَاتِ الْمَوْتِ تَنْجَـرِفُ

هُنَا كِتَـابُ سَـلَامٍ يَشْتَهِي لُغَـةً

مِنْ شَهْدِ أَحْرُفِـهَا الغَرَّاءِ يَرْتَشِفُ

هُنَا الطَّهَارَةُ صُـهْيُـونٌ يُدَنِّسُـهَا

يَدُوسُ أَحْلَامَهَا الْإِجْرَامُ وَالصَّلَفُ

هُنَا الْمَسَــاءَاتُ لا صُبْحٌ يُرَاوِدُهَا

مِحْرَابُهَا النَّجْـمُ قَسْرًا فِيهِ تَعْتَكِفُ

هَنَا الْأَمَـانِيُّ أَشْـلَاءٌ مُمَـزَّقَةٌ

كَانَتْ خَوَاطِرُهَا فِي الرُّوحِ تَأْتَلِفُ

هُنَا النَّخِيـلُ جِرَاحَـاتٌ يُكَابِدُهَا

جِذْعُ الْإِبَاءِ وَيَحْذُو حَذْوَهُ السَّعَفُ

هُنَا الْجِبَـالُ تُوَارِي حُزْنَهَا خَجَـلًا

مَتَى رَأَيْتَ دُمُوعَ الطَّـوْدِ تَنْذَرِفُ

هُنَا الضَّمَائِرُ مَاتَتْ وَالقُلُـوبُ غَدَتْ

أَقْسَى مِنَ الصَّخْرِ وَالْأَخْلَاقُ تَنْخَسِفُ

فِي أَرْضِ غَـزَّةَ مَأْسَــاةٌ مُؤَجَّجَةٌ

إِنَّ الْمَجَــازِرَ تَحْكِي فَوْقَ مَا أَصِفُ

فِي أَرْضِ غَزَّةَ بَحْـرٌ بِالدِّمَاءِ جَرَى

جَـادَتْ بِهِ بِسَخَـاءٍ تِلْكُمُ النُّطَـفُ

فِي أَرْضِ غَزَّةَ بَرْقُ النَّصْرِ قَدْ لَمَعَتْ

أَضْوَاؤُهُ رَغْمَ مَا عَاثُـوا وَمَا اقْتَرَفُوا

مَنْ يَنْصُــرِ اللهَ إِنَّ اللهَ يَنْصُـــرُهُ

وَعْدٌ مِنَ اللهِ لِلْأَحْــرَارِ مُزْدَلِـفُ

وَاللَّيْلُ إِنْ طَالَ فَجْـرٌ سَوْفَ يَعْقُبُهُ

وَسُنَّةُ اللهِ فِي الْأَكْــوَانِ لا تَقِـفُ

الْجُـرْحُ فِي أُمَّتِي كَمْ غَــارَ وَاأَسَفَا

وَهَلْ سَيُبْرِئُ جُـرْحَ الْأُمَّـةِ الْأَسَفُ

لا لَيْسَ يُنْقِذُهَا شَجْــبٌ وَلا أَسَـفٌ

وَلا خِطَابٌ مِنَ الْأَرْشِيـفِ يُقْتَطَفُ

فِي ثَوْرَةِ النَّقْعِ حَيْثُ الْحَرْبُ مُضْرَمَةٌ

سَيَصْدُقُ السَّيْفُ بِالتَّحْرِيرِ لا الصُّحُفُ.

وحدة الدراسات الإعلامية

الإعلام ... حقنة تحت الجلد ....

الإعلامية والكاتبة كريمة كاظم السعدي

يعد الحفاظ على الهوية الثقافية الوطنية في زمن العولمة والتطور السريع للتكنولوجيا مهمة حيوية وصعبة في الوقت نفسه، إذ إن هويتنا اليوم تواجه العديد من التحديات التي تهدد الأصول والقيم العربية والمجتمعية الأصيلة والتي تتسبب ربما في فقدان هويتنا الوطنية وابتعاد الأجيال وضعف تمسكهم بها وضياعها ، من هنا يؤدي الإعلام بوسائله الحديثة دورا مهما في تعزيز وصيانة الهوية الوطنية ومن خلال التصدي لكل الهجمات الخارجية التي تريد النيل منها من خلال النشر وتوعية الناس بضرورة التمسك بالهوية الوطنية وتعزيز قيم الهوية والأصالة العربية والقيم والعادات المجتمعية التي بقيت محافظة عليها من خلال التمسك باللغة العربية والدين.

ومن هنا تكونت لدينا ثلاث متفاعلات متبادلة التأثير فيما بينها والآخر، المهم بل والمهم جدا، أنها تسهم إسهاما مباشرا في صياغة الهوية المجتمعية .

هذه العوامل المتداخلة التأثير هي:

1-الإعلام

2-مجتمع المعرفة

3-المواطنة والتربية الوطنية

بين هذه العوامل نرى أن دور الإعلام بارز ومؤثر تأثيرا بيناً عليها، ذلك أنه يطرق أبواب المتلقين بلا استئذان، وعلى مدى الساعة نجد أنماطا مختلفة ومتغايرة من وسائط الاتصال التي يستخدمها الإعلام في بث رسالته واستهداف البيئات المستهدفة. ولعل من المفيد البيان أن رسالة الإعلام النزيه ستلاقي في وجهها كما كبيرا من وسائط إعلام مجابهة ومعارضة بل ومعادية، الأمر الذي سيعقد مهمة الإعلام النزيه من جهة، وقدرة الإعلام المعادي من جذب بعض الفئات المستهدفة وتوظيفها بعد كسبها لصالحه من جهة أخر.

من هنا تبرز الحاجة الأهم لتوظيف التربية الوطنية كمظلة وقائية تعمل بالضد من مرامي وأهداف الإعلام المعادي. ستتم كل هذه الآليات ضمن مجال مجتمع يتطور بسرعة وصولا إلى مجتمع المعرفة الذي بدأت مجتمعات غربية عديدة طرق أبوابه والتي أمعنت في الاستفادة من مخرجات ومعطيات مجتمع المعرفة وهي ما يفتح أبواب الحداثة والمعاصرة.

فتوأمة هذه العناصر الثلاثة سينتج عنها بالتأكيد آثار لوسائل الإعلام التي قد تكون قصيرة الأمد وقد تكون طويلة، وقد تبدو ظاهرة أو تكون مستترة قد تظهر بعد فترة، وقد تكون دينية، نفسية، اجتماعية، سياسية، اقتصادية... وهذه الآثار بالعموم قد تكون إيجابية وقد تكون سلبية، وقد ركّزت الأبحاث التي عملت على تأثير وسائل الإعلام على مجالات عديدة أهمها:

أ- التغيير القيمي: تعد القيم والمعارف والعقائد من مرتكزات الهوية الثقافية والحضارية لأي مجتمع، وقد كانت في السابق ضمن حدود المدارس والبيوت، أما اليوم فأصبحت من مهام وسائل الإعلام التي تؤثر أكثر من غيرها في عملية البناء أو الهدم وفي عملية الإعمار أو التخريب، فمن خلال الوسائل الإعلامية المختلفة أصبح العالم بمثابة قرية صغيرة بفعل العولمة، وأصبح من السهل هدم القيم الموجودة وبناء قيم جديدة في مجتمع ما؛ خصوصًا عندما يكون المجتمع ضعيفًا ليس له مقومات من خلال تقديمه الأفلام والمسلسلات وبرامج الكرتون للأطفال التي قد تمر عبر مسائل فكاهية عابرة لا يلتفت إليها الكثير من الناس، مما يترك أثرًا على النفوس.

ب- التغيير المعرفي: أي بمعنى تغيير الاتجاه ، لأنه يغير طبيعة إدراك الأشخاص للحياة من حولهم ويطرح أساليب مختلفة للنجاح قد لا تتفق مع الواقع والمفاهيم العربية السائدة في المجتمع مثل الاعتقادات الدينية والاجتماعية وغيرها، ولهذه الأمور تأثير مباشر على المواقف والسلوك عند الأفراد والجماعات، وتعد من أخطر المسائل وأهمها التي تعتمدها وسائل الإعلام لو أرادت السيطرة على مجتمع ما؛ لأن جذور التغيير المعرفي عميقة وإزالتها ليست بالأمر السهل، لأنها قد تنقل المجتمع من مكان إلى آخر لا يتناسب معه. وبالتالي فإن عودته إلى ما كان عليه تصبح صعبة، والبقاء حيث وصلت أمر غير ممكن.

ج- التنشئة الاجتماعية: تسعى جميع الرسائل الإعلامية المعادية إلى إزالة القيم الاجتماعية العربية الأصيلة وتثبيت أخرى، وترسيخ وضع قائم، ومنع آخر، وهذا يحدث من خلال ما تطرحه من نماذج قد لا تتوافق مع متطلبات الحياة الاجتماعية والاقتصادية العربية من خلال تقديم مواد علمية وثقافية من خلال المسرح والسينما والإذاعة المرئية والمسموعة والصحف والمجلات والإنترنت.

د- الاستثارة العاطفية: تتعمد وسائل الإعلام على استثارة مشاعر السخط والتمرد والكراهية والولاء؛ من خلال تركيزها على مشاهد العنف وإثارة الغرائز وما تطرحه من برامج وأفلام وأحداث بهدف سهولة التحكم بأفكارهم وأفعالهم على المدى البعيد، ومنذ مطلع القرن العشرين كانت للخطابات الجماهيرية دورها البارز في إثارة المشاعر نحو الحرب ودفعه للقيام بسلوكيات جديدة، وقد وصفها علماء الاجتماع بأنها (الحقنة تحت الجلد)في قدرتها للوصول لعقول البشر

هـ- الضبط الاجتماعي: إن تغيير السلوك لا يعتمد على عامل واحد، وإنما على عدة عوامل يكون نتيجة تغيير معرفي، أو نتيجة تنشئة اجتماعية طويلة الأمد، أو تغيير في الموقف والاتجاه أو نتيجة التأثر بالإعلانات وخاصة في السلوك الشرائي واتباع الموديلات المختلفة، لأنها تعمل من خلال الترويج والجذب للشخصيات الفنية أو الرياضية أو الاجتماعية، أو لموديلات وماركات لا تمت للمجتمع العربي وتقاليده والتي يتخذها الشباب قدوة في سلوكهم.

و- صياغة الواقع وإظهاره: تبرز وسائل الإعلام جوانب وتغفل جوانب أخرى من الواقع، بحيث يبدو أن ما يظهر معبرًا عن الحقيقة وواقع الحياة والمجتمع، وتحدد الصورة النمطية المواقف والأشخاص والأدوار، وقد تكون هذه الصورة مثالية غير واقعية أو فيها تضخيم لأحداث، أو تقليل من شأنها.

ومثال ذلك ما نراه اليوم من دور الإعلام في نقل ما يجري من واقع وحقيقة على أرض فلسطين ونقل الصورة الحقيقة لمجتمعنا عالميا في الوقت الذي أراد فيه الإعلام الصهيوني أن يزور الحقائق ويشتري أسهما في وكالات الأنباء العالمية من أجل تزييف الواقع ، لكن قدرة الإعلام الفلسطيني وبفضل وسائله ومنصاته الاجتماعية أن

يبرز ويقلب المعادلة لصالحه ويكشف زيف إعلامهم في قتل العديد من الأبرياء والصحفيين والأطفال الفلسطينيين .

ز– التركيز على الواقع: ويكون من خلال تزكية وتمجيد أوضاع قائمة أو أفكار سائدة في المجتمع أو نماذج وشخصيات معينة.

ح– تغيير المواقف: الإعلام له دور في تغيير رؤية الإنسان لقضية ما، أو لشخص ما أو لدين ما، أو لقيمة ما، أو لسلوك ما بحيث يتم اللعب على هذه الأوتار من المشاعر والأحاسيس، فيتعاطف الإنسان مع هذا الموقف وهذا الذي يريده المسيّر للوسائل الإعلامية سياسيًا وتربويًا واجتماعيًا واقتصاديًا... فيغيّر العدو والخصم من خلال التحريك الغرائزي وطمسه حقائق كان لها دور أساسي في مواقف الناس فالإعلام له دور كبير في تشكيل الوعي المجتمعي فهو سلاح ذو حدين فإما أن يسهم في تعزيز وترسيخ القيم والعادات المجتمعية أو أن يعمل علىهدم هذه القيم في عالمنا العربي والإسلامي. من خلال ما تعرضه وسائل الإعلام في التلفزيون والإذاعة.

لهذا يمكن القول أن لوسائل الإعلام تأثيرًا كبيرًا على فهمنا للقضايا، ومواقفنا منها وحكمنا على الأشياء، بالإضافة إلى الإستثارة العاطفية من خلال استثارة مشاعر السخط والتمرد والكراهية والولاء، من خلال التركيز على مشاهد العنف، وإثارة الغرائز كما أنها تعمل على تكريس واقع ما من خلال تزكية وتمجيد أوضاع قائمة أو أفكار سائدة أو نماذج وشخصيات معينة .

وحدة الدراسات النفسية

التحليل النفسي لكرب ما بعد الصدمة لدى أطفال غزة

"دراسة إكلينيكية متعمقة"

د. محمد أحمد محمود خطاب

مقدمة الدراسة

إن ضغوط الحياة وأحداثها الحرجة هي من طبيعة الوجود الإنساني، وركن أساسي من أركان الحياة بجوانبها الموجبة والسالبة، ولا تخلو الحياة منها، وتزداد الضغوط كمًا وكيفاً مع تعقد الحضارة وتسارع إيقاع العصر وتحدياته.

وعلى الرغم من تنوع الأحداث الصدمية التي قد يتعرض لها الفرد، إلا أن الحروب تبقى من أقوى تلك الأحداث؛ نظراً لسرعتها وحدتها وحجم الدمار المادي والاجتماعي والنفسي الذي تتركه، إضافة إلى أنها من صنع البشر.

لذا فقد فرضت الآثار المروعة الحروب على الأفراد والمجتمعات الاهتمام ببحث المشكلات الناجمة عن الخبرات الصادمة، التي يتعرض لها الأطفال والمراهقون بدءًا من برنامج بحوث الأمم المتحدة في عام 1948 برئاسة "جون بولبي" عن تأثير صدمات الحرب العالمية الثانية على الأطفال اليتامى الذين فقدوا والديهم في الحرب، إلى توالي الدراسات التي تناولت تأثير حروب ونزاعات أخرى في مناطق عديدة من العالم. من هنا تظهر المراجعة الواسعة للأدبيات المتوافرة حول تجارب الأطفال في أثناء الحرب العالمية الثانية والحروب والنزاعات الحديثة تنوع تلك الخبرات، والواقع أن ذلك إلى نقص نمو مهارات مواجهة الضغوط وآليات الدفاع بوصفها أساليب للتوافق مع المواقف الضاغطة ونتائجها، بالإضافة إلى طبيعة الطفولة ذاتها ومشكلات النمو عند الأطفال، الأمر الذي يجعلهم أكثر استعدادًا للتأثر بتلك الأحداث.

ويرى بعض الباحثين أن القصف المدفعي والصاروخي والأجلاء عن المكان وتقطع أوصال العائلة- وهو ما يتعرف له بالفعل الأطفال في قطاع غزة- هي أحداث ضاغطة غالباً ما تؤدي إلى ظهور استجابات اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة عند الأطفال ، بل قد يتطور الأمر إلى أن يعاني الأطفال خاصة من أشكال كثيرة من

الاضطرابات تتعلق بالوظائف المعرفية، والانفعالية، والاجتماعية والعلاقات المتبادلة مع الآخرين.

بل نجد أن الأمر يتعدى لما أبعد من ذلك كما يشير كل من [Foy, 1992] و[Sipprella, 1992]، حيث نجد أن أسرة الطفل المصاب بالصدمة النفسية تشاركه في معاناته منها، إذ تظهر بعض أعراضها على بعض أعضائها بصورة مباشرة وأحيانًا بصورة غير مباشرة.

لذا فالبحث في هذا الموضوع لدى هذه الشريحة العمرية أمر ضروري، لاسيما أن الصدمات تشكل إعاقة في النمو على مختلف الأصعدة، ودراسته تكتسب أهمية بالغة للتعرف على الصحة النفسية لهؤلاء الأطفال، وهو أمر ضروري أيضاً، لاسيما وأن مستقبل البلاد وبناء المجتمع وتطويره منوط بالأدوار التي يقوم بها هؤلاء الأطفال. ولهذا فإن أي عملية تنموية تتجاهل الإنسان عموماً، والطفل على وجه الخصوص، فهذا يعني أنها مقضي عليها بالفشل، وهذا ما نلاحظه في أن الطفل الذي يعاني من اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة يشقى نفسه ومجتمعه أيضًا، ولذا فإن المجتمع نفسه يخسر مرتين، الأولى: يخسر هؤلاء الأطفال كطاقة فعالة ومنتجة، والثانية: عندما يتكلف المجتمع علاج هؤلاء الأطفال في مؤسسات ومصحات علاجية، ومن هنا جاءت أهمية الدراسة الحالية من خلال الوقوف على أهم الديناميات الخاصة باضطراب ضغوط ما بعد الصدمة لدى الأطفال.

مشكلة الدراسة

لقد شهد النصف الثاني من القرن الماضي ومطلع القرن الواحد والعشرين عشرات الحالات من الحروب والنزاعات المسلحة سواء على المستوى المحلي أو الإقليمي أو الدولي. ولقد تبين أن هذه الحروب والنزاعات تؤدي إلى اضطرابات نفسية عند الذين يتعرضون لها، وخاصة أن هذه الاضطرابات قد تستمر لسنوات طوال.

وهو ما نؤكده أيضاً في أنه وعلى الرغم من تنوع الأحداث التي قد يتعرض لها الفرد فإن الحروب تبقى من أقوى تلك الأحداث؛ نظراً لسرعتها وحدتها وحجم الدمار المادي والاجتماعي والنفسي الذي تتركه، إضافة إلى أنها من صنع البشر.

فتعرض الإنسان لخطر مفاجئ أو رؤية مشهد مفزع أو سماع خبر مفجع، تتسبب في حدوث صدمة نفسية له تعرف بـ"Trauma"، وهي حالة من الضغط النفسي ذي المصدر الخارجي تتجاوز قدرة الإنسان على التحمل والعودة إلى حالة التوازن الدائم بعدها.

وفي هذا تشير كل من [Malmquist, 1986]، [Isparqvik, 1993] إلى توافر دلائل قوية على أن التعرض لصدمات الحرب يفجر اضطراب الضغوط التالية للصدمة عند الأطفال، في حين أن الفقدان تتبعه ردود فعل الأسى والحزن؛ ولهذا فإن مواقف الحرب تنطوي على تأثير تراكمي بسبب ما يميز الحروب خاصة من صدمات متعددة، كما تتباين المشكلات والاضطرابات وأعراضها عند الأطفال الذين شاهدوا الوالدين أو أحدهما أو أعضاء في الأسرة وهم يقتلون أو يعذبون. وهو ما أكدته دراسة [Qouta and Sarraj, 1994] في أن أكثر أنواع الصدمات التي تعرض لها أطفال قطاع غزة بفلسطين كانت مجالس العزاء بنسبة 94.6%، ومشاهدة القتلا بنسبة 83.2%، ورؤية جريح أو قتيل بنسبة 66.9%، ورؤية أحد أفراد العائلة ميتاً أو جريحاً بنسبة 61.6%، وبالإضافة إلى ما سبق فإن هذه المشكلات والاضطرابات وما تأخذه من مظاهر وأعراض تمتد إلى الجوانب الإدراكية والمعرفية والخيالية والانفعالية والسلوكية والاجتماعية من حياة الطفل.

والواقع أن تأثير التجارب القاسية والأحداث الصدمية على الأطفال قد يفوق تأثيرها على الكبار، ويرجع ذلك إلى نقص نمو مهارات مواجهة الضغوط وآليات الدفاع بوصفها أساليب للتوافق مع المواقف الضاغطة ونتائجها، وكذلك إلى طبيعة الطفولة ذاتها، فالطفولة "فترة حساسة" أو مرحلة "حرجة" بقدر ما هي فترة من التغييرات والتحولات الجذرية التي تنطوي على صعوبات ومشكلات تجعل الأطفال أكثر استهدافاً لاضطراب التوازن، ولنقص التوافق مع صعوبات أو مشكلات النمو عند الأطفال، الأمر الذي يجعلهم أكثر استعداداً للتأثر بتلك الأحداث، وذلك ما يعبر عنه إريكسون "Eriskson, 1959" بـ"الأزمة المحتملة" Potential Crises عند الأطفال.

وهو ما يؤكده أيضاً [بشير الرشيدي وآخرون، 2001: 170] في أن التعرض لخبرات صادمة شديدة قد يؤدي إلى الإصابة باضطراب ضغوط ما بعد الصدمة لدى حولي

أكثر من نصف جموع الأشخاص الذين خبروا الصدمة، فإن ذلك يفترض أن ثمة عوامل وأسباب أخرى قد تساهم في تطور هذا الاضطراب ودرجة شدته وأزماته.

وهذا ما يجعلنا نؤكد أنه قد لا نجد أمثلة في المرض النفسي الحاد أكثر مأساوية من اضطراب الضغوط التالية للصدمة الناجم عن الحروب، والتي يمكن أن تستمر فيه العواقب الانفعالية لهذا الاضطراب مدى الحياة.

ومن ثم تتحدد مشكلة الدراسة في محاولة الإجابة عن التساؤلات الآتية:

- ما أهم المتغيرات النفسية والاجتماعية والبيئية والأسرية لهؤلاء الأطفال ممن يعانون من اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة؟
- ما طبيعة البناء النفسي لدى الطفل ممن يعاني من اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة؟
- ما طبيعة الدوافع الشعورية واللاشعورية واتي تكمن وراء اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة لدى الأطفال؟
- ما طبيعة العمليات أو الميكانيزمات الدفاعية لمنظمة الأنا؟
- ما طبيعة الصراع السيكودينامي لدى الطفل ممن يعاني من اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة؟

أهمية الدراسة

تستمد أي دراسة أهميتها من ارتكازها على محورين أساسيين هما:

المحور الأول: وهو ما يتعلق بحيوية الموضوع أو الظاهرة التي يتم التعامل معها، وهو ما نتعامل معه بالفعل في هذه الدراسة ألا وهو اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة لدى الأطفال، والتي تؤرق كل من الطفل والأسرة والمجتمع هذا من جانب، ومن جانب آخر يتراوح انتشار اضطرابات ضغوط ما بعد الصدمة عالمياً ما بين 1–14%. أما إذا أخذنا في حسابنا التنوع في طرق القياس والتقويم في العينات المأخوذة من المجتمع، سنجد أن المعرضين لخطر اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة يكشف عن معدلات تتراوح ما بين 3/58%.

أما المحور الثاني: فهو خاص بالشريحة الإنسانية أو العينة التي تجرى عليها الدراسة ألا وهم الأطفال من سن 9: 12 سنة، وخاصة أن هذه المرحلة من العمر، هي مرحلة نمو وتبلور للأنا الأعلى، فهي مرحلة تنشأ أثناءها توازناً صحيحاً بين ميول الطفل الداخلية ومطالب الثقافة وخاصة أن الطفل في هذه المرحلة من العمر يدرك هذا بذكائه الفطري، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن هذه المرحلة من العمر من المراحل الهامة في حياة الطفل، والتي تتميز بالانطلاق والاستقلالية وتأكيد الذات، ولهذا كان لابد من الاهتمام بها من أجل نمو نفسي سليم، ودراسة المشكلات والصراعات والاضطرابات التي يتعرض لها الطفل وخصوصاً اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة، وخاصة أن الأحداث الصدمية وكما يشير [Harkenss, 1993] تؤثر في المجتمع والأسرة والفرد بطرق كثيرة، وبشكل مباشر وغير مباشر، وقد ينتقل أثرها إلى أفراد الأسرة، وعبر الأجيال، وقد تطال هذه التغيرات الحياة الأسرية بل والعلاقات التفاعلية بين أفرادها.

لذا فالبحث في هذا الموضوع لدى هذه الشريحة العمرية أمر ضروري، لاسيما أن الصدمات تشكل إعاقة في النمو على مختلف الأصعدة، ودراسته تكتسي أهمية بالغة للتعرف على الصحة النفسية لهؤلاء الأطفال، وهو أمر ضروري لاسيما وأن مستقبل البلاد وبناء المجتمع وتطويره منوط بالأدوار التي يقوم بها هؤلاء الأطفال فيما بعد.

لهذا كان من الضروري التصدي لهذه الظاهرة بالدراسة والفهم والتحليل لأبعادها وجوانبها والوقوف على أهم الأسباب الكامنة وراءها، الأمر الذي يؤدي إلى إثراء التراث النظري لمضطربي ضغوط ما بعد الصدمة، وذلك من وجهة النظر الدينامية وتطويع ذلك فيما بعد لتدعيم البرامج الإرشادية والعلاجية لهؤلاء الأطفال.

أهداف الدراسة

تهدف الدراسة الحالية إلى محاولة إلقاء الضوء على ظاهرة اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة لدى الأطفال من وجهة النظر التحليلية النفسية للوصول للعلة الحقيقية التي تكمن وراء انتشارها وبشكل متزايد، وذلك من خلال ما يلي:

- التعرف على البناء النفسي للأطفال الذين يعانون من اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة.
- تحديد أهم العناصر التي ينبغي التركيز عليها عند تصميم البرامج الإرشادية والعلاجية والتي تهدف إلى التقليل أو التخفيف من أعراض اضطراب الضغوط التي تلي للصدمة والمشكلات السلوكية والنفسية الناتجة عنها.

مصطلحات الدراسة:

الحدث الصدمي Traumatic Event

تعد الصدمة النفسية معايشة الفرد لخبرة الحدث أو مشاهدته أو مواجهته، وهذا الحدث يتضمن موتاً أو أذىً حقيقياً أو تهديداً للفرد أو لأشخاص آخرين، مع حدوث رد فعل فوري وقوي من الشعور بالخوف الشديد، أو العجز أو الهلع.

إذًا فهو موقف غير عادي وظرف شاذ لم يعتد عليه الإنسان، ويتسم بالقوة والشدة وإمكانية تهديد حياة الإنسان أو ذويه أو ممتلكاته، ويعمل هذا الحدث الصادم عمل المنبه الضاغط ويترتب عليه تأثيرات سلبية وأعراض مرضية.

في حين أن الجمعية الأمريكية للطب النفسي عادت مرة أخرى تعرف الضغوط الصادمة بأنها: "تتضمن معاناة، ومشاهدة، ومواجهة أحداث تتضمن موتاً فعلياً أو تهديداً بالموت أو إصابة خطيرة أو تهديداً جسدياً للذات أو للآخرين.

ومع ذلك فليس كل شخص يتعرض لصدمة نفسية يعاني من اضطرابات الضغوط التالية لها، لأن ذلك يتوقف على عدة عوامل منها ما يلي:

- نوع الصدمة نفسها.
- حدة الصدمة وشدتها.
- المكان الذي حدثت فيه الصدمة.
- الزمان الذي وقعت فيه الصدمة.
- السمات الشخصية للفرد.

اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة

Post- Traumatic Stress Disorder PTSD

حددت منظمة الصحة العالمية (W.H.O) اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة في التصنيف الدولي العاشر (ICD-10) بأنه: "استجابة مرجأة أو ممتدة لحدث أو موقف ضاغط (مستمر لفترة قصيرة أو طويلة)، ويتصف بأنه ذو طبيعة مهددة أو فاجعة، ويحتمل أن يتسبب في حدوث ضيق أو آسى شديدين غالباً لدى أي فرد يتعرض له مثل: الموت العنيف لأشخاص آخرين، أو أن يكون الفرد ضحية للتعذيب أو الإرهاب أو الاغتصاب، أو غير ذلك من الجرائم".

وفي ضوء التعريف السابق يبرز عاملان مهمان أيضاً وهما:

العامل الأول: هو التمييز بين حادثة الصدمة والحادثة الضاغطة. فحادثة الصدمة بحكم كثافتها وطبيعتها تخلق الحزن في نفوس معظم الأطفال الذين يتعرضون لها بغض النظر عن عوامل الضعف لدى الأطفال أو موارد التكيف المتوافرة لديهم، حيث يشكل اضطراب ما بعد الصدمة عاملاً مهماً في حدوث اضطرابات نفسية معقدة عند الأطفال قد تستمر حتى سن الرشد.

العامل الثاني: يتمثل في النظر إلى رد فعل أو استجابة الأطفال لتجربة الصدمة على أنه رد فعل عام يشملهم جميعاً، ورغم تباين الشكل الذي تظهر عليه عوارض رد الفعل بحسب سن الطفل وطبيعة الصدمة، فإن الملامح أو المظاهر العامة لرد فعل ما بعد الصدمة تتشابه أو تكون هي ذاتها عند جميع الأطفال.

ومن أحد الاعتبارات المهمة أيضاً في فحص وعلاج اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة هو ما إذا كان الحدث الضاغط المولد لهذه الصدمة من النمط الأول أم من النمط الثاني.

وباختصار فإن الصدمة من النمط الأول Type I Traumatic Events هي حدث صادم منفرد غير متوقع يحدث لمدة محددة مثل: حدوث فردي للاغتصاب، اعتداء

جسدي، رصاص قناص، خطر طبيعي أو حادث صناعي، وهي التي يحتمل التحسن فيها سريعاً.

وفي المقابل فإن صدمات النمط الثاني Type II أطول بقاءً في طبيعتها، وتشمل سلسلة من الأحداث الصادمة المتكررة والمتوقعة، مثل: اعتداء جسدي أو جنسي مستمر في مرحلة الطفولة، والذي يؤدي إلى نظرة تخطيطية سلبية متغيرة للذات والعالم.

وتتطور صدمات النمط الثاني بشكل متكرر إلى استجابة مركبة ومزمنة لاضطراب ضغوط ما بعد الصدمة، ترتبط بحالات طبية نفسية أخرى وتشمل معدلات أعلى من تعاطي المواد النفسية Substance Abuse، اضطرابات الأكل، اضطرابات المزاج، اضطرابات القلق والاكتئاب، اضطرابات الهلع، مشكلات مزمنة في العلاقات، واختلالات طويلة مميزة تظهر في شكل عدم ثبات انفعالي Emotional Lability، وسلوكيات مسيئة للذات، والمحاولات الانتحارية.

المحكات التشخيصية لاضطراب ضغوط ما بعد الصدمة:

حدد الدليل الإحصائي والتشخيصي للاضطرابات النفسية الرابع (DSM–IV) الصادر عن الجمعية النفسية الأمريكية المحكات التشخيصية لاضطرابات ما بعد الصدمة كما يلي:

أ- أن يكون الشخص قد تعرض لحدث صدمي عاشه على النحو التالي:

أ/1- أن يكون قد جرب أو شاهد أو واجه حدثاً أو أكثر من الموت الفعلي والتهديدية، أو تهديد التكامل العضوي (الجسدي) له وللآخرين.

أ/2- أن يستجيب لهذا الحدث بخوف شديد أو رعب أو عجز (وفي حالة الأطفال قد يظهر على الطفل سلوك مضطرب أو متهيج).

ب- يستعيد الفرد الحدث الصدمي بشكل إقحامي ومتكرر في واحد أو أكثر مما يلي:

ب/1- ظهور ذكريات أليمة تبدو على شكل صور أو تخييلات أو أفكار أو إدراكات ترتبط بالحدث الصدمي (في حالة الأطفال يظهر لديهم نوع من اللعب التكراري يرتبط

موضوعه بالحدث الصدمي).

ب/2- ظهور الحدث الصدمي أو أجزاء منه في الأحلام بشكل مؤلم ومتكرر. (في حالة الأطفال تكون أحلامهم مفزعة دون أن يستطيعوا تحديد مضمونها).

ب/3- يتصرف الشخص أو يشعر كما لو أن الحدث الصدمي يحدث مرة أخرى. (في حالة الأطفال قد تظهر في سلوكياتهم أجزاء محددة من الحدث الصدمي).

ب/4- شعور الشخص بالضيق والارتباك عند التعرض لإشارات أو رموز داخلية أو خارجية ترتبط بالحدث الصدمي بشكل عام.

ب/5- تظهر لدى الشخص استجابات أو ردود أفعال فسيولوجية عند التعرض لهذه الرموز أو الإشارات.

جـ- تجنب دائم للمنبهات أو للمثيرات المرتبطة بالحدث الصدمي مع حذر للاستجابة العامة ويظهر ذلك في ثلاثة على الأقل مما يلي:

ج/1- يبذل الشخص جهداً في تجنب الأفكار أو المشاعر أو الأحاديث المرتبطة بالصدمة.

ج/2- يبذل الشخص جهداً في تجنب الأشخاص والأماكن والأنشطة المرتبطة بالصدمة.

ج/3- عدم تذكر أو نسيان أجزاء مهمة من الحدث الصدمي.

ج/4- الشعور بالعزلة عن الآخرين أو النفور منهم.

ج/5- ضيق مساحة الوجدان (العواطف) لديه مثل: ضعف أو عدم امتلاكه مشاعر الحب.

ج/6- نقص واضح في الاهتمام بالأنشطة المهمة أو المشاركة فيها مع تناقص ملحوظ في الميول أو الاهتمامات.

ج/7- الشعور بأن المستقبل محدود وغير واعد (كتوقع الفرد ألا تكون له مهنة، وألا يتزوج، أو ألا يعيش العمر الطبيعي).

د- وجود أعراض مستمرة في التنبيه أو الاستثارة الزائدة تظهر في اثنين على الأقل مما يلي:

د/1- صعوبة الولوج في النوم أو الاستمرار (الاستغراق) فيه.

د/2- التهيج أو انفجارات الغضب.

د/3- صعوبة التركيز.

د/4- فرط التيقظ.

د/5- استجابات رعب مبالغ فيها.

هـ- وتستمر هذه الأعراض في (ب-ج-د) مدة أكثر من شهر.

و- كما يسبب الاضطراب تأذياً واضحاً في الوظيفة المهنية والاجتماعية للفرد.

ز- ويكون الاضطراب حاداً إذا استمرت الأعراض أقل من (3) أشهر، ومزمناً إذا استمرت الأعراض (3) أشهر، ومؤجلاً إذا بدأت الأعراض بعد (6) أشهر على الأقل من الحادث الصدمي.

عينة الدراسة

تكونت عينة الدراسة من (4) أطفال مقسمين إلى ثلاثة ذكور، وأنثى واحدة فقط، في المدى العمري من سن 9: 12 عاماً، وممن يقعون في مرحلة التعليم الابتدائي، وممن يقعون في مستوى اقتصادي واجتماعي وثقافي متوسط، وممن لا يعانون من أي إعاقات حسية أو حركية أو تعليمية. وبما أن هدف الدراسة هو التعرف على ديناميات اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة لدى هؤلاء الأطفال.

مناقشة وتفسير نتائج الدراسة

- **ديناميات اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة**

من ملاحظات فرويد (1964- 1937- 1939) عن المحاربين القدامى الذين أصيبوا بالصدمة خلال الحرب العالمية الأولى، أشار إلى اثنين من الخصائص الكبرى التي تعرّفها العلماء الآن من خصائص اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة هما التكرار (إعادة التجربة)، والإنكار أو التجنب.

وهو ما ظهر جلياً سواء في المقابلة الإكلينيكية واختبار رسم الأسرة المتحركة، واختبار التات T.A.T في أن التكرار والإنكار كانتا من الخصائص المميزة لدى الأطفال ممن يعانون من اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة.

حيث تدل آلية التكرار أو بعبارة أفضل إجبار التكرار على الميل إلى تكرار الخبرات القوية، أياً كانت النتائج المفيدة أو الضارة لهذا التكرار، وقد أدرك "فرويد" منذ بداية عمله في التحليل النفسي أهمية ظواهر التكرار التي تنتمي إليها مفاهيم عدة (التثبيت- النكوص- التحويل) ولكنه لم يعتبرها مبدأ للوظائف النفسية يعمل "فيما وراء مبدأ اللذة" إلا بعد عام 1920. ويستمد الوقائع النفسية التي يستند إليها بصفة رئيسية من الأمراض العصابية الناجمة عن الصدمات ومن لعب الأطفال، ومن عصاب القدر (تكرار نفس الحوادث المؤلمة في الحياة) ومن التحويل. ويمكن رد بعض ظواهر التكرار هذه إلى مبدأ اللذة، فمثلاً في عصاب الصدمة وفي الحياة، يحتمل أن يكون معنى التكرار هو السيطرة على خبرة مؤلمة.

ومع ذلك يبقى أمامنا شيء آخر: فإن الخبرات المؤلمة، وسلوك عدم التكيف، تتكرر على وتيرة مفجعة، وهذا التكرار ينتهي بصاحبه إلى الفشل، ويخلف جراحاً في عزة النفس، والأمر المثير للدهشة في عمليات التكرار العصابية، هو بقاء السلوك غير الملائم للواقع والحاضر، أي إخفاق مبدأ الواقع، وعجز التفكير الرمزي الذي يستطيع دون سواه أن يحطم التكرار الجبري بتقدير النتائج البعيدة للسلوك، وبالنظر إلى الأمور من كل، وعلى النقيض يعبر التكرار الجبري عن اعتماد الكائن الحي على الحاجات الغريزية والانفعالات التي يستشعرها في الوقت الحاضر بصدد بعض النتائج المتوقعة للسلوك.

وبعبارة أخرى إن عمليات السلوك التي توصف بأنها عمليات تكرار إجباري تتسم بنفس سمات العمليات الأولية الاشعورية الصادرة عن مبدأ اللذة من حيث هو متمايز عن مبدأ الواقع، وشرط هذه العمليات هو ضعف الأنا وعجزه عن التحرر منها

أما العرض الثالث من أعراض اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة هو الأحلام أو الكوابيس المزعجة، فغالباً ما تكون الكوابيس تكراراً دقيقاً لخبرة الصدمة، أو للصدمة السابقة، وللذكريات التي أثارتها حادثة جديدة، ويتصف استرجاع الأحداث بالاستثارة

الانفعالية والجسمية القوية، والتي قد يشعر الفرد خلالها بعدم القدرة على الحركة وعدم الوعي بما يحيط به في لحظتها. ويمكن أن توصف بأنها "كوابيس اليقظة" وغالباً ما يستطيع مثير مرتبط بالصدمة أن ينشط أو يثير استرجاع الأحداث، حتى وإن كانت صلته بالخبرة الصادمة غير واضحة.

ولذا فإن الأحلام المزعجة ما هي إلا محاولات لاستعادة الطفل توازنه النفسي برغم الألم الذي تسببه له ، وقيل إن هذه الأحلام هي وسيلته لامتصاص الخبرة الصادمة، ومعاودة معايشة التجربة، ليتسنى له في النهاية استيعابها وتجاوزها والسيطرة على الموقف الذي كان السبب فيها، وإن كانت هذه السيطرة تأتي متأخرة.

ولهذا فعندما تواجه المرء محنة أو أزمة أكبر من قدرته على الاحتمال يصيبه منها الانهيار، وتتوقف قدرته على الاحتمال على حالته الصحية والجسمية والنفسية وكفاءة دفاعاته النفسية وعلاقة المحنة بصراعاته السابقة والحالية. وقد يتطلب منه التكيف معها وقتاً أكبر يستطيع خلاله استنفار قدراته وشحذ دفاعاته، فإذا حدث ولم يستطع أن يساير الأزمة ويتغلب عليها لأنها أكبر من احتماله- وخاصة مع هؤلاء الأطفال الصغار- أو لأنها استنفذت طاقته كلها دون جدوى، فإن آثار استنفاذ طاقته تظهر عليه في شكل اضطرابات تسبقها إرهاصات تنذر بها وتدل عليها، فيجافيه النوم ويبدو عليه التعب والإرهاق والانفعال للأصوات المفاجئة، وقد يستجيب بالخوف من كل شيء أو الاستهانة بأي شيء، فإذا لم يعالج فقد يستفحل ما به ويزمن وتكون الأعراض الواضحة لعصاب اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة، فتأتيه الأحلام المزعجة التي يتكرر بها موضوع محنته، ويفزع أو يغضب لأقل استثارة، وقد يعنف ويعتدى، ويفقد مهاراته، وتتضاءل قدراته، ولا يهتم بشيء وتتقاعس همته، وقد تكون هناك أعراض أخرى خاصة مثل: الإصابة بتقلصات وتشنجات عضلية أو نوبات شبه صرعية، وقد يكرر مشاهد مما مر به من مراحل أزمة، وليس حالة التيقظ والحذر والانفعالية العالية العدوانية والأرق إلا استجابات ضد الخطر المحدق، وليس التعب والوهن إلا لأن المريض قد استنفذ طاقته على المقاومة.

وهو ما تم تبينه بالفعل سواء من خلال المقابلة الإكلينيكية أو من خلال اختبار رسم الأسرة المتحركة، أو اختبار تفهم الموضوع "التات".

- **إدراك الواقع وطبيعته المضطربة لدى الأطفال**

تبين من نتائج الدراسة أن هؤلاء الأطفال ينظرون للعالم الخارجي بطريقة ذاتية وشخصية بعيدة عن الواقع، وهو ما ظهر في الاستجابات المتكررة والخاصة بالتمركز حول الذات، وهذا راجع إلى التخييلات الميكانيزمات البدائية، والنكوص وذلك وفقاً لمبدأ العمليات الأولية وإنكار مبدأ الوقع والبعد عنه نتيجة ضعف الارتباط به لكونه واقع محبط ومهدد وغير آمن، وهو ما جعل الطفل يهرب منه بالتخييلات والانطواء والانزواء وعدم الاختلاط بالآخرين، بالإضافة إلى القلق الساحق لدى هؤلاء الأطفال وتنازل الذات عن دورها في إدراك الواقع فصمت الذات عن العالم الخارجي واستنزاف الأنا لمعظم طاقاتها أمام هذا الإعصار من التخييلات فنتج عن ذلك قصور في إدراك الواقع ومحاولة السيطرة عليها بالتفكير الميتافيزيقي، وتوهم القدرة المطلقة، والحلول السحرية، وبالإشباع الهلوسي للاحتياجات، أو الانسحاب، أو بالعزلة، كما تبين أيضاً ان عدم الرضا عن الواقع يفسح الطريق أمام التعبير عن رغباته وحفزاته الغريزية، وضعف القدرة على الانتباه نتيجة ما يعاني منه من صراعات داخلية تستنفذ قدراته النفسية والذهنية وعدم قيام الأنا بوظائفها على نحو سوي.

ولوحظ في استجابات التات أيضاً مظاهر استجابية اكتئابية وهو ما يعكس واقع محبط ومؤلم ومهدد وغير آمن بالإضافة إلى سوء المصير الذي يتهدده دائماً بالتعرض للأذى أو للإصابة أو للاستشهاد سواء بالنسبة له أو للآخرين، كما أن الطابع الاكتئابي كان يتجلى فيما يعرب عنه الأطفال من أحاسيس بالغة التعاسة والشعور بالقلق وبالضياع بالإضافة إلى النبذ والإهمال وما يبدو من سوء العاقبة.

صورة الذات

تتسم صورة الذات لدى الطفل بأنها سلبية غير ناضجة وغير كفء وسيادة المشاعر الاكتئابية من مشاعر فقدان تقدير الذات [حيث سادت مشاعر الدونية] والإحساس بالوحدة والعزلة والإحباط والعجز والضآلة مع فقدان الأمن والأمان والحماية والاستقرار.

فالصدمة تستدعي صوراً سلبية عن الذات لدى الطفل حيث يرى نفسه أنه ضعيف وعاجز وخائف وغير قادر على مواجهة قوى تتجاوز قدرتها على التحكم فيها، وهذا

الإدراك بالعجز يعمل على تشويه صورة الذات لديه، وهو في حد ذاته كافٍ للقضاء على الشعور بالأمن والسلامة، ويضاعف من ذلك ضعف شبكات المساندة الاجتماعية وخاصة من الأهل ومن الأقارب وهو ما يؤدي بدوره إلى سوء التكيف والتوافق مع ذاته، أو مع الآخرين وهو ما يدفعه إلى الانسحاب والعزلة، وهذا ما ظهر واضحاً في الميكانيزمات الدفاعية المستخدمةن من قبل الطفل المصدوم مثل الإنكار والكبت والتجنب، وهي ميكانيزمات دفاعية تجنبية وترتبط باضطراب ضغوط ما بعد الصدمة.

توصيات الدراسة

- بعد انتشار الاضطرابات في الدول العربية نتيجة الحروب أو الثورات وخاصة منذ بداية عام 2011، وبعد ما يسمى بثورات الربيع العربي ضرورة إجراء مسحي حول معدل انتشار اضطراب P.T.S.D سواء لدى الأطفال أو الراشدين حتى يمكن مواجهتها على النحو الأمثل.
- تزويد الأسر من قبل الإخصائيين أو المرشدين النفسيين بمعلومات عن أساليب التعامل مع الضغوط من خلال برامج أو محاضرات إرشادية وقائية لمساعدتهم على تقديم الدعم والسند النفسي لأطفالهم ممن يعانون هذا الاضطراب.
- ضرورة تفعيل دور كل طبيب أسرة وأخصائي نفسي واجتماعي في المدارس لاكتشاف المشكلات في مهدها وتشخيصها بشكل سليم، والتعامل معها على النحو الأمثل حتى لا تتفاقم المشكلة مما يصعب علاجها فيما بعد.
- كما يوصي الباحث بزيادة الجهد الأكبر للبحوث والدراسات التي تتناول الأطفال واضطراباتهم النفسية والسلوكية من الناحية التحليلية والتفسيرية والدينامية لفهم نوازعهم واحتياجاتهم، ومن ثم المساعدة في وضع برامج إرشادية وعلاجية قائمة على أساس علمي سليم.
- ويوصي الباحث أيضا بضرورة الاستفادة من نتائج هذه الدراسة في التعامل مع مشكلات الأطفال المتأثرين بالأحداث الصارمة من خلال إعداد برامج إرشادية داعمة لهؤلاء الأطفال وتدريبهم على أساليب ومهارات التعامل الفعال عند تعرضهم لمواقف ضاغطة.

وحدة الدراسات الحضارية علم الأديان

الإذن للمظلوم والوعد بالنصر!! مأزق توظيف الآيات في الحروب

د. سعد كموني

يشكل توظيف الآيات القرآنية ظاهرةً بارزة في الإعداد للحروب، أو في تسويغها وتسويغ آثارها المدمرة، ومن عادة الناس أن يسكتوا عن أي موقف ممكن إذا ما سمعوا داعية الحرب أو الذي يباركها قد رفع صوته بآية كريمة فلا يناقشون ولا يستفهمون، وكأنما جيء بالآية لاستتباع الناس وتعطيل أسئلتهم، فهناك من يعتمد على الله وعلى كتابه في تسديد خطاه.

ومن أكثر الآيات التي رفعت في هذه المعمعة العصيبة هي:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ﴾ [الحج ٣٩]

فأردت أن أتحسس هذه الآية بمسبار لغوي لأرى هل هي فتوى للمغامرة فعلاً ، أم أنها دعوةٌ للتعقل والتأسيس العقلاني في مواجهة الحمية الجاهلية؟

وبإزاء هذه الإشكالية، عمدت إلى النظر في هذه الآية الكريمة بهدف الكشف عن مكوناتها اللغوية بصيغها الصرفية والتركيبية للوقوف على دلالاتها بحسب مرجعيات علم البيان في اللسان العربي المبين.

1. المبني للمفعول ودلالته

يشكّل الفعل المبني للمفعول في هذه الآية علامة لافتة، تدفع المتلقّي إلى التفكير بالفاعل المجهول والسؤال في علة تجهيله؛ فقد تكررت الصيغة ثلاث مراتٍ متتاليات، ما يؤكد أن الصيغة مقصودة الدلالة.

لأفعال هي: أُذِنَ/ يُقاتَلون/ ظُلِموا. من الذي يأذن؟ من الذي يقاتِل؟ من الذي ظلَم؟ صحيح أن اعتماد الصيغة للمفعول يراد منها صرف الذهن إلى الاهتمام بالمفعول

وليس بالفاعل؛ إلّا أنّ هذه الصيغة نفسها تجعل المفعول نائباً عن الفاعل، وهذا لا يحولُ دون السؤال عن الفاعل، وعن الضرورة التي أملت تجهيله.

(أُذِنَ)، لا توحي بأن الفعل لم يكن وكان، مع أن الإخبار بالجملة الفعلية يدلّ على الحدوث والتجدد، ما يعني أنه أقلّ إثباتًا للدلالة من الإخبار بالجملة الاسمية. إلا أن الثابت أيضاً أن الإخبار بالفعل بصيغة الماضي يدلّ أنَّ مضمون الفعل مؤكّدُ الحصول لا نقاش فيه، فإذا قلنا: "كَتب زيد"، فهذا إخبار مؤكّد، ولكنه يعني أن زيدا لم يكن يكتب وكتب. أما قولنا: "زيدٌ كاتب" فهذا يعني أن الكتابة شأن ثابتٌ لزيد. أما قولنا: إنّ الفعل "**أُذن**" لا يوحي بأنه لم يكن وكان، فنقصد أنّه شأن ملازم للعلاقات بين الأفراد، وبين الأفراد والجماعات، وبلا شك، هذا الشأن ثابتٌ ثبوت العلاقات الإنسانية، تأسيساً على القانون الطبيعي الذي يشكل مرجعية الفعل ورد الفعل، أو التحدّي والاستجابة.

الإذن في هذا السياق يسوّغه نظام العلاقات بين الأفراد في المجتمع الواحد، أو نظام العلاقات بين المجتمعات، فالذين يقاتَلون من حقهم دفعُ الأذى عن أنفسهم، هذا ما تقرره النظم الاجتماعية، وبمختلف الوسائل والسبل، سواء كان بالمقاتلة أو بالمفاوضات لصناعة السلام واسترداد الحق، أو بالعفو. ويعود تعيين الوسيلة والسبيل إلى طبيعة الظروف وإلى طبيعةِ القرب أو البعد من الذين يقاتِلون، وإلى طبيعةِ الثقافة الحِكمية التي تحتاجها الأزمات في أوقات حدّتها.

الفاعل المُفترض للفعل "**أُذن**" هو "النظم الاجتماعية، أو الأنظمة التي ترعى العلاقات بين الأفراد أو الجماعات، فهي التي تأذن للمعتدى عليه أن يتعامل مع العدوان كما ينبغي. وتجهيل الفاعل هنا يدخله في الشيوع، إذ يحتمل أن يكون الفاعل هو الله سبحانه وتعالى، كما يحتمل أن يكون النظم الاجتماعية، أو سنن العلاقات بين الأفراد والجماعات، أو القانون الطبيعي، أو الحاكم، أو القوانين الوضعية أو ظروف المرحلة أو..... . وألا يُسمّى الفاعل؛ فلك أن ترجّح؛ لأن النص بذلك يوجه المتلقين إلى فهم الموجب للسلوك بإزاء الأزمات، فكان النص على الترخيص /الإذن، مرجعيةً للسلوك.

"**أُذن**" إخبار ابتدائي، ومن عادة الخبر الابتدائي أن يزوّد المتلقي بمضمونٍ يخلو ذهنه منه، والسياق لا يقدّم لنا المتلقي خالي الذهن، بل والنصّ يعلل الإذْن "بأنهم ظُلموا"؛

ينزل المتلقي منزلة الذي لا يعلم ما الذي يجب أن يفعله المظلوم، وذاك تحفيزٌ له كي يستثمرَ الإذن تأسيسًا على حقٍ ممنوح له بموجب السنن الطبيعية، فينهض لدفع الأذى.

وما كنا سنحصل على الدلالة نفسها لو كان الفعلُ صيغَ للفاعل "أَذِنَ" وليس للمفعول؛ عندها يخرج بنا من الشيوع والإباحة التي يتيحها الشيوع في التزام المناسب من قائمة السلوكات الممكنة، إلى اعتماد الترخيص الذي أُسند إلى الفاعل "الله". وهذا يعني إغلاق أن باب التفكير بما هو مناسب للظروف الذاتية للمعتدى عليه وواقع القوة والحجة عند المعتدي؛ فالفعل "**أُذِن**" ليس مجهول الفاعل فحسب، بل هو مُضمرُ المأذون به أيضًا. لم يقل أُذن القتال للذين يقاتَلون، كان هذا ممكنًا، ولم يقل أُذن العفو، وهذا ممكن، أو أذن التفاوض، وهذا ممكن أيضًا. فدائرة الممكنات تتوسع في حال الحذف، وتضيق أو تنحصر في حال الذكر.

أما فاعل المقاتلة في الفعل "**يقاتَلون**" فهو أيُّ معتدٍ. ربما يكون في أسباب النزول[16] ما يدل على كفّار مكة أو أي حلف يقاتل المؤمنين، ولكن التركيب الذي جهَّل الفاعل هنا إنما يتوخى ترسيخ مرجعية سننية تبيح للمعتدى عليه أن يتعامل مع العدوان، بما يراه مناسباً حتى وإن كان بالعنف. وكما نلاحظ، إن تجهيل الفاعل هنا يطلق أخيلتنا باتجاه فاعلين محتملين، فلا تقدم لنا الآية تقريراً عن حدث تاريخي، بل تريد من المتلقّي أن يعرف حقه في العلاقات المضطربة بين الأفراد، أو الجماعات.

صحيحٌ أن الصيغة الصرفية للفعل توحي بالمشاركة، والتكرار، والمبالغة، وبأن المعتدى عليهم يبادلون المعتدي الفعل نفسه، إلا أن إمكان العدول عن المقاتلة ممكن؛ بما أنه لم يرد في النص ما ينفيه. الآية حتى الآن لا تمنح القتال أي مزية على سواها.

أما الفعل "**ظُلِموا**" فقد قام بوظيفته في تعليل الإذن، وما إدخال "باء التعليل" إلا موضعَة للإذن المَوضعَ الذي يقتضيه صراحةً في الحياة العامة، في تسويغ المشاركة في

16 الواحدي النيسابوري، أبو الحسن علي بن أحمد (1992)، **أسباب النزول**، دار الإصلاح، ط2، الدمام، ص309.

المقاتلة أو ما يلائم، فهو في صيغة المبني للمفعول لبيان انتصار الآية للمظلوم بغض النظر عن الظالم من يكون.

لو أنّ النصّ عيّن فاعل الظلم، لانتفت الفائدة المرجوة من الذكر الحكيم، واقتصرت التذكرة على حدث تاريخي وعلى ظالم معين، وهذا يعني أن القرآن الكريم أسير أسباب نزوله، وهذا ما تنفيه رساليتُه إلى يوم الدين. والقاعدة الذهبية الأصولية في الفقه تقول: "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"[17] وأقول ذهبية لكونها تتيح للمتعامل مع النصوص فرصةً ثمينة للنظر بعيداً من التقليد، وفرصةً للفهم المرن القابل للنقد.

2. التأكيد بأداة أو أداتين ودلالته

وتستأنف الآيةُ بالتأكيد ﴿... **وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ**﴾ لقد رأى معظم أهل التفسير في هذا التأكيد وعداً للمظلومين، مع أن التأكيد بأداتين هنا، لا أرى فيه وعداً، أو لنقل ليس الوعد من مقاصده، بل تثبيت قدرة الله على النصر للذين ينكرون ذلك. وهذا يحيلنا على استحضار المخاطَبين بهذه الآية؛ فهم على أقل تقدير يجدون في أنفسهم أنهم بسلوكهم مسؤولون عمّا يتعرّضون له من الأذى والمقاتلة كما أنهم مسؤولون عن ضياعٍ يتوهمونه، أو أفقٍ مجهول يمضون إليه بإرادتهم. وتتوخى الآية طمأنتهم بإنزالهم الموضع الذي يمنحهم الحق في الاختيار، وتأسيساً على هذا الحق سيكونون أقوياء والحق يمدّهم بقوةٍ إلى قوّتهم.

المعنى المحوري لمفردة" نصر" "الإمداد بما فيه زيادةٌ مناسبةٌ وقوة"[18]. فما هي الزيادة المناسبة والقوة اللازمة، التي يحتاجها المعتدى عليه؟ سنؤجل الإجابة عن هذا التساؤل حتى نعرف أنّ هؤلاء المعتدى عليهم هم الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق. ﴿**الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إلّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنا اللَّهُ**﴾.

تطرح الآية أمامنا قضيتين أساسيتين:

1. الإخراج من الديار.

---

17 السيوطي، جلال الدين (2008)، **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق: مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت/دمشق، ص.453.

18 جبل، محمد حسن، المعجم الاشتقاقي.

2. القول بالتوحيد.

تشكل مسألة الإخراج من الديار بحد ذاتها مسألةً معقّدة، إذْ يمكن أن يكون إخراج فردٍ أو عائلة من الديار عقوبةً يستحقها مرتكبٌ، أجمع أهلُ الديار على إبعاده، بحسب الأعراف المرعية، وبالتالي يكون إخراجهم بحق؛ ولكن الآية تُظهر في الديار طرفين أحدهما متغطرسٌ يحدّد من يحق له الإقامة ومن لا يحق له، فالآية تصف الإخراجَ بأنه بغير حق. هذه مسألة بالغة الأهمية، إذ تجعل المقاتَلين منفيين من ديارهم بغير حق.

والمسألة الثانية "إلا أن يقولوا ربُّنا الله". يعني أن الذي أقدم على إخراج هؤلاء، إنما أعطى لنفسه الحق بتحديد قانون المواطَنة على أساس عقديّ، وأن معتقَد المنفيين أو المخرَجين من ديارهم معتقدٌ مخالف لسائر المواطنين، ولكن بيان المعتقد " ربنا الله" فيه إيحاء أن هذه الحركة التي نجم عنها إخراج الذين يؤمنون بالله لن تشمل هذه الفئة فحسب، بل ستشمل كل مَن يقول: ربي اللهُ. وفي هذا إيداع نفوس المتلقين طموحاً بأن يكون المواطنون في الديار المرتجاة مواطنين يوحدهم الإيمان بالله، وإن اختلفت طرائق العلاقة مع الله.

وشكّل التعبير "إلا أن يقولوا ربُّنا الله" ظاهرةً أسلوبية تتجاوز في مدلولها ظاهر المعنى إلى ما يقتضيه الترتيب على هذا النحو.

فأسلوب الاستثناء هنا فيه إثارةٌ للنفس كي تسأل عن المستثنى منه، وهو حق التهجير؛ فإذا كان الذين يعتدون قد استندوا إلى شرعةٍ تمنحهم حق تهجير المعتدى عليهم، فهو غير متوفّرٍ في الأعراف المرعيّة الإجراء، إذْ لم يكن اختلاف المعتقد سبباً معهودًا للتهجير من الديار، لذلك قالت الآيةُ " أُخرجوا من ديارهم بغير حق"، ويأتي الاستثناء هنا ليفضح مكنونات النفوس التي لا تطيق المختلفَ، فصرحت الآية بالقول "إلا أن يقولوا ربُّنا الله" فهل يشكّل هذا القولُ إذنا أو ترخيصاً للتهجير؟ أي هل هو من الحق؛ فيكون الاستثناء متصلاً لأن المستثنى من جنس المستثنى منه، أم أنه ليس من الحق المتعارف عليه، فيكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه، وبالتالي يكون استثناء منقطعًا، وله دلالاته المفتوحة؟

المواطنة تعني أن يعيش الجميع في ظل شرعةٍ تحفظ حق الأفراد بغض النظر عن معتقدهم أو عرقهم أو جنسهم؛ فالجميع سواء أمام القانون.

دلالة الاستثناء المنقطع هنا، هي في أن الذي بين المعتدي والمعتدى عليه مشترك في كل شيءٍ باستثناء شيءٍ واحد هو العقيدة. وهذا يعني أن الإذن الممنوح للمهجَّرين إنما هو إذنٌ بردِ العدوان عن طريق **الإقناع بضرورةِ قبول المختلِف**. وفي ذلك يأتيهم المدد ما داموا مؤمنين بهذا الحق. أما إذا كان رد العدوان نوعا من الثأر فهذا قد يمنحهم الحق لكنه دون مقاصد الآية ودون مقاصد الخطاب القرآني بعامة التي تشكّل **الرحمةُ مرجعيةَ تأويلِه وتدبّرِه.**

إذن، هناك مرجعيتان للاستقرار(المواطنة) في الديار، الأولى تحسب أن الديارَ حكرٌ على مَنْ يعتقدون بمعتقدٍ واحد، والثانية هي التي تحسب أن الإقامة في الديار حق لأهلها بغض النظر عن المعتقد.

يؤكد النص بأن الإذنَ المعطى للذين يقاتَلون إنما هو مؤسسٌ على سنةِ الاجتماع البشري وما يقتضيه من صيرورة وئام وتناقض، أو ما قدّمه القرآن الكريم على أنه سنة التدافع. "فالتدافع هو الصيرورة التي توجه التفاعل بين القوى المتعددة بحيث يؤثر كل منهما في الآخر ويتأثر به سلباً أو إيجاباً وذلك بصورة مستمرة ومتتابعة تسهم في تحقيق التوازن بينها وتنتهي بظهور بعضها واختفاء البعض الآخر"[19]. ما يعني أن تطور المجتمعات مؤسس على التدافع، فالصيرورة التي توجّه التفاعل بين الأفراد والجماعات والشعوب هي التي تدفع الحياةَ إلى التطور، ولكن يبقى سؤال عالق في حلق المتلقّي مفادُه الصراع الدمويّ ومدى علاقته بالتدافع؟ هل هو حتميّ وهل كل تنافسٍ بالضرورة سيؤدي إلى الدمويّة؟ وكيف له أن يحمي الصوامع والبيع و......؟؟؟

تقول الآية القرآنيةُ الكريمة:﴿**وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾. نفهم من هذه الآية أن التدافع بين الناس هو سنةٌ إلهيةٌ في المجتمعات،

---

19 النجار، خالد عبد الرزاق (2019)، **نظرية التدافع، محاولة لفهم وتفسير السلوك الإنساني**، مجلة التربية وثقافة الطفل، عدد خاص ببحوث المؤتمر العلمي الثالث لكلية التربية للطفولة المبكرة، جامعة المنيا، ع 13 ج2، ص 708.

بل لولاها لانهدمت **الصلةُ بالله**؛ كيف يكون ذلك؟ نشهد تدافعاً دموياً في فلسطين بين باطل وحق، ونشهد تهديما لمساجد ومستشفيات ومدارس وجامعات ودور عجزة ودور أيتام، وتقتيل مدنيين وأطفال ونساء غير مسبوق.... إذن؛ الواقع مغايرٌ لفهمنا للآية. طبعاً لن نعدّل في الآية، بل سنتلمّس طريقنا إلى فهمٍ يرضينا، تأسيساً على قناعتنا بأن الكلامَ كلامُ الله.

فهمها أهل التفسير أن الله يدفع أهل الباطل بأهل الخير، يدفع المشركين بالمؤمنين، لكن الآية لا تقول هذا، بل تقول إن الله يدفع بعض الناس ببعض الناس، ما يعني أن البعض الأول هم من المؤمنين والكافرين والبعض الآخر من المؤمنين والكافرين. وأن أماكن العبادة هي التي يحميها التدافع فهل يعني هذا أنّ غير الدينيين ليسوا مشمولين بهذه السنّة القرآنية الكونية؟

يبدو أن الأقرب إلى الذهن هو أن التدافع يخلق توازنا بين القوى المتناقضة المتنافسة، وهذا التوازن هو الذي يحمي الصلة بالقوة العظمى التي تُلهم الجميع وعيَ أحجامهم، فالإذن يمنح القوى ما دون القوة العزيزة أن تنظر في مصالحها وفي قدراتها والقدرات المتواجهة، وصياغة عهود وعقودٍ تحفظ الناس والأعراف التي يرجعون إليها.

كنا عندما تكلمنا على النصر بأنه "الإمداد بما فيه زيادةٌ مناسبةٌ وقوة"[20]، تساءلنا عن الزيادة المناسبة والقوة اللازمة، التي يحتاجها المعتدى عليه؟ وكنا أجّلنا الإجابة حتى نعرف أنّ هؤلاء المعتدى عليهم هم الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق، والآن بعد أن عرفنا، وعرفنا السنة الإلهية في الكون وفي آهليه، عرفنا أن الذي يحتاجه المعتدى عليه إنما هو معرفته العميقة بأسباب الاستقرار والتهجير، ومعرفته العميقة بالحق والباطل، ومعرفته بأسباب الرقيّ والركود والانحدار، وإيمانه بأنه على حق، فإذا عرف ذلك بات قويا منتصرا. ويمد الله المؤمنين بأسباب العزّة والكرامة فتكون المعرفةُ حاجةً دائمة. وأن تشعر بالحاجة المعرفية فهذا نصر من الله، وأن تُقدم على تطوير وسائل التفكير ومناهج التعلّم، وترتقي بمعرفة الحق من الباطل؛ فهذا نصرُك لله.

---

20 جبل، محمد حسن، المعجم الاشتقاقي

سرقة التراث الشعبي – حرب إسرائيل الصامتة ضد التراث الفلسطيني المادي واللامادي

د.إدريس جرادات

بعد عقود من الحرب الصامتة والممنهجة لشطب الهوية الفلسطينية وإحلال الهوية اليهودية مكانها بالموازاة مع ما يجري على الأرض من تهويد واستيطان وتغيير للمعالم،انتقلت إسرائيل إلى مرحلة جديدة من سرقة التراث الفلسطيني بإعلانها السافر ضم الحرم الإبراهيمي في الخليل ومسجد بلال بن رباح في بيت لحم وأسوار القدس القديمة إلى ما يسمى قائمة التراث اليهودي.

ورغم أن اليهود – بحسب الروايات التاريخية– يميلون إلى العيش في "جيتو" وظلوا على الدوام يتأثرون بحضارات البلدان التي يسكنونها ولا يؤثرون فيها ،فان الاحتلال الإسرائيلي يهدف من وراء الاستيلاء على التراث الفلسطيني إلى طمس الهوية العربية والإسلامية للأرض الفلسطينية وإثبات ما يدعي أنه حق تاريخي لا تسنده في الواقع حقائق علم التاريخ والآثار.

ولعل خير دليل على ذلك ، وصف سيلفان شالوم النائب الأول لرئيس وزراء إسرائيلي موقف الرئيس الفلسطيني محمود عباس من قرار ضم مسجدي الخليل وبلال للمواقع الأثرية الإسرائيلية "بالوقاحة والفضيحة التي تهدف لتشويه التاريخ وقطع الصلة بين الشعب الإسرائيلي وأرضه التى يعود تاريخها إلى ما قبل 3700 عام".

وتتعدد مظاهر سرقة إسرائيل للتراث الفلسطيني بدءا من الكوفية والأزياء الشعبية وصناعات الزجاج والرخام ، ومرورا بما تحتضنه الأرض من آثار وتغيير الأسماء التاريخية العربية لمئات المواقع والقرى والبلدان، وانتهاء بالأكلات الشعبية ووجبات الطعام الفلسطينية.

أهداف الحرب الإسرائيلية ضد التراث الفلسطيني المتوارث من جيل لجيل منذ آلاف السنين مستشهدا بعبارة للمستشرق "فيليب حتي" اللبناني الأصل يقول فيها إن "اليهود شعب همجي بلا حضارة، وكلما احتلوا منطقة سرقوا تراث أهلها ونسبوه إليهم"..مشيرا إلى أن عشرات الحفريات الإسرائيلية لم تنته إلى الكشف عن وجود أي أثر لليهود في فلسطين.

إن الهوية التراثية للشعب الفلسطيني عبارة عن تجمع "كوكتيل" لمعظم حضارات العالم التى انصهرت في فلسطين منذ آلاف السنين بحكم موقعها الجغرافي وتوسطها بين القارات وكونها مهبط الديانات السماوية،فضلا عن أن سكان فلسطين تجمعوا من كل شعوب العالم.

إن تراث فلسطين امتداد لتراث بلاد الشام والدول المجاورة، فغزة فى الجنوب مثلا متأثرة بالتراث المصرى خصوصا تراث بدو وعرب سيناء،وجنين وطولكرم ومناطق الشمال متأثرة بسورية ولبنان،أما منطقة الخليل فهي متأثرة بالبادية الأردنية.

دولة الاحتلال تقوم على أساس العقيدة اليهودية وتحاول "تجيير" التاريخ لصالحها وإثبات حقها في أرض فلسطين،وتثبيت فكرة أن لليهود جذورا تاريخية في المنطقة،وإقناع العالم أنهم نتيجة الشتات انخرطوا في حضارات الشعوب المقيمة.

وإسرائيل تتبع أساليب متعددة لسرقة التراث مدعومة بآلة اقتصادية وإعلامية عالمية جهنمية،فهي تستولي بالقوة العسكرية على الأرض من خلال القتل والتهجير والحصار والتشريد والتجويع ومنع التجول أو من خلال الشراء من ذوى النفوس الضعيفة والمطبعة والخارجة عن الصف الوطني حيث استولت على مقامات الصالحين والزوايا وأكثر من نصف الحرم الإبراهيمي وحائط البراق الذي يطلقون عليه حائط المبكى عبر إضفاء الطابع الدينى اليهودي على هذه المواقع.فضلا عن أنها سرقت الأكلات الشعبية والأمثال الشعبية والأغاني التراثية والدبكة والتطريزات والأواني الفخارية والنحاسية والإكسسوارات النسائية الفلسطينية.

الأمر ذهب إلى أبعد من مسألة تزوير الحقائق والتاريخ أمام السياح الأجانب،فقد ارتدت زوجة موشي ديان وزير الدفاع الأسبق في إحدى المناسبات العالمية ثوبا عربيا –ثوب عرب التعامرة، ثوب الشلتة التعمري لنساء بادية بيت لحم والقدس على أنه تراث إسرائيلي،كما ترتدي مضيفات شركة العال الإسرائيلية للطيران الزي التقليدي الفلسطيني على أنه من التراث اليهودي.

وتنتشر في المتاحف والمتاجر والمعارض الإسرائيلية صناعات الزجاج والرخام المستوحاة من التاريخ والتراث الفلسطيني والتي تعد من العادات والتقاليد والمهن التي نقلها الفلسطينيون عن أجدادهم الكنعانيين.

ونتيجة لصعوبة الأوضاع الاقتصادية يضطر بعض الفلسطينيين إلى بيع هذه الصناعات لتجار إسرائيليين يسوقونها بدورهم للسياح الأجانب على أنها تراث إسرائيلي.معربا عن أسفه لبيعها أيضا بهذه الصفة فى أريحا شرق الضفة الغربية والتي تعد أحد أبرز المناطق السياحية الفلسطينية .

والظروف الاقتصادية تدفع بعض الفلسطينيين إلى التنقيب عن الآثار وبيعها بثمن بخس للتجار الإسرائيليين،وسرقت حجرا أثريا ضخما من حجارة القصور الأموية في منطقة الخاتونية ونقلته إلى حديقة أثرية افتتحت بمبنى الكنيست بالاضافة إلى أخذ الحجارة القديمة –العتيقة واستخدامها في بناء الأسوار أو الحدائق العامة أو في ترميم البيوت في البلدات القديمة الفلسطينية التي تم تهجير سكانها منها .

وتضم الحديقة الأثرية في الكنيست نحو خمسين قطعة أثرية تدعي "سلطة الآثار الإسرائيلية" أنها من موجودات الحفريات التي أجرتها في القدس خاصة تلك التي أجرتها تحت وفي محيط المسجد الأقصى المبارك، وتزعم أنها تعود إلى عهد الهيكل الثاني المزعوم.

السرقة تشمل الأرض والاستيلاء عليها وما في جوف الأرض من مدافن وكنوز وعملات قديمة وكل موجودات الأرض من آثار وعمارة شعبية وأدوات وصناعات وأزياء وتراث مادي ولا مادي ونسبتها إليهم حتى مصادرة إنسانية الإنسان واعتباره

حيوانات بشرية والعمل على تفريغها من محتواها الوطني والقومي والإنساني – سرقة الأرض–والبشر والحجر والشجر والماء والهواء والسماء.

وحدة الدراسات التاريخية والآثارية

فلسطين بين نكبتي عام 1948 وطوفان الأقصى أكتوبر 2023

د. عبد الرحيم غانم

نود في هذه المداخلة أن نناقش أحد أساليب التهجير القسري التي انتهجتها العصابات الصهيونية ضد الفلسطينيين خلال يوميات حرب 1947-1948. والحرب على غزة بعد السابع من أكتوبر/2023. ولكن قبل الخوض في العرض والتحليل لمسلسل المذابح- والتي كانت إحدى بنود وملاحق الخطة (دالت)، والتي بموجبها تمت السيطرة على فلسطين وكسب الحرب وتحقيق أحلام الحركة الصهيونية وإقامة الدولة العبرية- يجب علينا تعريف معنى المذبحة على الأقل من وجهة النظر الفلسطينية، ولا بد من ذكر أنواع المذابح التي مورست بحق الشعب الفلسطيني.

يعرف د. شريف كناعنة المذبحة في (الأسوار، دير ياسين قراءة جديدة، ع19، 1998) أنها "القتل المتعمد للمدنيين المقبوض عليهم، والقتل المتعمد للجنود والمحاربين الذين استسلموا وجردوا من السلاح ولم يعودوا يشكلوا تهديدا للقوات المنتصرة". وجاء في المورد أن المذبحة، والتي تعني بالإنجليزية massacre، تعني "قتل وحشي".

وأرى أن المذبحة تعني القتل العمد لشخص أو مجموعة من بني البشر في ظروف السلم أو الحرب، سواء أكانوا عزلا من السلاح أم مسلحين، ولم يعرضوا حياة الآخرين للخطر، وقد أعلنوا استسلامهم للجهة المهاجمة، بغض النظر عن وسيلة القتل، سواء كانت إطلاق النار عن قرب أو بعد، أو قصفا جويا أو مدفعيا بريا، أو بحريا، أو إلقاء مواد متفجرة، أو تسريب غازات سامة أو مشتعلة بهدف القتل وإلحاق الأذى وإزهاق الأرواح.

وسوف نتطرق إلى أنواع المذابح التي ارتكبت بحق الشعب الفلسطيني بطرق منظمة وحسب أوامر القيادة السياسية أو القيادة العسكرية أو قيادة الميدان، أو من قبل الجنود بقرار فردي دون أن تتعرض حياتهم للخطر.

ومن خلال دراسة الأدبيات التي ناقشت حرب عام 1948، سواء كانت لكتاب عرب أو إسرائيليين، لم أجد وثائق كافية توجد فيها أوامر من قبل القيادة السياسية الإسرائيلية

للبدء بالمذابح ضد المجتمع الفلسطيني، ولكن استطعت أن أطلع على الأفعال ولم أقرأ الأقوال. ولفت انتباهي تحليل الدكتور صالح عبد الجواد الذي قال خلال محاضرة عامة ألقاها في جامعة بير زيت 1990، أن عدم وجود وثائق مكتوبة بين أيدي الباحثين: "إما بسبب قرار بمنع نشر هذه الوثائق وعدم إطلاع أي كان عليها، أو أنها في الحقيقة غير موجودة بسبب وعي القيادة السياسية الصهيونية في ذلك الوقت لتوثيق أوامرهم بشكل كتابي، بل ربما كانوا يصدرونها بشكل شفوي حتى لا يكتب التاريخ عنهم ويلحق بهم العار ويصفهم بأنهم صانعو المذابح، وكان أكثرهم حرصا على ذلك هو بن غوريون الذي سئل عما نفعل بأهل اللد والرملة فأشار بيده وقال أريدها نظيفة".

لكن يوميات الحرب من خلال الوثائق الإسرائيلية والعربية وشهادات من عاصروا الأحداث بينت أن ارتكاب هذه المذابح المنظمة على أيدي العصابات الصهيونية، أو على أيدي جيش الدفاع الإسرائيلي (الهاغاناه) شكلت فسيفساء حمراء على الخارطة الفلسطينية، وكان الهدف منها تهجير السكان قسراً عن أرضهم وقراهم وبواديهم ومدنهم ومضاربهم، والتخلص قدر الإمكان من العنصر العربي. وقد أشار د. نافذ نزال في مقاله "طرد الفلسطينيين من الجليل الغربي" المنشور في مجلة الدراسات الفلسطينية حول استعمال القوة والضغط بهدف التهجير القسري، كما أشار د. شريف كناعنة في كتابه "الشتات الفلسطيني هجرة أم تهجير" أيضا إلى سلوك منهج القوة وعمل المذابح وإرهاب الناس بهدف التهجير. كذلك دراسات الأستاذ والمؤرخ الفلسطيني وليد الخالدي التي عالجت العديد من فصول حرب عام 1947-1948، ذكر فيها استخدام المذابح وسيلة لغاية التهجير وخصوصا مذبحة دير ياسين التي ذكرت في مقال نشر في كتاب (From Haven to Conquest, P775). وكذلك أشار بني موريس والذي يعد من المؤرخين الإسرائيليين الجدد في كتابه "طرد الفلسطينيين وولادة مشكلة اللاجئين" إلى الأساليب غير الحضارية التي اتبعتها العصابات الصهيونية لتهجير الفلسطينيين وطردهم، ولكن رغم أنه يبرر بعض الفعاليات العسكرية، وأوجد بعض الأعذار لقيادة (الهاغاناه) في ارتكابها أعمال القتل العمد والمذابح لغرض التهجير، إلا أنه يعد من الوثائق الهامة والحديثة التي يمكن أن يستفيد الباحث من خلال

اطلاعه عليها لتوثيق بعض مراحل الحرب، ولكن يجب الأخذ بها بشكل حذر بعد فرزها ونقاشها وتخليصها من الشوائب العالقة بها من أجل الوصول إلى الحقيقة، وذلك في ظل غياب الوثائق العربية حول الحرب والمذابح والتي حكم عليها بالبقاء في الخزائن العربية إلى ما شاء الله.

وقد يستفاد في هذا الموضوع بعض الشيء من وثائق الصليب الأحمر رغم أن بعضها حكم عليه بالفناء والبعض الآخر أخذ من الناطق الرسمي الإسرائيلي والتي كانت في الغالب مزيفة.

أما الوثائق التي يمكن أن يستفاد منها بعد تدقيقها فهي الشهادات الحية ممن عايشوا الأحداث من أبناء الشعب العربي الفلسطيني، والذين ارتكبت في مدنهم وقراهم فظاعات الحرب أو المذابح، أو سمعوها عن قرب من أناس نجوا منها، ولكن يجب الأخذ بها بشكل مقتبس مع الحذر في بعض المعلومات وخصوصا تواريخ المذابح وعدد الشهداء فيها. وقسم من هذه الشهادات موجودة لدى الباحث وتقدر بحوالي 350 ساعة تسجيل تم جمعها خلال أربعين عاما في توثيق القرى الفلسطينية المدمرة.

وسأستعرض هنا بعض أنواع المذابح:

أ) الكبيرة مثل الذي حدث في حيفا واللد والرملة وبرير ودير ياسين والدوايمة والخصاص وطيرة حيفا وابو شوشة وبيت دراس....وغيرها كثير.

ب) أما المذابح الصغيرة نسبياً فكالتي حدثت في الطنطورة، وعيلوط وقرية الصبيح، وعيلبون وعرب المواسي ..... وغيرها كثير أيضا.

ج) الاعتداءات على العزل من سكان المدن إما بالقصف عن بعد أو بالهجمات الليلية مثل الذي حصل في يافا وقرية العباسية وقرية حيسان والشيخ مونس وإجليل وابو كشك ووادي الحوارث ....الخ .

وجميع ما سلف من مذابح ومجازر وقتل هدفه التهجير القسري للعرب بين أعوام 1947 – 1948.

وأعقب عملية التهجير في حرب عام 1948 عملية تهويد وعبرنة وتحوير الأسماء العربية إلى توراتية وطالت عملية التهويد كل مكان وأثر عربي سيطرت عليه إسرائيل في حرب عام 1948. ومثال على ذلك مدينة عكا العربية أطلقوا عليها اسم (عكو) ويافا (يافو) بيسان (بيت شان) وعسقلان (اشكلون)..... .

وتم في هذه الحرب تهجير وتدمير 530 قرية ومدينة فلسطينية أي ما يعادل 50% من قرى فلسطين التاريخية وتم بناء مستوطنات ومدن إسرائيلية على أراضي هذ القرى والمدن العربية .

كما تم في هذه الحرب تهجير قسري لمليون فلسطيني من أراضيهم وأصبحوا لاجئين في الضفة الغربية وقطاع غزة ودول الجوار لبنان الأردن وسوريا والعراق ومصر.

بعد احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة في الخامس من حزيران 1967 م تمت محاولة تهجير قسري لسكان الضفة الغربية وقدر عدد المهجرين حولي 350 الف نسمة لكن تدخل الولايات المتحدة أوقف عملية التهجير لكن إسرائيل اتبعت سياسة الإبعاد القسري إلى دول الجوار كل من ينتمي إلى المقاومة الوطنية أو سجنه أو قتله.

وبدأت عملية ممنهجة لبناء المستوطنات الإسرائيلية في الضفة الغربية وفي أراضي قطاع غزه ومنها مستوطنات (غوش قطيف) أما الضفة الغربية فقد سيطرت على الأراضي الأميرية وسيطرت على الأراضي الفلسطينية وأقامت عليها مستوطنات من محافظة الخليل جنوبا إلى محافظة جنين شمالا وأيضا أطلقت عليها أسماء عبرية أو توراتية رغم أن الأراضي المقامة عليها تحمل أسماء عربية وبلغ عدد المستوطنين في الضفة الغربية اليوم800 الف مستوطن.

وفي القدس الشرقية كان الإجراء مختلفا، إذ هودت المدينة وضمت القدس الشرقية إلى القدس الغربية وأعلن عنها أنها العاصمة الموحدة لدولة إسرائيل وطال التهويد كل المسميات التراثية والتاريخية العربية وتحويلها إلى عبرية. كما أقيم حول القدس سوار من المستوطنات اليهودية لعزلها عن محيطها العربي، وسيطرت على بلدية القدس العربية والغرفة التجارية واللتان كانتا أقدم من دولة إسرائيل نفسها، إذ كانت قد تأسست في ظل الدولة العثمانية.

كما هودت مناهج التعليم في المدينة وفي التسعينيات من القرن الماضي أقيم جدار الفصل العنصري حول المدينة.

وطال التخطيط الصهيوني المسجد الأقصى في محاولة حرقه ونسفه عام 1969 م ومحاولة جادة لتقسيمه زمانيا ومكانيا بين العرب واليهود. بحيث تقوم الجمعيات الاستيطانية بتنظيم اقتحامات يومية للمسجد الأقصى وتمارس فيه طقوسا وصلوات تلمودية.

مقدمات طوفان الأقصى ونكبة غزة

كانت مقدمات الحرب على الفلسطينيين في الضفة الغربية قبل السابع من اكتوبر عام 2023 م فقد كثفت إسرائيل سياسة مصادرة الأراضي، وإقامة المستوطنات وتسليح المستوطنين وإطلاق أيديهم في مهاجمة الفلسطينيين وحرق بيوتهم وممتلكاتهم.

وفرضت السلطات الإسرائيلية حصارا على المدن والمخيمات الفلسطينية في الضفة الغربية وإقامة الحواجز الإسرائيلية على الطرقات تراوحت بين 650 إلى 675 حاجزا عسكريا تحد بوساطتها حركة الفلسطينيين بين المدن والقرى الفلسطينية بشكل آمن، وهذا أدى إلى تردي الوضع الاقتصادي في الضفة الغربية، أضف إلى ذلك قمع الحركة الوطنية والاعتقالات الإدارية في صفوف الفلسطينيين والأحكام العالية التي بدأت تحكم بها المحاكم الإسرائيلية على المعتقلين الفلسطينيين.

الأمر الذي كان مستفزا لكل فلسطيني، ثم اعتداء الجمعيات الاستيطانية اليهودية على المسجد الأقصى الممنهجة والمدعومة من قبل الحكومة الإسرائيلية، ومحاولة حرق كنيسة القيامة أكثر من مرة.

ومحاولة تدمير المخيمات الفلسطينية في الضفة الغربية وكان في مقدمتها مخيم جنين ومخيمات طولكرم وهي مخيم طولكرم ومخيم نور شمس، ومخيمات نابلس مخيم بلاطة ومخيم عسكر، مخيمات أريحا ومخيمات رام الله والخليل وبيت لحم مخيم عايدة. واتبعت القوات الإسرائيلية في المخيمات سياسة الهجوم المباغت وقتل المدنيين وهدم البيوت وتجريف حارات بأكملها وتدمير البنى التحتية والهدف هو تدمير المخيمات وتهجير سكانها هجرة داخلية وإلغاء رمزية المخيم الذي هو جواز سفر لحق العودة،

وما الهجوم الإسرائيلي على وكالة الغوث وتشغل اللاجئين مؤخراً واتهامها بمساندة المقاومة إلا لتحقيق الهدف السابق وإلغاء كلمة لاجئ فلسطيني من أجندة الأمم المتحدة ومؤسساتها.

أما قطاع غزة فقد فرض عليه حصار بري وبحري وجوي واقتصادي مدة تزيد عن 17 عاما مما أدى إلى خنق أكثر من 2.5 مليون نسمة في بقعة جغرافية لا تزيد مساحتها عن 365 كم مربع، أضف إلى ذلك الحروب الإسرائيلية الخاطفة والتي كانت مدمرة لكل مناحي الحياة في غزة.

فكان هجوم السابع من أكتوبر للمقاومة الفلسطينية ردة فعل عما يحدث في الضفة الغربية وتدنيس المسجد الأقصى، ولفك الحصار عن قطاع غزة.

كان الرد الإسرائيلي على هجوم المقاومة من شقين: أولهما سياسي بتحالف أوروبي أمريكي ودعم عسكري وسياسي لحرب غير محدودة وغير مقيدة بالقانون الدولي وغير مضبوطة على جميع سكان قطاع غزة.

كانت السردية والرواية الإسرائيلية السياسية من خلال وسائل الإعلام والقنوات الدبلوماسية للمجتمع الغربي الأوربي والأمريكي أن المقاومة قتلت واغتصبت النساء والأطفال وقطعت الرؤوس وسلبت ونهبت. وردد هذه المقولة والرواية الرئيس الامريكي بايدن وفعل كذلك وزير خارجيته بلنكن الذي زار إسرائيل وصرح أنه يهودي صهيوني، وهكذا فعل رئيس الوزراء البريطاني والفرنسي وانضمت إلى الركب ألمانيا التي بعثت رئيس سلاح الطيران الألماني الذي ظهر وهو يتبرع بالدم وتحركت الأساطين والمدمرات وحاملات الطائرات الامريكية والبريطانية والتي شاركت بشكل لوجستي بأحدث وسائل التجسس الالكترونية والخبراء من فرق النخبة في العدوان على غزة.

اتخذت إسرائيل سياسة الأرض المحروقة في عدوانها على غزة فدمرت الحجر والشجر والبيت والمشفى والمدرسة والجامعة ورياض الأطفال ودمرت المساجد ولم يعد هناك مسجد في شمال او وسط قطاع غزة الا دمر كلياً او جزئياً وحرم اهل غزة من صلاة الجمعة والجماعة وقصفت الكنائس في غزة ولم يعد هناك في غزة قداس الأحد ولا

جناز للشهداء من أبناء الطائفة المسيحية في غزة وقطعت كل مقومات الحياة عن غزة وسكانها.

ولم تسلم المواقع التراثية أو الأثرية من الموروث الثقافي في غزة إلا دمر بشكل متعمد حتى المكتبات والمتاحف في غزة أصبحت أثرا بعد عين وتقدر المواقع الأثرية المدمرة بفعل الحرب في غزة خلال الأشهر الثلاثة الأولى للحرب بأكثر من 126 موقعاً أثريا.

وحسب تصريح وزير الدفاع الإسرائيلي اعتبر سكان غزة حيوانات وقال " لا ماء ولا كهرباء ولا وقود ولا غذاء هؤلاء حيوانات".

قتلت إسرائيل الطفل واليافع والشاب والشيخ من النساء والرجال وهجرت أكثر من مليون وثمانمائة ألف نسمة وارتكبت آلاف المجازر والمذابح كان حصيلتها حولي 26200 شهيد و 66700 الف جريح وحوالي 8000 مفقود تحت الركام حسب إحصاء وزارة الصحة الفلسطينية حتى تاريخه.

وتم اعتقال عدد كبير من الرجال والنساء في قطاع غزة والذين لم يصرح بعددهم ولا يعرف أحد مصيرهم والذين تعرضوا للسحل والتعرية والتعذيب ولم يسمح لمؤسسات الصليب الأحمر بزيارتهم.

وحسب تقديرات البنك الدولي بتاريخ 2/شباط 2024 قدر عدد المنازل المدمرة بفعل الغارات الإسرائيلية 45% من مباني غزة وفقد أكثر من مليون فلسطيني منازلهم. وصار فقط 5% من المؤسسات الصحية تعمل بعد قصف المستشفيات ومحاصرتها واعتقال كادرها الطبي أو قتله وقضى عدد من الجرحى وأصحاب الأمراض المزمنة والأطفال الخدج بسبب نقص الأدوية. حرم جميع طلاب غزة من التعليم بدءا من رياض الأطفال حتى طلبة الجامعات؛ إذ نسفت جامعاتهم وكان ثلث الشهداء من الطلبة من طلبة المدارس والجامعات.

وأخيرا السؤال الذي لم تجب عليه محكمة العدل الدولية هل هذا القتل والمجازر والتنكيل والتهجير القسري للغزيين، هل هو حرب إبادة أم لا ؟.

هذه نكبة أخرى للشعب الفلسطيني مماثلة لنكبة عام 1948 فهناك فقدت فلسطين التاريخية 50% من قراها ومدنها واليوم فقد الغزيون 50 % من مساكنهم ويحتاجون إلى سنيين عديدة من أجل إعادة الإعمار.

والملاحظ أن إسرائيل المحتلة شرعت منذ اللحظة الأولى للهجوم على غزة بعمل منطقه عازله بعمق كلم واحد على الحدود الشمالية والشرقية للقطاع وتسعى للسيطرة على مثلث فيلادلفيا الجنوبي وبهذا تغتصب من مساحة قطاع غزة ما بين 16إلى 20 % . مع تنامي دعوات الجمعيات الاستيطانية إلى إعادة بناء المستوطنات في قطاع غزة، إذا تحققت أماني رئيس الوزراء الإسرائيلي بن يامين نتنياهو في إقامة حكم عسكري في قطاع غزة في اليوم التالي للحرب.

فأين هو مشروع الدولتين يا فخامة الرئيس الامريكي جو بايدن؟. غزة تم احتلاها وحكم عسكري حسب خطط إسرائيل والضفة مقطعة الأوصال ولا يوجد بينها تواصل جغرافي من غزارة المستوطنات التي تربض على جميع الأماكن في الضفة؛ فتمنع التواصل من خلال شبكة الطرق الواصلة بينها والتي يُمنع الفلسطينيون من استخدامها.

موشيه ديّان ونهب الآثار الفلسطينية

د. عبد السلام صبحي طه



"ما يقلقني بشأن الشيخوخة أنني قد لا أكون قادرًا على الحفر باستخدام الفأس من الصباح حتى المساء" [21]

يتناول هذا المقال قضية اكتنفها بعض اللغط، تتعلق بوزير الدفاع والخارجية الإسرائيلي الأسبق موشيه ديّان، وتقف على الدور الخطير الذي اضطلع به وأسس له في نهب الآثار العربية، ليس داخل فلسطين فحسب، بل تجاوز الأمر إلى الدول العربية المجاورة.

تُعد شخصية ديّان من الشخصيات الإسرائيلية المثيرة للجدل، فإلى جانب دهائه السياسي، وقدراته العسكرية التي جعلته محط الأنظار، كان على شيء من معرفة فيما يخص تاريخ المنطقة، وقد اعتمد في هذا بالأساس على نصوص العهد القديم، وما صاحبها من كتب كالشرائع وغيرها، وكان لهذه السرديات على ما يبدو أثر في بنية شخصيته وتصوراتها وأطماعها اللاحقة.

في هذا الفصل سيجري تتبع نشاطات ديّان في الحفر في مواقع مختلفة تمتد من فلسطين المحتلة، مرورًا بالضفة الغربية وغزة.

---

[21] التصريح مستل من كلمة لموشيه ديّان بمناسبة احتفاله بعيد ميلاده الخامس والخمسين، وقد ورد في كتاب مذكراته.

في عام 2017، كنت قد أصدرت كتابًا بعنوان: "الكارثة، نهب آثار العراق وتدميرها"، ومن بين التفاصيل التي وردت فيه ما تعلّق بتاجر عاديات إسرائيلي يحمل الجنسية البريطانية اسمه "شلومو موساييف" [22]. ترد في مقابلة أجريت مع شلومو موساييف شهادة بحق نفسه وموشيه ديّان صديقه، تؤكد تورط الثاني في تهريب الآثار منذ عام 1951، فبعد حرب 1948 تعرف إلى موشيه ديّان من خلال شبكات الآثار، واستخدم سلطته العسكرية ونفوذه لتسهيل نقل الآثار. وبالمقابل بادل خدماته بقطع أثرية. وكانا يذهبان في بعض الأحيان سوية للحفر، ويذكر بكل صراحة أنهما اشتركا في تهريب كنوز الذهب والآثار من الأردن إلى إسرائيل.

تعود نشاطات موشيه ديّان في النبش الأثري إلى عام 1951، وسيقف هذا المقال على بعض حفرياته تلك بحسب تسلسلها الزمني، ويتناول الأدلة على البعد غير القانوني من جانبه. وقد تطابقت نشاطاته في المواقع الأثرية مع مجال نشاطه العسكري، ففي البداية كانت نشاطاته متركزةً في مواقع الأراضي التي احتلتها إسرائيل عام 1948، تلتها حفريات داخل الأراضي التي احتُلت بعد حربي 1956 و1967 في فلسطين وشبه جزيرة سيناء في مصر.

- **يازور في يافا**

قرية يازور، مستوطنة فلسطينية قديمة تبعد مسافة 6 كم إلى الشرق من مدينة يافا، جرى استيطانها منذ عصور ما قبل الفخار(بداية العصر الحجري الحديث، نحو 10000 إلى 7500 ق.م)، وتحوي مدافن ترقى إلى بواكير العصر الحديدي(يبدأ من نهاية العصر البرونزي نحو 1200 ق.م)، ويرد في النقوش المصرية القديمة أن الفرعون أحمس (حكم 1570–1544 ق.م بحسب التسلسل الزمني المصري)، الذي طرد الهكسوس من بلاده، قد خرّبها مع غيرها من المدن الفلسطينية، وقد توشحت "يازور" وغيرها من القرى المجاورة لها باسم «بلاد الفتوح» نسبةً إلى الفتح العربي الإسلامي على يد عمرو بن العاص. واستمر سكانها الفلسطينيون فيها حتى تهجيرهم عام 1948، لتقام على أنقاضها مستوطنة "آزور"، والمنطقة الصناعية (حولون).

يُعدّ هذا الموقع مهماً لعلم الآثار الفلسطيني بشكل خاص، حيث جرت في هذا الموقع أول عملية تنقيب بأشراف فلندرز بيتري، عام 1890، واستمرت ستة أسابيع.

زار موشيه ديّان التل الأثري في مدينة يازور مصادفةً، وكان حينها في رحلة صيد مع ابنه في عطلة نهاية أسبوع من شتاء 1951، وصادف أن كان الموسم مطيرًا، مما تسبب في استظهار بعضٍ من بقايا التل الأثري من منحدره الجانبي. فما كان من ديّان إلاّ السماح لنفسه بأخذ جرة، ثم قام بعرضها على آثاري يدعى يائيل يادين، وهو زميل له في الجيش، وقد قام هذا بتقييمها له بالإشارة إلى كونها ترقى تقريبا إلى العصر الحديدي. إثر تلك الحادثة، أخذ يكرّس وقت فراغه لنشاطات محدودة في النبش، لكن سرعان ما تطور اهتمامه إلى شغف، وانخرط مع لصوص هواة ومحترفين، وتجار، ومهربين للقطع الأثرية.

وقد أفاد ميناشي بوشيري، مشرف هيئة الآثار في هذه المنطقة، بأن الموقع تعرض للسرقة أكثر من مرة خلال عام 1964، وقد قام بجولة خارج سياج المقبرة الفلسطينية، والذي شادته الدائرة الإسلامية في وزارة الأوقاف. ويبدو أن أعمال حفريات ونبش كانت تجري هناك، بدلالة كثرة الحفر وكِسر الآنية القديمة، التي تكدست في أكوام، بما في ذلك القطع المزخرفة الفلسطينية. فمن الصعب جدًا حماية هذا الموقع، وكان يتعرض للسرقة في ليالي نهاية الأسبوع.



بن غوريون في زيارة لموشيه ديّان في المشفى بعد حادث يازور

في 20 آذار عام 1968، أصيب ديّان بكسور، أثناء قيامه بنبش قبر في "يازور" جراء انهيار أرضي. دخل إثر ذلك إلى مستشفى "تل هشمور" قرب تل أبيب مدة ثلاثة

أسابيع، وتزامن فشله في "يازور" مع فشل الجيش الإسرائيلي في عملية الكرامة في الأردن، حيث ذهب ديّان للحفر في اليوم نفسه، مما استرعى انتباه بعض الأوساط العسكرية والسياسية عن سبب قرار ديّان الذهاب إلى "يازور" بدلاً من الإشراف على العملية العسكرية. وحاولت الصحافة حينها إجراء مقابلة مع ديّان في المستشفى، بعد ورود إشاعات عن حراجة حالته الصحية، وجرت مفاتحة هيئة الآثار الإسرائيلية للاستعلام عن نيتها رفع شكوى ضد ديّان؟ وجاء الرد من رئيس الهيئة آنذاك: "*في هذه التوقيتات الحرجة سيكون آخر الأولويات توجيه اتهام إلى وزير الدفاع يتعلق بسرقات في مقابر*".

عاد ديّان مرة أخرى إلى "يازور" حال تعافيه ليرى ما إذا كانت هناك أي قطع قد ظهرت أو بقيت للاستحواذ عليها، وادعى لاحقًا، وبكل صراحة، أنه كان يحاول إنقاذ الآثار التي كانت ستدمرها أعمال البناء.[23]

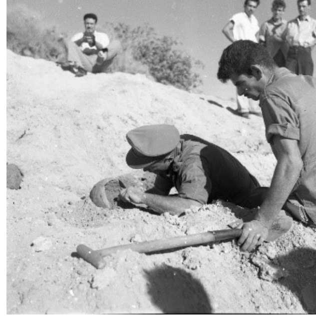
- **جفعاتيم**

"جعفاتيم" بلدة تقع في ضواحي تل أبيب، أخذت اسمها من كونها تربض على تلين، وفيها موقع أثري يرقى إلى العصر الحجري النحاسي(هي فترة انتقالية ما بين العصر الحجري الحديث والعصر البرونزي، من نحو 4500 إلى 3500 ق.م) ، وفقًا لأرشيف الملفات الإدارية لسلطة الآثار الإسرائيلية، جرى الإبلاغ عن عظام بشرية ترقى إلى العصر الحجري النحاسي من تل كوسلوفسكي في "جفعاتيم" عام 1951. وفي وقت مبكر من عام 1958 قام ديّان بالحفر مدة شهرين في "جفعاتيم"، من دون العثور على أي شيء، لكنه عثر بعد ذلك على غنائم أثرية من الموقع ذاته، وقد أبلَغ السكان الذين يعيشون في تلك البلدة، في رسالة جرى توجيهها إلى السلطات المحلية بتاريخ سبتمبر(أيلول) 1958، مفادها: " أن ديّان زار الموقع في ديسمبر (كانون الأول) عام 1958، وخطط للقيام بحفريات جرى تنفيذها خلال عطلة رأس السنة الجديدة، كما نبش عدة قبور، تعرضت ستة منها للسرقة والتدمير". وفي شهر اغسطس(آب) من العام نفسه طلبت سلطة الآثار من شرطة بلدة "رمّات جان" منع الأضرار التي لحقت بالآثار المكتشفة في التل، وطالب مجلس بلدية "جفعاتيم" ديّان بإعادة اللقى، كونه

شخصيةً عامةً تشغل منصبًا رفيعًا، وهو مع ذلك يقوم بمخالفة القانون البلدي الذي يحظر أخذ اللقى الأثرية. لكن ديّان قرر الاحتفاظ بغنائمه. ولاحقا وردت بعض من منهوبات ذلك الموقع في نشرة عن مجموعة ديّان، عُثر عليها بعد وفاته.

- **البيرة**

تُعدّ مدينة "البيرة" العاصمة الإدارية المؤقتة لمحافظة "رام الله" في الضفة الغربية، تقع إلى الشمال من مدينة القدس بنحو 16 كم. يرقى الاستيطان في موقعها الأصلي إلى نحو الألف الرابع ق.م، واستمر استيطانها إلى يومنا هذا وذلك لموقعها الاستراتيجي، وقد عُثر فيها على آثار كنعانية وعربية ورومانية، منها كهوف يهبط إليها الزائر من الأعلى بسلم، وفيها محاريب منحوتة بدقة، كما عثر على بقايا عظام بشرية ومسارج زيتية وأدوات أخرى.



ديّان ينبش في موقع أثري فلسطيني

ورد في تقرير لسلطة الآثار الإسرائيلية في شهر آب عام 1959 أن بعض الوحدات العسكرية قد تسبب بأضرار للمنطقة الأثرية أثناء عمليات التدريب، وقد ثبت قيام بعض الضباط بسرقات لآثار من الموقع، ورفضت تسليمها آنذاك إلى أمين سلطة الآثار يوسف بن يوسف، وقد توقفت عمليات النبش إثر ذلك الحادث، لكن الموقع ظل مستباحًا، وفي صباح اليوم التالي، شوهد موشيه ديّان ومجموعة من الجنود، وهم يحفرون ويخرجون أباريق من قبر. وجرى استدعاء السيد بن يوسف مرةً أخرى إلى المكان، وعند وصوله طلب من ديّان ترك الأباريق والأسرجة، أو في الأقل نقلها إلى عهدة سلطة الآثار المحلية بصفته وصيًا على الآثار في هذا الموقع. لكن ديّان رفض الرضوخ للطلب، وقام بزيارة سلطة الآثار، واعترف بحصوله على بعض قطع أثرية

من موقع مجهول، كان قد سلمها إليه عسكري رفض الكشف عن هويته أو تحديد الموقع. وقامت المؤسسة العسكرية بتحقيقاتها أيضًا، وأوردت بعض التفاصيل في تقرير لها، بعد سبعة عشر عامًا، وقد كشف ديّان بنفسه، على نحو عرضي، عن شخصية العسكري السارق الذي أعطاه الأباريق وساعده في نهب الموقع. وكان عسكريًا برتبة جنرال اسمه ييكوتيل آدم، قاسم ديّان الهوس ذاته في نبش المواقع وتداول قطعها الأثرية.

- دير البلح

تُعدّ مدينة "دير البلح" العاصمة الإداريّة لمحافظة "دير البلح" الفلسطينية، وتقع على بُعد 14 كيلومتراً جنوب مدينة غزة، وكانت ترزح مباشرةً تحت نفوذ ديّان العسكري بعد عام 1967، الذي ربما قام أثناءها بتنفيذ معظم حفرياته هناك، حيث لم يواجه مؤسساتٍ حكوميةً فاعلةً تتصدى لنشاطاته غير القانونية، ولهذا السبب بالتحديد لا يُعرف سوى القليل جدًا عن نشاطاته في الضفة الغربية وغزة بعد نكسة حزيران عام 1967، وربما يمكن اعتبار سرقات ديّان من هذا الموقع هي الاسوأ، حيث جرى استخراج نحو خمسين تابوتًا فخاريًا من مقبرة قديمة كبيرة تقع بالقرب من البحر، وترقى إلى أواخر العصر البرونزي (نحو 1400– 1300 ق.م)، وقد غطت التلول الرملية الضخمة الموقع، وحمته من النهب طوال ما يقرب من ثلاث ألفيات. ومن الجدير بالذكر أن توابيت مماثلةً لها جرى الكشف عنها في مقابر بالقرب من دلتا النيل داخل مصر. وقد أثبتت توابيت دير البلح مديات التغلغل الثقافي المصري في بعض الأحيان، فالأغطية تحمل صورًا لأشكال تشير إلى وجوه المتوفين، والعديد منها لها لحى صغيرة، ربما ترمز إلى لحية أوزوريس (إله الموت المصري)، حيث يكون المتوفون على وشك الدخول إلى عوالمه. وعُثر إلى جانب هياكل الموتى في التوابيت، على التجهيزات الجنائزية، مثل أوعية الطعام الفخارية. وإذا كان المتوفى على شيء من الثراء فكانت تترك إلى جانبه أيضًا حلي ومجوهرات، وأواني حجرية وبرونزية.

توابيت دير البلح



ورد خبر نشره مُتحف إسرائيل في القدس عام 2008 يتعلق بتوابيت دير البلح، مفاده "الكشف عن بؤرة استيطان مصرية في كنعان من زمن الخروج". نلاحظ هنا الكيفية التي يحاول فيها مسؤول المُتحف تأرخة الأحداث بحسب التقاويم التوراتية، وذلك بالإشارة إلى زمن الخروج للتعريف بالفترة الزمنية التي يرقى إليها أثر في بلاد كنعان وفيه تأثيرات مصرية! مع غياب أية علاقة لليهود بالأمر من قريب أو من بعيد.

خاتمة

يورد ديّان في الصفحات الأخيرة من مذكراته (قصة حياتي) ما قد يلخص قناعاته الايديولوجية الدينية التي تبرر نشاطاته في الحفر والنبش الأثري ، فيصرّح بالقول :" عندما حاولت أن أدرس أكثر في مجتمع الكهوف القديم ونموذج حياتهم، كانت الحضارة الحديثة ممثلة في أصوات الطائرات النفاثة فوق رأسي تقطع استغراقي، وفحصت حطام الحيوانات المتبقية من وجبتهم الأخيرة، وكان سكان هذه الكهوف يعيشون فيه قبل سيدنا إبراهيم بالفي عام، وكانوا لا يقرأون ولا يكتبون، ولكنهم كانوا يرسمون على الصخور وكانت هذه منازلهم، منها يتحركون ليصطادوا في النقب وفي سيناء، يعرفون كل بقعة أرض لأنها أرضهم وموطنهم، ولا بد أنهم كانوا يحبونها، وعندما كانوا يتعرضون للهجوم كانوا يقاتلون في سبيل الحفاظ عليها، والآن أنا هنا في نهاية الجبل وفي داخل منازلهم؟ وكان شعوري غير عادي، فقد انتقلت إلى هذا الجو القديم، وبالرغم من أن النيران كانت مطفأة، فقد كنت أغلق عيني واتصور ربة المنزل تعد وجبة العائلة. عائلتي أنا).

وجهة نظر أبو القاسم سعد الله للاحتلال الصّهيوني لفلسطين

د. الزبير بن بردي

مقدمة

لقد كان أبو القاسم سعد الله من طينة المؤرّخين والمفكّرين الكبار الذين شغلتهم هُموم أمّتهم وقضاياها، فهو لا يتردّد في إبداء آرائه ومواقفه وتحديد رؤيته من قضايا السّاعة، فالثّابت الوحيد الذي يجب أن يكون محلّ الرّعاية الدّائمة والاهتمام المستمر في قاموسه هو مصلحة الأمّة لا غير، سواءً كان النّشاط يتناول قضيّة أدبية أو قضيّة دينية أو قضيّة سياسية، كان ذلك كُلّه حاضرًا وبقوّة لدى سعد الله المؤرّخ والمفكّر.

ورُغم اهتمام سعد الله الكبير بقضايا وطنه الجزائر، فإنّه لم يكن بمعزل عن قضايا أمّته العربية الإسلامية، إذ لم يكن مستوى وحجم اهتمامه بها أقلّ من اهتمامه بقضايا الوطن، ويأتي على رأس هذه القضايا، قضيّة فلسطين ومأساتها مع الاحتلال الصّهيوني. إذ خصّ القضيّة من بين العديد من القضايا العربية الإسلامية باهتمام خاص، نظرًا لما تحمِلُه من بُعْدٍ ديني بالخصوص.

1. تعريف موجز بأبي القاسم سعد الله

وُلد شيخ المؤرّخين الجزائريّين وقُدوة الباحثين الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله سنة 1930 بمنطقة "البدوع" غرب بلدة قمار. لم يكن والده أحمد سعد الله من أهل العلم، ولكنّه من رجال الإصلاح، أمّا أمّه العبيدية هالي فكانت حريصة على تعلّمه، لأنّها متأثرة بأخيها الشيخ الحفناوي هالي الذي تخرّج في جامع الزيتونة سنة 1936 وأصبح من رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

حفظ سعد الله القرآن الكريم بالكُتّاب على يد الشيخ بلقاسم بن البرية وعمره لا يتجاوز خمس عشرة سنة. والتحق في خريف سنة 1947 بالزيتونة لمواصلة دراسته. وفي سنة 1951 حصل على شهادة الأهلية، وبعد ثلاث سنوات تحصّل على شهادة التحصيل مُحتلاً المرتبة الثانية في دفعته.

وفي سنة 1955، توّجه إلى تونس ومنها إلى مصر، حيث قصد مقر جمعية العلماء بالقاهرة والتقى برئيسها الشيخ محمد البشير الإبراهيمي. كما انتسب في أكتوبر من نفس السنة إلى كلية الآداب والعلوم الإنسانية بدار العلوم. وفي جويلية 1959 تحصل سعد الله على شهادة الليسانس في اللغة العربية والعلوم الإسلامية. غير أنّه لم يكمل دراسة الماجستير في مصر، وتوجّه في نوفمبر 1960 إلى الولايات المتحدة الأمريكية. ومن حينِها تحوّل من أديب إلى مؤرخ، حيث تحصّل سنة 1962 على شهادة الماجستير في التاريخ والعلوم السياسية من بجامعة "منيسوتا MINNESOTA"، ثمّ على شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر سنة 1965.

وفي أكتوبر 1967 عاد إلى الجزائر وبدأ مساره الأكاديمي بجامعة الجزائر، حيث أنشأ أول قسم في تخصص الدراسات التاريخية. كما تبوّأ خلال مسيرته عدة مناصب ومسؤوليات في الجامعة الجزائرية، ودرّس في العديد من الجامعات العربية والأجنبية.

وفيما يتعلّق بإنتاجه وأعماله فهي عديدة، من أبرزها: تاريخ الجزائر الثقافي، وأبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، والحركة الوطنية الجزائرية. فضلا عن مؤلفاته الأخرى التي زادت على الأربعين، وتوزّعت على: التراجم، والتحقيق، والرحلات، وأعلام ودراسات، والإبداع الفكري والأدبي.

واللّافت للانتباه أنّ سعد الله نذر نفسه للبحث الْمُضني وكان ذلك على حساب صحته، وأوغل في هذا حتى اعترت صحته مجموعة من الأسقام، وانطفأت برحيله إلى دار البقاء يوم 14 ديسمبر 2013 شمعة مضيئة من شموع الوطنية والعلم والتاريخ.

2. خطر الصّهيونية

إنّ موقف سعد الله الدّاعم والمساند لقضيّة فلسطين باعتبارها قضيّة العرب والمسلمين الأولى والمركزية، وكذا لعُمق نظرته الفكرية والتاريخية، ومَلَكَته البحثية في أغوار الوثائق والأحداث، ومُعايشته الدّقيقة والفاحصة لأحداث القضيّة، جعله يتنبّه مُبكّرًا للخطر الصّهيوني على المنطقة، بل على العالم أجمع، وأكّد مرارًا أنّه يأتي في مُقدّمة أعداء الأمّة الذي ينبغي مواجهته، وأنّ اليهود الصّهاينة هم وراء أغلب الأحداث الكبرى في العالم في هذا العصر، وليس في المنطقة فحسب.

ويعد سعد الله الحركة الماسونية ووليدتها الحركة الصّهيونية هُما أخطر القِوى الغامضة التي تمخّض عنها القرن العشرون، فقد نجحت الحركتان في تفكيك الإمبراطورية العثمانية، وإسقاط الإمبراطورية السّوفياتية، وإقامة الدولة العبرية على أرض فلسطين العربية. بل إنّ الإمبراطورية الأمريكية نفسها إذا لم تسِرْ مع الحركتين في وئامٍ وانسجامٍ، فإنّ مصيرها حسب رأيه سيكون التفكّك والسّقوط أيضًا، لذلك فإنّ المسار الصّهيوني الماسوني والمسار الأمريكي مُتلازمان، ويتحرّكان جنبًا إلى جنب على إيقاع واحد، وليس في ذلك أيّ عجبٍ أو سر.

3. مقارنة بين الاحتلال الصّهيوني وتجارب الاحتلال المعاصر

يُحلّل سعد الله طبيعة الاحتلال الصّهيوني لفلسطين ويقارنه ببعض تجارب الاحتلال المعاصر في ممارساته وجرائمه، بل إنّه حسب رأيه قد تفوّق عليها في جزءٍ كبير منها، واقتدى بها واستفاد من تجربتها، فيؤكّد وجود تشابه بين ما حدث في الجزائر أيّام المارشال "بوجو" وما يحدث في فلسطين اليوم على يد الزّعماء الصّهاينة، فيقول عن ذلك: "وقد قادني إلى ذلك ما علِمته من أنّ الصّهاينة كانوا يستفيدون في عمليات الاستيطان من تجربة الفرنسيّين في الجزائر، حين كانوا يُجبرون الجزائريّين بشتّى أنواع الضّغط والحِيَل ليستولوا على أراضيهم، ثمّ يُقِيمون عليها المستوطنات للأوروبيّين، بل حتّى العقاب الجماعي ونسف البيوت والطّرد من الوطن، كلّ ذلك كان أسلوبًا مارسته إدارة الاحتلال الفرنسي عندنا، وما أشبه اللّيلة بالبارحة كما يقولون. ومن جهة أخرى لاحظت أنّ مصطلح الإرهاب الذي يُطلقه الصّهاينة على المقاومين الفلسطينيّين، قد أطلقه الاحتلال الفرنسي في الجزائر على كلّ الثوّار الوطنيّين خلال فترة الاحتلال من عبارات: الفلّاقة، والمفتّنين، والمتشيطنين، والمتعصّبين".

كما ربط سعد الله بين النّظام الصّهيوني المحتل لفلسطين وبين نظام التمييز العنصري السابق في جنوب إفريقيا "الأبرتايد"، إذ إنّ الصّهيونية تقوم تقريبًا على نفس القاعدة التي قامت عليها العنصرية في جنوب إفريقيا، أي التمييز العنصري والإيمان بالتّفوق على الآخرين، وإذا كان الضّحايا في إفريقيا هم الأفارقة السّود، فإنّ الضّحايا في الكيان الصّهيوني والأجزاء المختلفة من البلاد العربية والإسلامية هم الفلسطينيّون، ولكنّ الفرق بين النّظامين هو أنّ نظام جنوب إفريقيا يؤمن بالتفوّق اللّوني والعرقي،

أمّا الكيان الصّهيوني فيؤمن بالتفوّق الدّيني والتاريخي، وإذا كان النّظام في جنوب إفريقيا يكره أن يُسوّي بين الأبيض والأسود، فإنّ نظام الكيان الصّهيوني يكره أن يُسوّي بين اليهودي والمسلم.

وإذا كان سعد الله يُشَبِّهُ الاحتلال الصّهيوني لفلسطين في بعض مظاهره بالاحتلال الفرنسي للجزائر وبالنّظام العنصري في جنوب إفريقيا، فإنّه يُحدّد طبيعته باعتباره حوصلة لكلّ أنواع الاحتلال التي حدثت في العالم، ويقول في هذا الصّدد: "إنّ من سوء حظّ الفلسطينيّين أنّهم ابتلوا باستعمار من نوعٍ جديد لم يعرفه العالم من قبل في الكثير من أعماله ومُمارساته وجرائمه، فقد جرّب العالم كلّ أنواع الاستعمار، الاستيطاني، والاقتصادي، والانتدابي، والحمائي، والعسكري، وحتّى العنصري، ولكنّ الاستعمار الصّهيوني أصبح نوعًا فريدًا، ولعلّه هو خُلاصة كلّ تلك الأنواع مُضافًا إليها الأساليب النّازية والفاشيستية مجتمعة، ومُضافًا إليها أيضًا المخترعات العلمية التي تزيد من بشاعته وآثاره المدمّرة على الإنسان والعمران".

4. موقفه من داعمي الاحتلال الصّهيوني

أمّا موقف أبو القاسم سعد الله من داعمي الاحتلال الصّهيوني، فكثيرًا ما أشار إلى الموقف الأمريكي والأوروبي المنحاز بشكل كامل للكيان الصّهيوني، وداعمٍ له على حساب الحقّ الفلسطيني والعربي، فيقول عن الموقف الأمريكي على سبيل المثال: "نحن الذين درسنا في الجامعات الأمريكية نُحِسُّ بالتّناقض الصارخ بين ما تعلّمناه عن المبادئ الأمريكية، وبين تطبيقات الإدارة الأمريكية نحو الأمّة العربية، وبالخصوص نحو القضية الفلسطينية. إنّنا حقًّا أمام تناقضٍ صارخٍ بين المثالية والواقعية في سياسة الإدارة الأمريكية نحو القومية العربية عامّة والقضية الفلسطينية خاصّة، فهل نُصدّق ما تعلّمناه في الجامعات الأمريكية من مُثل عليا في الحرّية والعدل وتقرير المصير، أو نُصدّق ما تعيشه قضيّتنا الأولى فلسطين من مُمارسات أمريكية، قِوامها التعسّف والتجاهل ومصادقة العدوّ بلا حدود؟".

5. خطاب مُوجّه لإخوانه الفلسطينيّين

يُوجّه سعد الله خطابًا مُوجزًا لإخوانه الفلسطينيّين بقوله أنّهم –أي الفلسطينيّون– أولى النّاس بأن يعرفوا أنّ المطالبة بالحقِ عن طريق الاستجداء في الأمم المتّحدة وغيرها، لن تجعل العدوّ ينحني، ولن تجعل صديق العدوّ يُراجع أوراقه. فقد جرّب الفلسطينيّون ذلك ربع قرن أو يزيد دون جدوى، جرّبوه في الملاجئ، ومنظّمات الغوث، ومحافل العالم، فلم يجدوا منه إلاّ الشّفقة من البعض، والاحتقار من الآخرين. أمّا الانتفاضة الشعبية والثورة الجديدة المنتظرة –وبداياتها إن شاء الله مع طوفان الأقصى– فهي التي ستجلب إليهم احترام العالم، وتُعيد إليهم حقّهم المغتصب.

كما يأمل سعد الله في أن يُوحّد الفلسطينيّون صُفوفهم، وينبذوا خلافاتهم الفكرية، ويتخلّوا عن حبّ الزّعامة وكثرة الرؤوس. ودعاهم إلى أن يتعلّموا من الثّورة الجزائرية درسًا خالدًا، وهو أنّ لا بطل إلاّ الشّعب، ولا زعيم إلاّ السّلاح، ولا وسيلة إلاّ القوّة والوِحدة. وأن يتعلّموا درسًا آخر من الواقع المرّ، وهو أنّ وطننا العربي مليءٌ بالزّعامات، ولكنّها جميعًا مُزيّفة، لأنّها لا تُخيف عدوًّا ولا تُسند صديقًا.

الخاتمة

وفي الأخير لا يسع مفكّر ومثقّف مثل أبو القاسم سعد الله إلاّ أن يُبارك نضال المقاومة الفلسطينية التي بعثت الأمل في النّفوس بالنّصر مهما طال الزّمن، إذ يُؤكّد أنّ الذي يقف على أرضه وبيده السّلاح، ولو كان من حجارة، أفضل ألف مرّةٍ ممّن بيده منشورٌ سياسي يتجوّل به في المحافل الدّولية.

تلك إذًا هي نظرة المفكّر والمؤرّخ سعد الله للاحتلال الصّهيوني لفلسطين ولقضية فلسطين، القضية التي عاشها بوجدانه وفكره إلى أن وافاه الأجل وهو على ذلك ينتظر أملاً قريبًا.

قائمة المصادر

- بلغيث محمد الأمين: رحيل شيخ المؤرخين الجزائريين أبو القاسم سعد الله بأقلام أحبائه، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2014.

- بوالصفصاف عبد الكريم وآخرون: معجم أعلام الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ج2، منشورات مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، 2004.
- سعد الله أبو القاسم: حاطب أوراق، عالم المعرفة، الجزائر، 2015.
- سعد الله أبو القاسم: خارج السرب، عالم المعرفة، الجزائر، 2015.
- سعد الله أبو القاسم: منطلقات فكرية، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 2005.
- سعد الله أبو القاسم: في الجدل الثقافي، عالم المعرفة، الجزائر، 2015.
- سعد الله أبو القاسم: هموم حضارية، عالم المعرفة، الجزائر، 2015.
- قمعون عاشوري: العلامة الموسوعي الشهير الدكتور أبو القاسم سعد الله، الملتقى الدولي أبو القاسم سعد الله مؤرخا ومفكرا، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم العلوم الإنسانية، جامعة الوادي، الجزائر، 13-14 ديسمبر 2015.

وحدة الدراسات الفلسفية والتأويلية

الهولوكوست بين ماضي اليهود وحاضر فلسطين

"بحث في النصّ الدينيّ والواقع السياسيّ"

د. عبدالرحمن الشولي

لعلّ ما يحصل اليوم في غزّة من إبادة جماعيّة ووحشيّة في القتل والتدمير، يتجاوز بها الكيان الصهيونيّ جميع الشرائع والقوانين الدوليّة، ويضرب بمختلف وثائق حقوق الإنسان وحقوق المرأة وحقوق الطفل وحرمة الطبابة وحريّة الصحافة عرض الحائط وطوله.. يدعونا إلى تفحّص الأسس الدينيّة والخلفيّات الإيديولوجيّة والسياقات التاريخيّة التي أباحت لهذا الكيان فعله الوحشيّ الإرهابيّ في عصرنا الحاضر، والتي أغرقت ديمقراطيّات الغرب في حالة من الصمت والتأييد المقزّز، إذ إنّ ما يحصل في فلسطين من مجازر وانتهاكات لم يولد في السابع من أكتوبر نتيجة عمليّة طوفان الأقصى، ولم يولد سنة 1948 نتيجة الحرب الثانية، ولم يولد عندما أعلن تيودور هرتزل تأسيس الكيان الصهيونيّ سنة 1897 نتيجة الهوان الذي أصاب العرب، ولكنّه وليد نصوص التوراة وخطابات التلمود، ووليد أحداث سياسيّة تعيدنا إلى ماضٍ يسبق عصر موسى والديانة اليهوديّة. ذلك ما أودّ التطرّق إليه في هذا البحث، لنكشف حقيقة فكرة الهولوكوست وفعلها، والتي أعدّها صلب الصراع العربيّ الإسرائيليّ، في ثلاثة مواضع: مشروعيّته الدينيّة في النصوص اليهوديّة، وحقيقة تعرّض اليهود له في العصر الحديث، وحقيقة ممارسة اليهود له على الآخرين أو الأغيار، في الماضي والحاضر.

معنى الهولوكوست وأصله الدينيّ

دعوني أبدأ بتبيان معنى الهولوكوست في النصّ الدينيّ، لنفهم أبعاده السياسيّة. في سفر اللاويّين من التوراة العبريّة، في الإصحاح الأوّل، وردت كلمة "مُحرقة" في سياق حرق البهائم من البقر والغنم قربانًا للربّ، وتكفيرًا عن الخطايا لنيل رضاه. ففي الآية الرابعة من الإصحاح: "ويضع يده على المُحرَقة، فيرضى عليه للتكفير عنه". والهولوكوست مصطلح مشتقّ من مصطلح يونانيّ يعني "المُحرَق حرقًا كليًّا"، وقد ظهر المصطلح أوّل مرّة في ترجمة يونانيّة للتوراة العبريّة.. فمصطلح "هولوكوست"

في أصله يشير إلى طقس من طقوس قدماء بني إسرائيل، يتمثّل في حرق أضحيّات من البهائم كقرابين للتكفير. ثمّ اتّخذ المصطلح في الكتابات العلمانيّة والسياسيّة معنى "الدمار التام أو الكلّيّ"، وهو المعنى الذي أصبح سائدًا للكلمة منذ أواخر القرن التاسع عشر. غير أنّ مصطلحًا آخر ورد في التوراة، استُعمِل في العصور الوسطى بالمعنى الذي أصبحت تشير إليه كلمة "هولوكوست" من دمار كلّيّ، وهو مصطلح "شوعاه". وأيًّا يكن، فبين المعنيين علاقة وطيدة، أي بين معنى الحرق الذي يطال الكائن ومعنى الدمار الذي يطال الأبنية، إذ إنّ من يؤمن بمشروعيّة تدمير منطقة تدميرًا كلّيًا، يؤمن بأنّ حرق ساكني المنطقة حرقًا كلّيًّا مطلب للتكفير ونيل رضى الربّ، وبأنّ ساكني المنطقة أنفسهم قرابين من البهائم المشرَّع حرقها. لكنّ مصطلح هولوكوست أو شوعاه انحصر استعماله، بمعنى الحرق والدمار، للإشارة إلى قتل اليهود الأوروبيّين منذ أربعينيات القرن العشرين، وإلى الجرائم التي ارتكبها النازيّون، حسبما يخبرنا تاريخنا الأجوف. وهنا نسأل، إذا كانت الهولوكوست مصطلحًا أصيلًا في النصوص الدينيّة اليهوديّة، تعبّر عن طقس من طقوس اليهود، وتشرّع لهم ممارسته، فهل من أصل نصّيّ يشرّع لليهود افتعال هولوكوست في غير اليهود؟ وإلى أيّ أسس ارتكزت الإيديولوجيا النازيّة في شرعنة حقّ إبادة اليهود؟ وما حقيقة ذلك؟

مشروعيّة إبادة الأغيار واستعبادهم في النصوص اليهوديّة

تبيّن نصوص التوراة وخطابات التلمود، في غير موضع، أنّ خيرات الأرض منحت لليهود وحدهم، وأنّ غيرهم من الأمميّين، غير اليهود، وكلّ ما في أيديهم ملك لليهود، ومن حقّ اليهود، بل من واجبهم المقدّس معاملة الأمميّين كالبهائم، وأنّ الآداب التي يتمسّك بها اليهود لا يجوز الالتزام بها إلّا في معاملة بعضهم بعضًا، ولكن لا يجوز لهم، بل يجب عليهم إهدارها مع الأغيار، فلهم أن يسرقوهم ويغشّوهم ويكذبوا عليهم ويخدعوهم ويغتصبوا أموالهم ويهتكوا أعراضهم ويقتلوهم ويرتكبوا في معاملتهم كلّ الموبقات، والله لا يعاقبهم على هذه الجرائم، بل يعدّها قربات وحسنات يثيبهم عليها ولا يرضى منهم إلّا بها. كما يشير التلمود إلى أنّ اليهوديّ معتبر عند الله أكثر من الملائكة، فإذا ضرب أمميّ إسرائيليًّا فكأنّه ضرب العزّة الإلهيّة، والفرق بين درجة الإنسان والحيوان يقدّر بالفرق بين اليهود وغير اليهود. فيعتقد اليهود أنّ نفوسهم وحدهم

مخلوقة من نفس الله، لكنّ الله منحهم الصورة البشريّة تكريمًا لهم، في حين خلق غيرهم من الأمم من طينة حيوانيّة نجسة. يتلاقى هذا الاعتقاد الظاهر في النصوص اليهوديّة من اعتبار غير اليهود حيوانات نجسة مع خطاب وزير الدفاع الإسرائيليّ غالانت، عندما فرض الحصار الكامل على قطاع غزّة وقطع عنها جميع الإمدادات، بعد مرور أسبوعين من طوفان الأقصى، حيث قال: "نحن نحارب حيوانات على هيئة بشر، ونتصرّف وفقًا لذلك".

وعليه، يجد اليهود استعباد الأغيار وإهانتهم وتعذيبهم وقتلهم واغتصاب أرضهم وإبادتهم مشرّعًا في كتبهم، لأنّ الشريعة تقول بأنّ غير اليهود عبيد لليهود وأدوات لتحقيق غاياتهم. يقول حكماء صهيون في بروتوكولاتهم: "ستصغي الأجيال القادمة إلى تعاليمنا على دين موسى الذي وُكِّل إلينا، بعقيدته الصارمة، واجب إخضاع كلّ الأمم تحت أقدامنا". ويقولون في موضع آخر: "من أجل أن نظهِر استعبادنا لجميع الحكومات الأمميّة، سوف نبيّن قوّتنا لواحدة منها متوسّلين بجرائم العنف، وذلك هو ما يقال له حكم الإرهاب، وإذا اتّفقوا جميعًا ضدّنا فعندئذ سنجيبهم بالمدافع.. فخير النتائج في حكم العالم ما يُنتزَع بالعنف والإرهاب، لا بالمناقشات الأكاديميّة". فتمنح هذه النصوص اليهود حقّ استعباد غيرهم، والتحكّم بممتلكاتهم وتدمير أرضهم. كما ورد في الجمارا من التلمود من أمر بقطع الأشجار عند احتلال الأرض، ومحو أيّ أثر للآخر، وتغيير أسماء الأماكن، وهو تفسير علماء اليهود من الفريسيّين لجملة "وتقطعون سواريهم وتخربونها، وبعد احتلال الأرض تستأصلون الجذور". فذاك أمر شرعيّ بإبادة ساكني الأرض بعد احتلالها، ذاك أمر ربّانيّ مقدّس يدعو اليهود إلى افتعال الهولوكوست في غيرهم، إلى حرق الناس ومحوهم عن بكرة أبيهم. وبالتالي، تعتبر إسرائيل أنّ قتل المدنيّين والأطفال في غزّة وقصف المستشفيات والمدارس عبادة يتقرّب بها اليهود من الربّ، ويقدّمون له قرابين من الأطفال الخدّج، ليكفّروا عن ذنوبهم وآثامهم.

من هنا، تظهر معالم وحشيّة تعامل اليهوديّ مع غيره، تلك الوحشيّة التي لم تسلم منها الأقوام التي سكنت أرض فلسطين منذ العصور القديمة. فقد نقلت لنا التوراة قصّة انتصار يوشع بن نون ومن معه من بني إسرائيل على الكنعانيّين، سكّان فلسطين

القدماء، وكيف كان بنو إسرائيل يقتلون الرجال والنساء والأطفال في كلّ مدينة تقع في أيديهم بأمر الربّ يهوه. ورد في الإصحاح العاشر من سفر يشوع "أنّ يشوع ضرب جميع أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وجميع ملوكها وأهلك كلّ نسمة كما أمر الربّ، ولم يبقَ باقية منهم، فضربهم من قادش إلى غزّة، وانتصر عليهم لأنّ الربّ كان يحارب مع إسرائيل". وفي هذا السياق يقول ول ديورانت في كتابه "قصّة الحضارة": "كانت هزيمة العبرانيّين للكنعانيّين مثلًا واضحًا لانقضاض جموع جياع على جماعة مستقرّين آمنين، وقد قتل العبرانيّون من الكنعانيّين أكثر من استطاعوا قتلهم منهم، وسبوا من بقي من نسائهم، وجرت دماء القتلى أنهارًا، وكان هذا القتل- كما تقول نصوص التوراة- فريضة الشريعة التي أمر بها الربّ موسى، وزكاة للربّ. ولمّا استولوا على إحدى المدن قتلوا أثني عشر ألفًا وأحرقوها وصلبوا حاكمها. ولسنا نعرف في تاريخ الحروب مثل هذا الإسراف في القتل والاستمتاع به".

هذا النهج الإرهابيّ في القتل والاحتلال قرين بني إسرائيل مذ وُجدوا، حيث الإرهاب مقدّس في نصوصهم، وإبادة الشعوب وحرقهم فرض عين للتكفير ونيل رضى الربّ، وحيثما حلّ اليهود حلّ الظلم والحرب والحرق والإرهاب والعنف والدمار. فذلك مذكور في كتابهم المقدّس، في سفر أشعيا، في الإصحاح 59: "أعمالهم أعمال إثم وفعل الظلم في أيديهم. أرجلهم إلى الشرّ تجري وتسرع إلى سفك الدم الذكي، أفكارهم أفكار إثم، في طرقهم اغتصاب وسحق، طريق السلام لم يعرفوه وليس في مسلكهم عدل، جعلوا لأنفسهم سبلًا معوجة كلّ من يسير فيها لا يعرف سلامًا". وبعد، فما يؤخذ من هذه النصوص أنّ اليهود آلهة الحرب والإرهاب، أينما دخلوا قتلوا الصغير والكبير، والرجال والنساء، وحرقوا البلاد، وخرّبوا الديار، كما حصل عندما دخلوا فلسطين أيّام الكنعانيّين في العصر القديم وكما حصل عندما دخلوها في عصرنا الحديث، وكما يحصل اليوم في محاولة دخولهم غزّة.

جذور الصراع العربيّ-الإسرائيليّ والمخطّط الصهيونيّ

قبل تفصيل الحديث عمّا تشهده غزّة اليوم من عدوان هولوكوستيّ، إن جاز التعبير، أريد العودة قليلًا إلى الماضي لتبيان أصل العداوة بين العرب وبني إسرائيل، وجذور

الصراع العربيّ الإسرائيليّ والخلفيّات التي بني عليها المخطّط الصهيونيّ لاحتلال فلسطين الحاضر.

عندما خرج بنو إسرائيل من مصر، بعد سقوط حكم الهيكسوس، وبالتحديد في عهد رمسيس الثاني، للاستيلاء على أرض فلسطين، سعيًا إلى إقامة الوطن القوميّ الإسرائيليّ، كان يسكن فلسطين عرب عمالقة من نسل العرب اليبوسيّين الذين بنوا مدينة القدس في الألف الرابع قبل الميلاد، أي منذ ستّة آلاف سنة. تواجه بنو إسرائيل مع العرب العمالقة الذين سكنوا شرق سيناء وجنوب فلسطين في ذلك الوقت، فشهد موسى ويوشع بن نون حربًا معهم، وشهد بنو إسرائيل من عداوة شديدة ذاقوا مرارتها على يد العرب العمالقة، واستمرّت هذه العداوة أكثر من تسعة قرون، حتّى رجوع بني إسرائيل من السبي البابليّ إلى فلسطين في عهد الفارسيّ قورش. غير أنّ فكرة المخطّط الصهيونيّ لاحتلال فلسطين وجعلها وطنًا قوميًّا لليهود زرعت بذورها يوم دُكّت مملكة إسرائيل على أيدي الاشوريّين في القرن الثامن قبل الميلاد، ثمّ تطوّرت الفكرة إلى تأسيس حركة سياسيّة بعد خراب أورشيلم وحرق الهيكل للمرّة الأولى على يد نبوخذ نصّر وسيق اليهود أسارى إلى بابل سنة 586 ق.م. يقول إسرائيل كوهن في كتابه "هذه هي الصهيونيّة": "إنّ اليهود الذين سيقوا إلى بابل هم الذين وضعوا بذور فكرة التعصّب العنصريّ وتفوّق العرق السامي، وهم أصحاب فكرة العودة إلى جبل صهيون، حيث يسكن الربّ يهوه، وهم دعاة أسطورة شعب الله المختار". وفي سنة 163 ق.م قامت حركة المكابين بزعامة الكاهن متاثيا، وهدفت إلى إقامة دولة مستقلّة لليهود، ولكنّها فشلت، إذ قضى الرومان عليها قضاءً نهائيًّا سنة 37 ق.م.

وأيًّا يكن، فابن غوريون، رئيس وزراء إسرائيل الأوّل، يعتبر ثورة المكابين التي قامت منذ أكثر من ألفي سنة وفّرت لليهود الحريّة السياسيّة في القرن العشرين، كما ينوّه الرجل إلى قدِم الحرب العربيّة الإسرائيليّة التي تعود جذورها إلى حرب العبرانيّين والعرب العمالقة بين القرن العشرين والقرن الثاني عشر قبل الميلاد، إذ عندما بدأ الفدائيّون العرب سنة 1956 يباغتون اليهود في الأراضي المحتلّة، ويروّعونهم في الليالي المدلهمّة، صاح ابن غوريون في الكنيس: "هؤلاء أبناء العمالقة! هؤلاء أبناء العمالقة!"، وكأنّ صيحته تشير إلى أصل بداية الصراع العربيّ الإسرائيليّ المندلع في

القرن العشرين بعد الميلاد إلى القرن العشرين قبل الميلاد، بل كأنّه بصيحته يصرّح بأنّ عمر المخطّط الصهيونيّ لاحتلال أرض فلسطين وعمر المقاومة العربيّة المدافعة عن المنطقة أربع آلاف سنة.

انطلاقًا من ذلك، أي من الحركات الصهيونيّة القديمة التي انطلقت أفكارها منذ سنة 537 ق.م على الأقلّ، والتي سعت إلى عودة اليهود من بابل إلى فلسطين، إلى جبل صهيون، بيت الربّ، إلى أرض الميعاد التي سيعيد الربّ بناء هيكله فيها.. انطلاقًا من حركة المكابين الصهيونيّة، مرورًا بالحروب الصليبيّة التي سيّرتها أيادي فرسان المعبد، صهاينة العصور الوسطى، وصولًا إلى إعلان الحركة الصهيونيّة سياسيًّا إعلانا وقحًا بلسان تيودور هرتزل في أواخر القرن التاسع عشر، وإلى وعد بلفور في أوائل القرن العشرين، استطاع اليهود حياكة مخطّطهم الذي عملوا عليه مدّة ألفين وخمس مئة سنة، لاحتلال فلسطين وإبادة شعبها واستعباده في القرن العشرين بعد الميلاد، كما أبادوا شعبها واستعبدوه في القرن العشرين قبل الميلاد. وعليه، فالصهيونيّة ليست حركة سياسيّة حديثة العهد والولادة منفصلة عن اليهوديّة، ولكنّها حركة دينيّة ضاربة في عمق أعماق التاريخ، ومستنبطة من نصوص التوراة والتلمود.

ولعلّ ذلك يبيّن لنا أنّ الحرب القائمة في فلسطين منذ 75 سنة هي حرب دينيّة يهوديّة مقدّسة، وليست حربًا سياسيّة، وأنّ الهولوكوست أو الإبادة الجماعيّة التي نفّذها الكيان الصهيونيّ في دير ياسين سنة 1948, وفي الطنطورة سنة 1938، وفي قبية سنة 1953، وفي كفر قاسم ورفح سنة 1956، وفي بحر البقر سنة 1970، وفي وصبرا وشاتيلا سنة 1982، وفي الخليل سنة 1994، وفي جنين سنة 2002، وفي غزة سنة 2008 و2012 و2014 و2021، وأقبحها وأوقحها ما يجري اليوم في غزّة منذ أكثر من شهرين. هي طقوس دينيّة يطهّر بها اليهود أنفسهم الدنية من الخطايا ويكفّرون عن ذنوبهم بقتل الأطفال والرضع، قرابين لنيل رضى الربّ يهوه. وهنا نسأل: إذا كانت الهولوكوست شعيرة يهوديّة تدعو اليهوديّ إلى إبادة غيره، فلماذا قُرِن مصطلح الهولوكوست بمعاداة اليهود والسامية؟ أو بمعنى آخر، كيف أصبح مصطلح الهولوكوست متعارفًا عليه بأنّه مصطلح ضد اليهود، مع أنّه مصطلح يهوديّ بالمطلق، ولم يمارسه أحد في تاريخ الكوكب غير اليهود على غيرهم؟ قد تبدو الإجابة بسيطة،

أنّ هتلر وحزبه النازيّ حرق اليهود، وتلك هي الهولوكوست الممارسة ضدّ اليهود، والتي يحرم التحدّث عنها. ولكن، لا حرام في الفلسفة ومعرفة الحقيقة. فدعونا نكفر قليلًا بأوهام العوام وإيديولوجيّات الحرام، ونسأل: ما حقيقة النازيّة وهولوكوستها؟ وما صلتها بالمخطّط الصهيونيّ لاحتلال فلسطين وإبادة شعبها وتهجيره؟

يذكر لنا وليم كارل، كومندور سابق في المخابرات الأمريكيّة، في كتابه "اليهود وراء كلّ جريمة"، أنّ اليهود وكّلوا فلاسفة بمهمّة خلق إيديولوجيّات متناقضة تقسم الشعوب وتزيد حدّة التناحر والعنصريّة. ففي الوقت الذي كتب فيه كارل ماركس البيان الشيوعيّ تحت إشراف جماعة من النورانيّين الماسونيّين، كان البروفيسور كارل ريتر في جامعة فرانكفورت يؤسّس النظريّة المعادية للشيوعيّة، تحت إشراف جماعة أخرى من النورانيّين الماسونيّين، وهي النظريّة التي أشارت إلى تفوّق العرق الآري، ومهّدت لقيام الحركة النازيّة. وبعد عهد هرتزل، أتى الجنرال بايك بمخطّط يقتضي أن تنظّم الحركات العالميّة الثلاث: الشيوعيّة والنازيّة والصهيونيّة السياسيّة، ثلاثة حروب عالميّة. وكلّنا نعلم أنّ هدف الحرب الأولى تقسيم العالم العربيّ إلى دول ودويلات، ونشر الإيديولوجيا الشيوعيّة في روسيا وأوروبا الشرقيّة، وأنّ هدف الحرب الثانية إنهاء النازيّة بتوريطها بمحرقة يحيطها الشكّ والريب من كلّ حدب وصوب، لتمكين سلطان الصهيونيّة السياسيّة من إقامة دولة إسرائيل على أرض فلسطين. أمّا الحرب الثالثة، والتي نخوض بداياتها، فقضى مخطّط بايك اندلاعها بين الصهيونيّة السياسيّة وقوى العالم الإسلاميّ، ليكون الهدف أن يدمّر القوّتان بعضهما بعضًا، بغية التمهيد لسلطة إسرائيل المعلنة على العالم.

خلفيّات المحرقة النازيّة وهولوكوست الحاضر في غزّة

بالعودة إلى الحرب الثانية التي هدفت إلى إنهاء العرق الآريّ الألمانيّ، في سبيل إقامة وطن قوميّ لليهود، اتّفق ستالين وروزفلت وتشرشل على معاداة الألمان، وأكّد روزفلت لستالين أنّهم بعد الانتهاء من الحرب لن يكون هناك ما يكفي من الألمان لإثارة القلق.. وقد أمر فيما بعد بإطلاق النار على 50,000 ألمانيّ من دون محاكمة.. ولم تكف الصحافة الموجّهة عن الضرب على أوتار سياسة النازيّين الرامية إلى القضاء على الشعب الهيوديّ، ولكنّها لم تذكر سياسة روزفلت الهادفة إلى إبادة الشعب الألمانيّ

الآريّ. فحقيقة الأمر أنّ الثالوث الشيطانيّ، متمثّلًا بروسيا وأمريكا وبريطانيا، هدف إلى افتعال الهولوكوست في الشعب الألمانيّ، وأنّ الصهيونيّة السياسيّة سعت إلى حرق الشعب الألمانيّ وإبادته، لما لها من "حقّ الدفاع عن نفسها"، بالمقابل، لم يهدف الحزب النازيّ الألمانيّ، في بداية الأمر على الأقل، إلى حرق اليهود. ومع ذلك، فكثير منّا لا يعرف بأنّ الصهيونيّة العالميّة هي التي مهّدت الطريق لوصول أدولف هتلر إلى الحكم، كما يذكر ذلك وليم كارل، وهي التي عملت بإصرار على خلق الأجواء المناسبة لإثارة غضب الألمان على اليهود.

غير أنّ المحرقة النازيّة كانت محرقة صهيونيّة، ولم يكن هتلر سفّاح اليهود وحارقهم، إذ لم يكن هناك محرقة ولا غرف غاز، وحقيقة الأمر، كما صرّح به حكماء صهيون، أنّ اليهود حرقوا أنفسهم وضحّوا بمئات الألوف منهم ليكون مصرعهم ركيزة دعاية واسعة، يطالبون فيها بثمن دماء أبناء جنسهم. وكان الثمن تعويضات وصلت إلى مليارات الدولارات التي يدفعها الشعب الألماني حتّى اليوم صاغرًا، تكفيرًا عن ذنب لم يرتكبه.. ووطنًا قوميًّا لليهود على أرض فلسطين العربيّة. فلم تكن أرواح اليهود أولويّة الحركة الصهيونيّة، إذ يصرّح رئيس الوكالة اليهوديّة ابن غوريون سنة 1938 قائلًا: "لو كنت أعرف أنّ بالإمكان إنقاذ جميع الأطفال بنقلهم من ألمانيا إلى إنكلترا، بينما لا يمكن إنقاذ نصفهم بنقلهم إلى فلسطين، لاخترت الخيار الثاني". إن دلّ ذلك على شيء فإنّما يدلّ على لامبالاة الصهاينة بأرواح اليهود أنفسهم مقابل احتلال أرض الميعاد، وذلك ينقل لنا صورة الحاضر عندما لم يبالِ نتنياهو بأرواح الأسرى من اليهود بقصفه العشوائيّ جميع مناطق غزّة، لأنّ احتلال غزّة بالنسبة له وإقامة دولة إسرائيل عليها، ليس أهمّ من أرواح المدنيّين الفلسطينيّين فحسب، بل من أرواح المدنيّين اليهود أيضًا.

وأيًّا يكن، فادّعاء اليهود بحصول المحرقة النازيّة ادّعاء يعتريه الكثير من الشكّ والتضليل، وإن كان الإعلام الصهيونيّ يزوّر حقائق واقع نعيشه ونشاهده بأمّ أعيننا، فما بالكم بأحداث جرت في الماضي، ونقلتها كتب التاريخ التي أشرف على تدوينها الماسونيّة المتحكّمة بدور الثقافة والإعلام والاقتصاد العالميّ. وأوّل كذبة برزت في هذا النطاق، ولا زال الناس في الغرب يرفعون شعارها كلّما حاول مواطن أو مفكِّر

غربيّ إدانة إسرائيل، هي كذبة "معاداة السامية" التي يتّهم بها كلّ رافض لسياسة إسرائيل، ويسلم منها كلّ مطبّع ومطبّل لهذا الكيان الشيطانيّ. أقول بأنّ "معاداة السامية" كذبة، لأنّ اليهود الساميّين، أي المنحدرين مع العرب من نسل سام بن نوح، استقرّ بهم الأمر في بابل، ولم يعودوا مع العائدين عندما سنحت لهم الفرصة، أمّا اليهود الذي استقرّوا في أوروبا، ثمّ هاجروا إلى فلسطين في العصر الحديث فليسوا ساميّين من حيث الأصل العرقيّ، إذ انحدروا من سلالات الهيروديين أو الأيدوميين ذوي الدم التركي المنغوليّ. فهذه الأعراق غير السامية، والتي عُرفت بشعوب الخزر، شرعت في القدوم إلى أوروبا، منذ القرن الميلاديّ الأوّل، ثمّ بسطوا سلطانهم شيئًا فشيئًا على معظم مناطق أوروبا الشرقيّة. فمن هؤلاء اللاساميّين حرِق من حرِق في الحرب الثانية، إن كان هنالك محرقة، وهاجر من هاجر إلى فلسطين. ولم يبقَ ساميّون إلّا العرب، وكأنّ "معاداة السامية" في حقيقتها يجب أن يتّهم بها كلّ من يعادي العرب ويمارس العنصريّة تجاههم، وليس من يعادي اليهود المخنّثين، المنحدرين من أصل هجين.

لكن، من يجرؤ على التشكيك في المحرقة النازية أو شعار اللاسامية؟! إذ نجحت المنظمات اليهودية في العالم في جعل الهولوكوست الحدث الأهم في القرن العشرين وما بعده، والذي أصبح الطفل الأبديّ المعاق الذي تشحذ عليه إسرائيل أموالها من الغرب، كما يوضح ذلك نورمان فينكليشتن في كتابه "صناعة الهولوكوست: تأمّلات حول استغلال معاناة اليهود"، حيث يبيّن كيف استغلّت الصهيونيّة السياسيّة الهولوكوست لتشحذ من الغرب الأموال والمساعدات، ولتبتزّ الغرب بكذبة لعينة وتستغلّه سياسيًّا واقتصاديًا وثقافيًّا وعسكريًّا وإعلاميًّا إلى الأبد. والتي تتّخذ منه إسرائيل اليوم ذريعة للهولوكوست الذي تمارسه في فلسطين وسط صمت عالم مؤدلج أهلك أسماعنا بشعارات الديمقراطية، معترفًا بحقّ إسرائيل بالدفاع عن نفسها، بحرق الأطفال وبتر أعضائهم وقطع الاوكسيجين في المستشفيات عن الأطفال الخدّج، وهدم المنازل والمدارس والمستشفيات والمساجد والكنائس، ومحو عائلات كاملة من السجلّات، متعمدة فعل ذلك كلّه ومستهدفة عن سابق قصد وتصميم المدنيّين من النساء والأطفال بقذائف تتراوح بين قذائف نارية حارقة وقذائف حديديّة باترة وفوسفور أبيض محرّم

دوليًّا على الجنس الأبيض، ومباح الاستعمال على الجنس الأسود والأصفر والأحمر، وعلى كلّ عربيّ، وعلى كلّ مسلم. وكلّ من يعارض إسرائيل في إرهابها هو إرهابيّ مطلوب للعدالة، وكلّ من يتحدّث عن جرمها مهدّد بالقتل أو النفي أو الطرد من العمل أو البلد أو إلغاء حسابه في وسائل التواصل الاجتماعيّ على أقلّ تقدير. ألم تسحب فرنسا الجنسيّة بمن شكّ مجرّد الشكّ في الهولوكوست؟ ألم تصدر ألمانيا قرارًا منذ أيّام بعدم منح الجنسيّة لمن لا يعترف بدولة إسرائيل؟ ألم يهرع فلاسفة أمثال هابرمس إلى الوقوف موقف المدافع عن إسرائيل؟ ألم تُحرَّم كتب روبير فوريسون في معظم الدول الأوروبية "الديمقراطية"، لأنّه كشف فيها كذبة الهولوكوست؟ أولم يُلغَ مؤتمر "الصهيونيّة والمراجعة التاريخيّة" الذي كان مقرّرًا عقده في بيروت في مارس 2001، والذي كان فوريسون ينوي فيه نقل الحقيقة إلى قادة العرب بسبب الضغوط الهائلة التي مارستها المنظّمات الصهيونيّة في الداخل والخارج؟ ألم يهدّد راسينييه بالإقصاء والقتل بعد أن كشف في كتبه "عوليس يخونه أصدقاؤه" (1960)، و"محاكمة أيخمان الحقيقية" (1962)، و"دراما اليهود الأوروبيّين" (1964)، و"المسؤولون عن الحرب العالمية الثانية" (1967) أنّه لم يكن هناك قط غرف غاز أو إبادة في معسكر أوشفتز، حيث عثر في المعسكرات على الخرائط الأولى لتصميم مباني المحرقتين، الأولى والثانية، والتي زُعِم أنّهما كانتا تحويان غرف الغاز، أثبتت الخرائط أنّ تلك الغرف لم تكن سوى مستودعات لحفظ الجثث التي قُتلت جرّاء أسباب عامّة خلّفتها الحرب، ومات فيها من مات، نتيجة الصراع وإطلاق النار والمجاعة وغير ذلك؟

ويستمرّ التهريج والتلاعب بمصائر الشعوب العربيّة والغربيّة ومفكّريها وفلاسفتها، ويساق كلّ مفكِّر حرّ وكلّ مواطن شريف سمح لذاته العاجزة البوح بحقّ الشعب الفلسطينيّ بالمقاومة والعيش الكريم على أرضه إلى المقصلة الباردة، فيجرّد من حقوقه بحجّة معاداة السامية لمعاداته شعبًا هجين يمارس العنصريّة الوقحة ضدّ العالم كلّه. ويستمرّ ترديد الدعايات وتضخيم المبالغات والتباكي على ما وقع في الماضي أو لم يقع من محرقة زائفة وهولوكوست مُتخيَّل، تبتزّ به إسرائيل الدول الأوروبيّة، وتستغلّ الهولوكوست المزعوم لتشحذ من الغرب قوّتها الاقتصاديّة والعسكريّة، في الوقت الذي تنفّذ فيه هولوكوستَ حقيقيًّا في فلسطين، وتشنّ أعنف هجوم عسكريّ ليلًا ونهارًا، ضدّ

شعب أعزل يطالب بحقّه في الحياة. فما يحصل اليوم في غزّة، وما حصل قبلها في الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة ليست حربًا، بل إبادة جماعيّة، ودمارًا شاملًا، واستهدافًا مقصودًا للمنازل والمدارس والمستشفيات والمدنيّين، وتجويع وتخريب وطرد واستبعاد واستعباد وهدم منازل واغتيالات منظّمة وقتل عشوائيّ بمختلف أنواع الأسلحة، من دون أن تحرّك الديمقراطيّات الغربيّة ساكنًا منذ خمس وسبعين سنة، ومن دون أن تهتمّ أجهزة الإعلام في الغرب بتلك الإبادة الحاضرة، بهذا الهولوكوست الحاضر والمنتشر بالصوت والصورة أمام جميع الناس، مقابل اهتمامها المتزايد بهولوكوست الماضي ضد اليهود، وكأنّها تبرّر ما يتعرّض له الشعب الفلسطينيّ، بما تزعم المنظّمات الصهيونيّة التي تسيطر على أجهزة الإعلام أنّه وقع لليهود في أوروبا على أيدي النازيين، ومن دون أن يتجرّأ أحد على رفع صوته محذّرًا من النازيّة الحقيقيّة والفاشيّة الأشدّ والأعنف من أيّ إيديولوجيا إرهابيّة شهدها التاريخ الإنسانيّ والحيوانيّ، وهي الصهيونيّة السياسيّة التي تضرب وتحرق وتدمّر يومًا بعد يوم شعبًا بأسره وأرضًا برمّتها.

* * *

بناءً على ما تقدّم، نرى أنّ الهولوكوست كان وما زال الأساس الأخلاقيّ الذي تقوم عليه دولة الاحتلال الإسرائيليّ، وفي نهاية أسطورة الهولوكوست نهاية الصهيونيّة التي تأسّست على أكثر النظريّات العنصريّة والأفكار التدميريّة والمرجعيّات النصيّة التي تبرّر الإرهاب وتشرّع الإبادة وتقدّس الحرق والذبح: تدمير شعب كامل ومحاولة زرع شعب آخر مكانه، تحميها في ذلك الولايات المتّحدة الأمريكيّة التي أبادت سكّان أمريكا الأصليّين وحرقت سكّان هيروشيما ونغازاكي، والدول الأوروبيّة التي أبادت نصف سكّان الأرض في حربين عالميّتين. ولكن، ما شأن دول عربيّة وإسلاميّة تعقد قمّة أدنى من الهاوية وتعجز أن تتّخذ قرارًا لم تعجز ممثّلة أفلام إباحيّة عن اتّخاذه؟ أتراها كانت تربّي شنبًا منتصفًا تحت أنفها ومتورّطة في حرق اليهود المزعوم في ألمانيا، فشعرت بالذنب وباركت للكيان مذابحه؟ أم تراها خجلة وجلة من إدانة الكيان الصهيونيّ ومحاربته لما فعلته بشعوبها وأبناء جلدتها من مجازر مشابهة؟ أم تراها؟ أم تراها؟ ويبقى سؤال الشرف والإنسانية يتمحور حول الدول العربيّة والإسلاميّة.

وفي النهاية، أقول إنّ شعوب العالم بدأت تعي الحقيقة اليوم، حيث أدركت أنّ الهولوكوست لم يقع في ألمانيا بين سنة 1941–1945، بل وقع في أمريكا الشماليّة بين سنة 1622–1924، ووقع في اليابان سنة 1945، ووقع في فلسطين سنة 1948، ووقع في العراق سنة 2003، ووقع في لبنان سنة 1982، ووقع في سورية سنة 2011، ويقع الآن أشنع هولوكوست على الإطلاق في غزّة. أدركت الشعوب ذلك، ولكن أنّى للحكومات العربيّة والإسلاميّة الديمقراطيّة أن تدرك، إذا كان شياطين الولايات المتّحدة الأمريكيّة وإسرائيل هم الذي رشّحوا رؤساء دولنا وانتخبوهم ونصّبوهم جلّادين شعوبهم، وخائنين أوطانهم، وعملاء عدوّهم.

المراجع المُستنَد إليها

- الأشقر، جلبير. العرب والمحرقة النازية: حرب المرويات العربيّة–الإسرائيليّة.
- أيبش، أحمد. التلمود: كتاب اليهود المقدّس.
- بروتوكولات حكماء صهيون.
- بيجنت، مايكل. فرسان الهيكل والمنهل الماسوني.
- التوراة العبريّة.
- حلاق، حسان. قضايا العالم العربي.
- ديورانت، ول. قصّة الحضارة.
- طنطاوي، محمد. بنو إسرائيل في القرآن والسنة.
- فوريسون، روبير. أكذوبة المحرقة اليهوديّة.
- فينكلشتن، نورمان. صناعة الهولوكوست: تأمّلات حول استغلال معاناة اليهود.
- كارل، وليم. اليهود وراء كلّ جريمة.
- كوهن، إسرائيل. هذه هي الصهيونيّة.
- المسيري، عبدالوهاب. موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.
- منى، زياد. مقدمة في تاريخ فلسطين القديم.
- موقع الجزيرة الإخباريّ.
- Lazare, Bernard. Antisemitism: Its history and causes.

البعد الديني في الصراعات الإقليمية

د. عزالعرب لحكيم بناني

مقدمة

أتعرّض للإشكاليّة التّالية: نتحدَّث عن استثمار الدّين في الصّراعات السياسيّة بطرق متباينة، على قدر فهم العلاقة بين العقيدة والشريعة في اليهودية والإسلام. يظلُّ الموقف التقليديُّ من الدّين، سواءً في اليهوديّة أو الإسلام، موقفًا يُغلّبُ الشَّريعة على العقيدة. هذا الموقف واسع الانتشار ويعتقد أنَّ الدّين سياسةٌ ودولةٌ قبل أن يكون عقيدةً وضميرًا فرديًّا. نعرف الموقف الذي دافع عنه كارل شميت وهانس ميير وناقشه يان آسمان Jan Assmann : Moses, der Ägypter، وهو موقف كان يعتبر أنَّ الأنبياءَ قد تقلدُوا منصب الملك والإمامة، فكان داوود وسليمان وموسى ملوكًا وأنبياء في ذات الوقت.

الإسلام واليهودية بين الشريعة والعقيدة

يعتبر ليو ستروس أنَّ الإسلام واليهوديّة ديانتا تشريع بامتياز. يقول: "إن اللاهوت المُلهَم بالنسبة للمسيحي هو العقيدة المقدَّسَة، وهو يتجسَّدُ لدى المُسلم في التَّأويل القانوني للشريعة الإلهيّة (في التَّلمود والفقه). ولذلك فإنَّ العقيدة الإسلاميّة المتصلة بالفقه لم تنفتح على الفلسفة، بنفس القدر الذي لم تنفتح العقيدة اليهودية كذلك عليها. هذا هو السّببُ الذي جعل منزلة الفلسفة غير مستقرّة لا في اليهوديّة ولا في الإسلام. على خلاف اليهوديّة والإسلام، أصبحت الفلسفة جزءًا لا يتجزأ من العقيدة المسيحيّة. وأصبحت مواد الفلسفة جزءًا من التكوين الجامعي الكنسي.[24] بما أنَّ علم العقيدة لم يجد تسويغًا عقليًّا له، سواءً في اليهودية أو في الإسلام السني، لم تجد الفلسفة مدخلا لها إلى اليهودية والإسلام إلا من مدخل الشريعة، مثل استثمار المنطق في أصول الفقه.

[24] Leo Strauss : La persécution et l'art décrire, Presses Pocket, Collection Agora, 1989, p. 48.

إن تصور العقيدة بالشريعة في اليهودية والإسلام حسب وجهة نظر ليو ستروس استمرار موقف تقليدي نجد إشارةً إليه لدى كانط عندما لم يعتبر اليهوديّة ديانةً حقيقيّةً على خلاف المسيحية، بل هي مجرَّدُ مذهب تشريعي، مثل غيرها من التشريعات التي أنتجتها مختلف الشعوب والقبائل.

غير أنَّ التصور التقليديَّ اعتبر المسيحيّة ديانة الحبّ، بينما أصبحت اليهودية والإسلام منظومتين قانونيّتين. وهو تصور يحتاج إلى مراجعة شاملة. يتقاطع تأويل ستروس مع المذاهب الفقهية الأصولية والمتطرفة في تأويل آيات الأحكام. (يمكننا أن نتخيل المذاهب الفقهية التي تركز بالأساس على التأويل الحرفي للنصوص الشرعية وعلى الإسلام الجهادي).

على خلاف هذا الموقف نجد أن بعض التصورات الفلسفية والمذهبية في الإسلام واليهودية تتخذ موقفًا مضادًا من التصور السّابق، وتعتبر أنَّ الدين في مجمله عقيدة، قبل أن يكون شريعة.

الدين: العقيدة والشريعة بين الأغلبية والأقلية

إنَّ المنظور الشّرعيَّ إلى الدّين يبتغي استثمار الدّين في بناء الدّولة، وجمع شمل الأمّة وترسيخ التفوُّق العددي. غير أنَّ المنظور العقدي إلى الدّين يبتغي استثمار الدّين في بناء الفرد، وتحقيق القيم الأخلاقيّة الذّاتية، عند صعوبة بناء الدّولة أو وجود الإسلام من بين الأقلّيات الدّينيّة في المجتمع.

وقد كانت اليهوديّة ديانة أقليات دينيّة في دول الشّتات، وأصبح الإسلام ديانة أقلّيات في بلدان المهجر أو حتى داخل فلسطين، بين مواطني الدّولة العبريّة.

حينما كان الإسلام ديانة تشريع في جوهره، كان التّمييز معتمدًا بين دار الإسلام ودار الكفر، وكانت الهجرة متجهة على الدَّوام إلى البلاد التي تحتكم إلى الإسلام، لاسيّما خلال الحملات الاستعماريّة.

حينما ننظر إلى الإسلام كديانة تعبُّدٍ وعقيدةٍ في جوهره، يختفي التَّمييز الواضح بين دار الإسلام ودار الكفر، وتصبح الهجرة جائزةً إلى البلاد التي لا تحتكم إلى الإسلام، لا سيّما خلال الهجرة لأسباب اقتصاديّة أو سياسيّة أو ثقافيّة. تطوَّرَ فقه الدّولة في

حالة إسلام الأغلبيّة وتطوّرَ في المقابل فقه الأقلّيات في حالة الجاليات الإسلاميّة في أرض المهجر.

غير أنَّ المشترك بين يهود الشَّتات والجاليات الإسلاميّة في أرض المهجر، هو أنَّ الدّين دينُ أقلّياتٍ. وهنا نعتبر أنَّ تجربة يهود الشَتات أقدمُ بكثير من تجارب الأقليات الإسلاميّة، سواءً كانوا بين المهاجرين أو عرب 48 في فلسطين.

ما يميّز الأقلّيات بوجه عامٍ هو أنّها تنتمي إلى بنية سكانية لا تمتلك ناصية الحكم ولا سلطة رسميّةً ولا تفوّقًا اقتصاديًّا؛ مع الانتباه إلى أنّ الأغلبيّة والأقلية ليست مسألة عدديّة. قد يكون العرب أقلّية عدديّة وأغلبية ثقافيّةً، إذا ما كانت العربيّة هي اللغة الرسميّة أمام لغات أخرى؛ ولذلك فإنَّ. الأقليات تحاول رفع التحدّي في المجالات التي لا تنافس فيها الأغلبيّة (قارن كلام ابن خلدون في المقدّمة الفصل 26، إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب، من زاوية فكرة الأغلبية والأقلية وليس من زاوية التجني على العرب). وعليه، كانت الأقلياتُ تنافس الأغلبيّة في المجال الثقافي. لا تكترث الأغلبيّةُ إلا لتعزيز سلطانها السياسي والمالي، بينما تبذُلُ الأقلياتُ مجهودًا أكبر من أجل تعزيز هويتها الثّقافيّة. وهذا ما قام به يهود الشتات.

يهود الشتات وأولوية العقيدة على الشريعة

أضرب مثالا واضحا لذلك من رسالة الدكتوراه التي كتبها إريش فروم سنة 1922 بجامعة هايدلبيرغ في ألمانيا

Das jüdische Gesetz. Zur Soziologie des Diaspora Judentum, vol. XI. 1989 ; The Jewish Law. A contribution to the sociology of the Jewish Diaspora (1922).

كانت الفكرة الأساس هي "ابتكار عقيدة ملزمة على المستوى العالمي، وهي التي معززة بهدف الحفاظ على وحدة الفرقة من خلال الصياغة الملزمة للحساسية الدينية والفكر الديني."[25] وقد تطور هذا التصور مع فرقة القرّائين التي كانت تؤمن بأنَّ اتّباع القانون

[25] The Jewish Law. A contribution to the sociology of the Jewish Diaspora (1922). Erich Fromm Stiftung, 6/ 2022, p. 61.

مسألة فرديّة، بينما الحفاظ على العقيدة مسألة جماعية[26] individualism of the law and collectivism of faith. وحاول يهود الشتات الاندماج في الثقافات الجديدة والأنظمة السياسية والإصلاحات المتعاقبة على أوروبا، رافعين شعار "دراسة التوراة، وتلقي تربية علمانية". فتحوَّل القانون بين أيديهم إلى منظومة متحجّرةٍ من العادات التي تبنّاها أناس كانوا قد اندمجوا بالكامل في الجسم التاريخي الأجنبي."[27] وقد أنشأ يهود الشتات جمعيات لإصلاح اليهوديّة قصد مجاراة الإصلاحات المسيحية وفكر الأنوار.[28]

النتيجة، حاول يهود الشتات الاندماج في البلدان الأجنبية، من خلال الاستفادة من حركات الإصلاح التي عرفتها اليهودية مبكرا، لاسيما مع حركة القرائين Bn'ai mikra وهي من "قرأ"، وكان المؤسس هو عنان بن داوود، الذي أنشأ فرقة جديدة سنة 761 على عهد أبي جعفر المنصور، حينما دخل في صراع مع أخيه بخصوص التعيين في منزلة الحاخام، أي ممثل اليهود لدى السلطات. غير أن الخليفة قد أدان التمرد الذي قام به، وقد أنقذ نفسه بالادعاء أنه قد خلق ديانة جديدة وهي مختلفة عن الديانة الحاخامية وقريبة من الإسلام.[29] وقد تأثرت حركات الإصلاح الديني بالوراقين، لأنها بذلك كانت تنجو من الصراعات السياسية وتحافظ على هويتها الثقافية واللغوية.

الفصل بين العقيدة والشريعة لدى عرب 48

ألا نجد نفس الطريقة في معالجة الصراع بين الهوية الثقافية وطبيعة الدولة السياسية، حينما نأتي إلى مقاربة البعد الديني الإسلامي من زاوية عرب 48 ؟

أعتمد كتاب صبحي ريان.[30]

أبدأ بالإشكال الذي ناقشه صبحي ريان: لم يرد مفهوم الثوابت الإسلامية في الأدبيات الإسلامية القديمة، ويعني بالثوابت ما لا يخضع للمساومة ولا للمفاوضة، مثل العلم

---

[26] المصدر نفسه، 61.

[27] المصدر نفسه، 73.

[28] نفسه، 76، 77.

[29] نفسه، 42.

[30] النهج الجديد وقضايا المجتمع العربي في إسرائيل. دار الهدى للطباعة والنشر كريم. م. ض.، 2022.

اليقيني الذي لا يدخله شك. هنا يميز بين العقيدة التي تعني التوحيد الذي يتجاوز الزمان والمكان وبين الشريعة التي تدخل مجالات الحياة المتغيرة. تحويل المتغيرات إلى ثوابت فكر دخيل لا ينسجم مع ثوابت الإسلام. فانتهاك القواعد الجنائية لا يؤدي إلى الكفر، على خلاف الخروج عن مبادئ العقيدة.[31] اعترض ريان على وجود الثوابت، لأنها مجرد قضية ذهنية، لا وجود لها في الواقع ما دام الواقع يتغير باستمرار، "ويكون جعله ثابتا يعني تعطيل االشريعة من حيث سلب صلاحها لكل زمان ومكان. فالعلاقة بين الثوابت والواقع، وإن ئيت بين العقيدة والشريعة ، هي علاقة تناغم وانسجام، لكنهما ليسا الشيء نفسه، لأن الثوابت كليات والواقع جزئيات."[32] هكذا، فصل مسألة العقيدة عن السياسة والشريعة، معتبرا أن الخطاب السياسي يمتاز "بميزة التغير وعدم الإطلاق والثبات" (99) و"تكمن قوة الخطاب السياسي وفاعليته في نجاحه بمناسبة الخطاب للواقع الذي يسعى المتكلم للتأثير به وتغييره، بمعنى ملاءمة الخطاب للمرحلة الراهنة" (100). وقد اعتبر ريان أن تصوره السياسي نهج جديد "يسعى لانتزاع الحقوق العربية من أنياب الحكومة الإسرائيلية بخطوات عملية ومدروسة، خطاب مسؤول يهدف إلى إحداث تغيير في واقع المجتمع العربي، يعي ذاته وقدراته وحجم التغيير الممكن في هذه المرحلة، حيث نجح في ترتيب أوليات الحقوق العربية بما يتلاءم مع قدراته" (100). وقد انعكس تصور المؤلف على فهم مقاصد الشريعة، من خلال المقارنة بين الكليات في العقيدة والجزئيات في الشريعة، وهو يعني بها السياسة، فالكلي ينتمي إلى الأحكام العامة، فقام بتأويل نظرية المقاصد من خلال المصلحة العامة التي تتقدم على المصلحة الخاصة.[33] ولا يعني ذلك إهمال الجزئي "بما أن الجزئي بطبيعته ليس مطلقا ولا ثابتا، بل محكوما للنسبية، يكون الضرر والنفع نسبيين أيضا، لأن محلهما الجزئي. ويكمن جزء أساس من حماية أهداف الشريعة وتعزيزها في القبول بأن الفوائد التي يحصل عليها الإنسان في هذا العالم والآخرة نسبية غير مطلقة." (بالعودة إلى وائل حلاق، 111)؛ وهذا ما ينطبق

[31] النهج الجديد وقضايا المجتمع العربي في إسرائيل. دار الهدى للطباعة والنشر كريم. م. ض.، 2022، ص. 97

[32] المصدر نفسه، 98.

[33] صبحي ريان: مقاصد الشريعة الإسلامية وتحديات العصر، دار الكتب العلمية، 2021، ص. 110.

على نسبية مبدأ الإباحة والتحريم (ما هو مباح للأفراد وهو إخراج المال من البنك محظور على الجميع وهو إخراج أموال كل المواطنين في نفس الوقت من البنك). "يتحول المباح في حالة انتقاله من الجزئي إلى الكلي إلى أحكام المندوب والواجب والمكره والحرام." وكما أن "الفعل قد يكون مباحا وجائزا على مستوى الفرد المكلف... لكن هذا العمل يتغير حكمه في حال تعميمه." (115). وقد أضاف ريان إلى الجزئيات العمل بما هو مسكوت عنه (كما ذهب الشاطبي إلى ذلك) وهو خلو بعض الوقائع من حكم الله.

قام الباحثون في العلوم الدينية لدى عرب 48 بتأويل البعد الديني بما يتلاءم مع خصوصيتهم، لاسيما "في ظل وضعية الأقلية العربية التاريخية، وتبعيتها إلى قوى خارجية سياسية ودينية . وكان لهذه العلاقة الإملائية تأثير على صياغة هوية المجتمع العربي واستقلاله الفكري والسياسي."[34]

خاتمة

أتساءل، ألا يشبه النهج الجديد الذي اقترحه صبحي ريان نهج فرقة القرائين؟ هل يمكننا إيجاد صلات وصل بينهما، من حيث الحفاظ على البعد الروحي، وقبول الأمر الواقع على المستوى السياسي والاندماج في المجتمع الغريب والمختلف في هويته الدينية؟ هل بإمكان البعد الروحي الفردي أن يتدارك التحديات التي ترفعها التحديات السياسية؟ ألا يمكن أن تؤثر الصراعات التي تنخر المجتمع السياسي، والتهميش الذي يطال الأقليات الدينية، على البعد الديني العقدي، فيحوله من عقيدة أخلاقية فردية إلى عقيدة جهادية؟ كيف يمكن مواجهة الدعوات إلى إيجاد رابطة إسلامية مشتركة تتجاوز الخصوصيات السياسية العابرة؟ كيف يمكن مواجهة إشكال عزلة ديانة الضمير الفردي أمام الدعوة إلى لمّ صفوف المقاومة باسم الدين، كما هو حال "لاهوت التحرير" وهو الكتاب الذي أصدره في البيرو(Gustavo Gutiérrez) سنة 1972 ؟

[34] النهج الجديد وقضايا المجتمع العربي في إسرائيل. دار الهدى للطباعة والنشر كريم. م. ض.، 2022، 102/ 103.

نطرح هذا السؤال في ظل مواجهة الدعوة إلى استقلال القرار السياسي والتخلص من التمويل الخارجي، وهو نقطة ضعف كل المنظمات، بموجة من "السخط والاستياء العارم من قبل الأحزاب العربية كافة، تجندت في سبيله كوادرُ الأحزاب والمثقفون حراس قيم التبعية داخل البلاد وخارجها."[35]

حاولنا أن نطرق الجزئيات المتصلة بالموضوع، من زاوية تأثير الصراعات السياسية الجهوية، الإسرائيلية العربية، على فهم علاقة الشريعة بالعقيدة.

---

[35] المصدر نفسه، 104.

يورغن هابرماس وفلسفة المعايير المزدوجة

د. محمد الأشهب

تسعى المداخلة إلى التدليل على أن فلسفة المعايير المزدوجة لم تحضر فقط في الموقف الأخير الذي عبر عنه هابرماس في بيان مبادئ التضامن Grundsätze der Solidarität الذي وقعه بمعية فلاسفة آخرين ينتمون للنظرية النقدية. بل في أعماله السابقة.

ولتوضيح ذلك تشير الورقة إلى العناصر التالية:

- إن فهم الموقف الهابرماس من المسألة يقتضي العودة بالدرجة الأولى إلى سيرته الذاتية حيث أن تفكير هابرماس لا يفهم إلا في استحضار الماضي الألماني بعد الحرب العالمية الثانية و حالة الهولوكوست. فهذا العبء يخيم على هابرماس و على جيله إلى اليوم. و هو العبء الذي يعمي بصيرته ومنعه من مساندة الحق و العدل.
- تقديم بعض العناصر من البيان والتعليق عليها لإبراز أن هابرماس كان منحازا لإسرائيل و غير منصف للشعب الفلسطيني بالمرة. (انظر الترجمة الكاملة للبيان مع التعليق الذي قدمته عليه)
- العودة إلى موقفه من الإرهاب في 11 من شتنبر 2001 حيث في جواب لبورادوري في تعريفه للإرهاب لم يجد أمامه سوى المقاومة الفلسطينية التي لم يصنفها كذلك معتبرا إياها مثالا يجسد الإرهاب القومي في الوقت الذي اعتبر الشيشان حركة مقاومة مطالبة بالاستقلال. وكأن الفلسطينيين هاجموا أرض الآخرين لاستعمارها. و هذا هو العمى بأم عينيه. (يمكن العودة في هذه النقطة إلى كتاب الفلسفة في زمن الإرهاب للحوار المطول مع هابرماس.)
- العودة إلى كتاب" الحداثة و خطابها السياسي " و بالضبط لمقدمة الكتاب حيث تفضل هابرماس بمقدمة حصرية للترجمة العربية و التي أشار فيها إلى أن إسرائيل وليدة الغرب و الحداثة الغربية إذا صح التعبير. و هذا الموقف لم يكن ينسجم فيه مع نفسه و هو يحرر بيانه متناسيا الماضي السياسي الذي أنجب إسرائيل وحكم على ما قامت به حماس فقط من خلال السابع من أكتوبر.

- يمكن العودة إلى كتاب Der gespaltene Westen وللبيان المشترك الذي وقعه مع جاك دريدا وفلاسفة آخرين لإدانة الهجوم الأمريكي على العراق. وهو بيان ظاهره تعاطف مع العراق وباطنه هو مواجهة الهيمنة الأمريكية على العالم وتقزيم أوروبا. وهي الهيمنة التي يتعامل معها بنفس المعايير المزدوجة في الوقت الذي لا ينتقد أمريكا في دعمها لإسرائيل بدون قيد وشرط.

- و للمزيد من التوضيح يمكن العودة إلى الحوار الذي ترجمته لهابرماس بعنوان " استفتاء من أجل دستور أوروبي" المنشور في كتابي الفلسفة و السياسة عند هابرماس.

ورقة التعقيب على محاضرة د. الأشهب البيان/ الموقف

د. بن شرقي بن مزيان

أشكركم على هذه الدعوة الكريمة خاصة وأن الأمر يتعلق بقضية تهمنا كعرب بالدرجة الأولى وكمشتغلين بالفلسفة. أشكر كثيرا الأستاذ الأشهب على تحمله عناء ترجمة ونقد ما جاء في البيان/الموقف الذي صدر عن فيلسوف يُحظى بمكانة في عالمنا العربي منذ أن ظهر للوجود كتابه العمدة الفضاء العمومي. أشكر الأستاذ الأشهب على هذه الإضافة التي قدمها أمامنا حتى نخرج مما قد نُتهم به من أن لقاء اليوم هو ردة فعل وإن كان هذا كذلك في رأيي صحيحا بل من حقنا أن نكون في هذا الموقع موقع رد الفعل ولكن ليس بالصورة التي قد تبدو للمستمع أو تلك التي تعودنا عليها بل أن رد الفعل سيكون بالدرس وتقديم الحجج وبتبيان موقف مغاير لما جاء على ذكره هابرماس ومن وقع معه البيان/الموقف.

أردت أن أضيف كمعقب على المحاضرة الثرية والعميقة التي قدمها الأستاذ الأشهب وإن كنت أنا شخصيا بعيدا نوعا ما عن المتن الهبرماسي إلا من بعض القراءات الجانبية أو مشاركتي في بعض مناقشات الرسائل الجامعية، ولذا يعذرني الأخوة إذا ما كنت نوعا ما بعيدا عما كنتم تأملون أن تسمعونه مني. مع العلم أني ومنذ قبولي المشاركة في هذه الندوة حاولت أن أبحث لنفسي عن مخارج لما قد يكون إضافة مما سيقدم من قبل أستاذ وباحث اشتغل لمدة طويلة على نصوص هبرماس وباللغة التي يكتب بها هبرماس نفسه.

ستكون مداخلتي محصورة في بعض النقاط ومنها:

أولا: يجب أن ننطلق من تتبع حياة هبرماس والميادين التي اشتغل عليها، وهو ما يوفرها لنا كتاب خص به ستيفان موليير دووم Stefan Müller– Doohm هبرماس بمناسبة احتفائه ببلوغ السن 85 . تكمن أهمية هذا الكتاب في أنه يقف على بعض المحطات المهمة في حياته المتعلقة بطفولته أي حالته النفسية أصابته المبكرة في الوجه، والاجتماعية عائلته، وبدراسته فشله على الأقل في قبول أدرنو الإشراف على

رسالته، وبعلاقته بحركة الشباب النازي وكيف أنه وجد نفسه أمام خيارات صعبة كان عليه أن يتخفى لكيلا تظهر عليه مسألة الانتماء.

ثانيا: يحدد الكتاب للميادين التي اشتغل عليها هبرماس وهي: "اللغة، الأخلاق، معبرا عن موقفه القريب من اليسار الليبيرالي وعن مواقفه من النزعة الألمانية الوطنية ودفاعه عن الديمقراطية والاتحاد الأوروبي وحذره من مسائل البيو–تكنولوجية والعلمانية "كما تحددها إحدى المقالات التي لخصت الكتاب نفسه في الترجمة الفرنسية (ترجم الكتاب إلى الفرنسية فرديرك جوولي F.Joly). وإن كان صاحب المقال يأتي في آخر نصه بموقف متميز لعالم الاجتماع الأمريكي ريتشارد سينات R.Sennett حيث يقول هذا الأخير "إن المكانة التي يحتلها هبرماس في الفكر الألماني لا تهمنا بقدر اهتمامنا بقدرته على إثارة المناقشات". ويبدو أن هذا أمر هذا الوصف يصدق فعلا على سلوك هبرماس كيف لا وهو يأتي من واحد من علماء الاجتماع الذين مارسوا نقدا متميزا على نظرية الفضاء العمومي كما طرحها هبرماس نفسه ثم أن الواقع نفسه يثبت ذلك فها هو بالبيان/الموقف اثار فينا هذا النقاش؟

ثالثا: إن مقال الأستاذ الأشهب يذكرني في حقيقة الأمر، ولما لا؟، بما أثاره مقال فرانسيس فوكوياما قبل أن يكتب كتابه الذي أثار ضجة بل إنه كان البرنامج الأولي لما سيعرف بالعولمة. علينا أن ننتبه إلى هذا الأمر فكتاب ***نهاية التاريخ والإنسان الأخير*** الذي صدر في ترجمته الفرنسية سنة 1992 كان في الأصل مقالا وإن اختلف عن البيان/الموقف كما هو عند هبرماس، لأن مقال فوكوياما كان مسطرة سلطت الضوء على مجموع الجوانب التي أصبحت بعد ذلك بمثابة خطة طريق لما آتت به العولمة. لقد علمنا هبرماس على الأقل من خلال بعض من مقالاته بأن البيانات أو المقالات المختصرة بأنها قد تكون مشاريع لكتب داخل مختبرات يتم الإعداد لها بإحكام. لذا يبدو لي أنه من واجبنا أن نهتم وبجدية وصرامة بما جاء في البيان/الموقف وأنا أشكر ها هنا الأستاذ الأشهب لفطنته وسرعة ترجمته للبيان/الموقف ونشره على مستوى واسع بما أتيح له من وسائط. علما أن مقال فرانسيس فوكوياما كانت من بين أولى الجرائد التي انتبهت إليه حسبما أتذكر جريدة دير شبيغال الألمانية علينا أن نعود لهذا العدد من الجريدة لقد كان ذلك الأمر في خريف 1992 أتذكر حينها جريدة

لوموند الفرنسية نقلت الأمر على نفس الجريدة الألمانية . إني أنبه لهذا الأمر من باب أننا نمر بفترة صعبة ومنعرج مهم في تاريخنا لا كعرب فقط وإنما في التاريخ العالمي. إن الفترة ما بين 1914-1995 من القرن الماضي نحن اليوم نقطع شوطا منها ولكن في قرن مختلف 2014---- وفي ظل تحولات عالمية تشبه لحد بعيد ما عاشته البشرية في الفترة الزمانية للقرن الماضي.

رابعا: أشار المحاضر لكتاب *الفلسفة في زمن الإرهاب* لكي يبين بأن موقف هبرماس من القضية الفلسطينية كان هو نفسه الذي ورد في البيان أي موقفه من كفاح ونضال الفلسطينيين وقد اتهمهم بالإرهاب في رده على سؤال كما وضحه المحاضر لم يكن المعنى به الفلسطينيين ولكن بالرغم من ذلك أصر على أن يجعل منهم مثال للإرهاب علما أنه وفي نفس الكتاب وجهت تقريبا نفس الأسئلة لجاك دريدا وبالرغم من أنه يهودي، ولكن أجوبته لم تكن ضد الفلسطينيين كما كان الحال مع هبرماس. مما يعني أن هبرماس وإن كان في البيان/الموقف منسجما مع مواقفه إلا أن ذلك مثير للتساؤل وإن كنا لا نريد منه أن يغير من مواقفه السياسية أو الأيدلوجية ولكن من حقنا أن نتساءل عن مدى مطابقة ذلك لكتاباته السيوسو-فلسفية؟ لنا كل الحق من اليوم فصاعدا أن نتعلم كيف يتم استقبال الأفكار وغربلة ما فيها قبل أن نقدمها ربما مجانا للقارئ العربي ترجمة وتدريسا ولعلكم لاحظتم ما صرح به الأستاذ الأشهب نفسه وحتى صديقي المعقب الأول الأستاذ عطار أحمد من ردة فعل بعض طلبة الفلسفة أو الزملاء الأساتذة من اتهام للفلسفة. وهذا الأمر طبيعي من لدن هؤلاء لأن مشاهد الإبادة وممارسات القتل على مختلف المستويات والإقصاء الذي بادرت به حتى وسائل التواصل والاتصال من ضرب لقيم كنا نحسب أنها عالمية إلا أن الأمر أصبح يخضع لحسابات أخرى منها ما كنا نظن بأن أنظمتنا العربية هي فقط من تمارسه وأعني بذلك: منع الاتصال، تقليص حرية التعبير، قمع المظاهرات حذف ومراقبة بعض المنشورات بما فيها الاتصال التكنولوجي... ألخ.

خامسا: أشار الأستاذ الأشهب للكتاب الأخير لهبرماس *تاريخ الفلسفة* والنظرة الأحادية التي مارسها هبرماس في قراءته لتاريخ الفلسفة. هذا الأمر يحتاج منا كذلك لموقف تأملي خاصة وأن الكتاب عرف رواجا هائلا لنعود إلى هذا الكتاب والذي حسب مقال

كتبه فريدرك ميناجر F.Ménager تحت عنوان *يورغن هابرماس، تاريخ الفلسفة: الكوكبة الغربية من الإيمان والمعرفة* والمنشور ضمن مجلة أرشيف العلوم الاجتماعية والديانات عدد أكتوبر 2022 قائلا"" وضع هابرماس الأسس لفلسفة سياسية حقيقية للدين مستوحاة من نظريات العدالة في أمريكا الشمالية.وكان هدفه تحديد شرعية المواطنين والفئات الاجتماعية، التي تعتبر المجتمعات الدينية أمثلة بارزة لها، للنقاش من خلال معتقداتهم. ومع ذلك، حتى بين القراء الأكثر اطلاعًا، فإن المفاجأة في طريقة الأنساب/الأعراق التي اعتمدها هابرماس لن تكون بلا شك ضئيلة. وينخرط الأخير في تحليل تاريخي للعلاقات بين الإيمان والعقل، والذي، من خلال اتساعه وشموله، يذكرنا بمشروع ***راينر شورمان Reiner Schürmann في الهيمنة المكسورة*** Hégémonies brisées ولذلك فهو أفق فكري يبدو ***أنه يتناقض مع العناصر الخالدة وغير التاريخية التي تدعم صحة أخلاقيات الاتصال***. في الواقع، ينشأ مثل هذا المشروع الطموح من التاريخ الداخلي لمدرسة فرانكفورت، التي يجب تقييم علاقتها بالدين، والتي غالباً ما تكون ضمنية، وفقاً للنزاع حول العلمانية الذي أثار غضب ألمانيا منذ نشر كتاب اللاهوت السياسي لكارل شميت في عام 1922."" (مقتبس من المقال).

علينا أن نعرف من هو راينر شورمان أصوله وأين درس خاصة وأنه صاحب كتاب الأصول les origines هي رواية تتعلق ربما بشخصه وبأصوله وبتدريسه للفلسفة لمدة بإسرائيل، وعلينا أن نعود للصفحات 31 و779 من كتابه *الهيمنة المكسورة* إذا صحت الترجمة لنعرف ذلك الربط الذي يقوم ومن خلال تاريخ الفلسفة بين الولادة/التكاثر أو الانجاب والموت أو نقل بصراحة القتل علينا كذلك أن نعود لكتابه Tomorrow the Manifold. إن كتاب في الهيمنة المكسورة يذكرني بكتاب لوي سترواش كتابة المحنة ما العلاقة بين هذه العناوين المثيرة للتساؤل مع علاقة هبرماس بها؟ أطرح هذا التساؤل لكي ننتبه وبجدية للسياق أو السياقات التي تحركت ضمنها المدارس النقدية كلها.

سادسا: أشار الأستاذ الأشهب لموقف مغاير لهبرماس من حرب العراق والحرب على الطالبان وموقفه بالضبط من الولايات المتحدة الأمريكية ليبين أن الأمر لا يتعلق

بموقف ضد الولايات المتحدة الأمريكية بقدر ما يتعلق بمحاولة منه للدفاع عن أوروبا.
وها هنا كذلك نقطة مهمة وأشكر المحاضر أنه أشار إليها لما لمعرفته بالمتن الهبرماسي وتمرسه به. يجب أن ننبه إلى هذه الملاحظة المشار إليها لأننا حينما نعود لمجموعة من النصوص نصوص القرنين 17 و18 وأخص بالذكر هوبز في ليفاتيان أو De Cive وروسو في أصل التفاوت والعقد الاجتماعي بل وحتى كانط في نصوصه المتعلقة بفلسفة القانون/الحق وفلسفة التاريخ وهيجل في محاضراته حول فلسفة الحق يمكننا أن نلاحظ بغض النظر عن اختلاف التصور بينهم لمسألة العقد ومفهوم الطبيعة إلا أن الرابط بينهم يتمحور حول مفهوم السيادة والملك أو التملك المرتبط بمفهوم الأرض وعلاقته بالحرب أو الطاعة لأن ما يحدث اليوم يتركنا نفكر من جديد وبعمق في هذه القضية خاصة إذا ما اشرنا ولو بسرعة أن من بين المكونات الأساسية للنظام الاجتماعي الاقتصادي الإسرائيلي ما يعرف بالكيبتوس وهو النظام الزراعي العقاري الذي تأسست عليه إسرائيل.

إن تحليل النصوص الماثلة أمامنا يمكننا من فهم قيمة الأرض في علاقتها بمفهوم السيادة على الإقليم والسيادة في ممارسة مفهومين: مفهوم **السلطة** بمعنى Pouvoir **والصلاحية**Autorité السياسية، وهما المفهومان الأساسيان في الصراع الإسرائيلي الفلسطيني. فحرب غزة أكتوبر 2023 طرحت هذه المسألة بصورة واضحة فيما يتعلق بهذا الزوج لأن مفهوم السلطة كان أحد البنود التي يتخفى من خلالها الكيان الصهيوني، ولكن بإفراغها من مفهوم الصلاحية وهذا ما انتبهت إليه انتفاضة الأقصى.
لأن جدلية السلطة والصلاحية هي التي تحتكم إليها الشعارات التي رفعت في بعض من المظاهرات في الأيام الأولى من قبل الفلسطينيين أنفسهم من مثل "***إما نحن أو نحن***"" "***فقط في غزة....فلسطين***"" أو الشعار الصوتي "" ..***نحن خلقنا لننتصر***..."
أي أن لا استقلال بمنأى عن حق الممارسة للسلطة وحق الممارسة للصلاحية السياسية (يقف كوجيف على تحليل متميز لهذه المسألة في كتابه la notion d'autorité).

ولتبسيط القضية، وبغرض شرحها نتنزل لبعض ما يشير إليه بيير بلان في كتابه" ***الأراضي والسلطات والصراعات***" في الفصل الرابع: ***الشرق الأوسط أثر الأرض في احتدام الصراعات*** إلى مسألة الأرض ومشكلة العقار حينما يقول "" لا يمكن تفسير

الصلة بين الأرض والسياسة في ضوء عدم المساواة في الحصول على الأرض وحسب. فبالنسبة إلى القضية الفلسطينية، التي لا تزال محورية جدا في العلاقات الدولية، كان للإرث التاريخي في الازدواجية العقارية دور بالتأكيد، أقله حتى إنشاء إسرائيل في عام 1948. ومنذ ذلك الحين، لا يمكن تفسير "" حرب الأراضي" بين الإسرائيليين والفلسطينيين ضمن هذا التوجه فقط، وإن كان الوضع يرقى إلى خلق حالة جديدة من عدم المساواة في حيازة الأراضي لمصلحة الإسرائيليين لا سيما في غور الأردن."" (ص 248 ، ط1-2023 دار الفارابي) .

هذه الفقرة وغيرها التي يخص بها مسألة العقار في فلسطين تمكننا من فهم ما يجرى اليوم حينما نتتبع بعض الحالات التي قام بتحليلها: مصر، سوريا، العراق، لبنان والأردن، والاستثناء الذي يخص به دول الخليج لما أن مسألة العقار لم تطرح بالكيفية التي طُرحت بها في مثل هذه الدول نظير البنية الأنثرو-إجتماعية لهذه الدول وما حصل فعلا.

إن ما أردت طرحه من خلال التذكير بهذه المسألة وعلاقة ذلك يسير في نفس اتجاه نقد بعض مما جاء في فقرات البيان/الموقف لأن إقدام إخواننا في فلسطين بقبول التضحية كشهداء بأنفسهم وبعائلاتهم وممارسة الإبادة بل الإصرار على إبادة شعب بكاملها من قبل الصهاينة، إذ يكفي أن نذكر بأنه ولحد اتفاق الهدنة فاق عدد ضحايا الفلسطينيين 15000 نصفهم من الأطفال ودمرت غزة بأطنان من القنابل في ظرف زمني قصير، 48 يوم، وهو ***ما فاق نسبيا*** قتلى إحدى الحربيين العالميتين.

كما أن هناك مسألة ثانية أريد أن طرحها ولو من باب الإشارة وكانت ماثلة في ردود فعل الفلسطينيين من خلال الشعارات منها شعار ""*عهد الله ما نرحل*"" و"*لن تنال من قوتنا الملائكة بيننا هي التي تنشل أطفالنا ونساءنا وبيوتنا. يقتلون لأن الله أراد*"" هي بمثابة رد فعل واضح لما فهمه الفلسطينيون من نزعة عرقية مبنية على قاعدة دينية يهودية بتأويل صهيوني يتحرك ضمنها الكيان الإسرائيلي لبعض ما جاء في التوراة. لذلك تعدى الشعار الفلسطيني في حدود رده لاستعمال السجل المفاهيمي النابع من المعطى الديني وهو ما دفع بكثير من قنوات الإعلام الغربي بل وحتى بعض المفكرين دون بحث أو تروٍ لإلصاق بعض المفاهيم المغلوطة على المقاومة التي كانت في

الأصل تدافع ضد مخطط إدماجها في سياق التحولات العالمية، كان ماثلا فيما سبق حرب غزة " طوفان الأقصى" من أحداث قريبة وأعني بذلك ترحيل الأرمن من أذربيجان إلى أرمينيا برعاية روسية وبعلم حلف الناتو دون أن يتدخل في القضية أو في حرب روسيا /أوكرانيا في إطار استرجاع أراضيها وحماية مواطنيها الذين يتواجدون في بعض المناطق التي تستحوذ عليها أوكرانيا مثل الدونباس وغيرها.

إن الحرب التي تقودها في حقيقة الأمر الولايات الأمريكية في المنطقتين: أوكرانيا وغزة قد تجد تفسيرا لها فيما أتى الأستاذ الأشهب على ذكره من تفسير لموقف هبرماس السابق من أمريكا والذي يبدو أنه أصبح واضحا في التواجد العلني لأمريكا في الحربين ولذلك تفطن الرئيس بوتين في أولى خطاباته وقام بتوظيف مفهومين: الغرب وهو إعلان واضح أنه يريد أن يفصل روسيا عن هذا المفهوم أي أن يخرجها من دائرة تاريخ أوروبا وثانيا وصفه للرئيس الأوكراني ولأوروبا نفسها بالنازية نظير الممارسة التي كانت تقوم بها أوكرانيا اتجاه المقاطعات التي سارع بوتين لاسترجاعها لما عانته شعوبها من تصفية لسانية وجسدية.

إن ما هو مطلوب منا اليوم على الأقل في حدود الحقول التي نشتغل فيها أن نقوم بعمل جاد وطويل الأمد يتمثل في إعادة التفكير في مجموع المفاهيم التي تعاملنا معها بتصورات يبدو أنها تحتاج لمراجعة أما الشق الثاني فيتمثل في إعادة صياغة البعض منها بما يتوافق والقضايا التي تهم الأمة مستقبلا. ثانيا أن نتعامل مع سياسيات الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية ومن اللغة العربية إلى اللغات الأجنبية بما يفيد القضايا الحضارية والفكرية مع التركيز لا على أوروبا فقط بقدر ما يجب التركيز على القارة الأسيوية لما لأسيا من أهمية في المستقبل ولأن شعوبها هي أقرب الشعوب لهموم واهتمامات عالمنا العربي بل إن تعداد المسلمين الذين على الأقل نتقاسم معهم اللسان العربي فيما يتعلق بالعبادات يفوق بكثير تعداد سكان عالمنا العربي وهذا المعطى الديمغرافي مهم جدا مستقبلا. علينا أن ننتبه لما للجغرافيا والديمغرافيا من أهمية في الصراعات المستقبلية.

ورقة التعقيب على محاضرة د. عبد السلام الأشهب
رد على موقف هابرماس من الحرب على فلسطين
روح نيتشه على الحداثة توتر النظرية والتطبيق

د. أحمد عطار

تمهيد

لا يجب أن تكون ردود الفعل انفعالية ولا عاطفية بل فكرية كما فعل السيد عبد السلام بنعبد العالي وأحمد دلباني

مجموع الأسئلة

كيف تحولت الروح نقدية الماركسية في مدرسة فرانكفورت إلى رجعية وتدجين للنظرية، أين هو نقد الامبريالية والتراث الألماني النقدي ؟

كيف تحول الموقف المقنع لهابرماس على الحرب على العراق؟ وتحليلاته الموضوعية مع "جاك ديريدا" حول أحداث 11 سبتمبر إلى تبرير للإبادة؟ ما هو مصير مشروع هابرماس هل هو نهاية السرديات؟، نهاية مشروع الحداثة والديمقراطية والمواطنة الكوسموبوليتية والأخلاق التواصلية ؟ هل يمكن تبرير موقف هابرماس من العقدة الألمانية من محرقة اليهود علما أن هابرماس كان من شبيبة هتلر؟

توسيع

انتصار الشر وهزيمة الطبيعة البشرية

كما جاء عنوان التعقيب إن الانتصار الكبير اليوم هو "لفريديرك نيتشه" الذي انتقد هابرماس **عدميته** بشدة في كتابه العمدة: "الخطاب الفلسفي للحداثة"، أنه انتصار للواقع والعالم على العقل، فالطبيعة البشرية التي عول عليها بول ريكور لم ترق لاماله الكبيرة إن الموعد الابدي للحرب يتكرر اليوم لينسف سرديات الكونية وانتصار الشعبوية واليمين المتطرف في كثير من حكومات العالم ، هزيمة عصبة الأمم من قبل والأمم المتحدة اليوم تنسف واحلام "كانط" في "مشروع سلام دائم".

وهنا استحضر فقرة كتبها صديقي "بودومة عبد القادر" في غلاف كتابه: "الحداثة وفكر الاختلاف" سنة 2012 يقول فيها ... **لقد حذر نيتشه من عودة الفاغنرية ممثلة في عودة الرايخ، لكن على الرغم من ذلك عادت ولم يسمع أحدا بتحذيرات نيتشه وارتمى العالم في معايير تنتج عالم كله كذب ووهم.**

إن المجرم الكبير اليوم هو الضمير الإنساني إنه المجتمع الدولي والحكومات التي تدعي الديمقراطية والمؤسسات العالمية المدعية لحقوق الإنسان ومحكمة العدل الدولية فهل نحن اليوم أمام نهاية الأمم المتحدة والنظام العالمي القديم وظهور عالم متعدد الأقطاب كما يقال؟

خاتمة

بقاء التوتر بين **النظرية والتطبيق** هذه الفكرة المسيطرة على تاريخ النظرية النقدية مما يجعل كما يقال: "التطبيق أغنى من الواقع"، وهذا ما وقع فيه فيلسوف كبير مثل هابرماس.

بيان الفلاسفة العرب – من أجل فلسطين

يعيش الشعب الفلسطيني منذ أكثر من خمس وسبعين سنة احتلالًا مباشرًا انطلق من خلال دعم القوى الإمبريالية، وعلى رأسها المملكة المتحدة البريطانية، لنشوء كيان استيطاني إحتلالي على أرض فلسطين هدفُه الأساس العمل على إضعاف وتفتيت المنطقة العربية. وقد تتالت منذ منتصف القرن الماضي حروب التهجير والاستيطان وأدت في النهاية إلى تفتيت الأرض الفلسطينية وتشريد وتشتيت الفلسطينيين. كل ذلك بدعم دائم من الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها التقليديين. لكن ما حدث ويحدث خلال الحرب الأخيرة على غزة، ومنذ 7 تشرين الأول/أكتوبر 2023، فاق كل درجات التوحّش التي يمكن أن يتخيّلها العقل البشري أيًّا كانت هُويَّتُه وأيًّا كان انتماؤه. يتابع العالم حلقةً جديدةً من حلقات الإبادة التي شهدتها شعوب سابقة في القارة الأمريكية، وشهِدها اليهود أنفسهم تحت الحكم النازي في ألمانيا. فقوة الاحتلال وبدعم أوروبي–أمريكي تقتل يوميًّا آلاف الأبرياء المدنيين، وتهدم بيوتهم وأحياءهم ومدنهم، وتمنع عنهم الغذاء والماء والدواء، وتقصف المستشفيات على رؤوس الجرحى والمصابين والأطباء، وتقطع عليهم الكهرباء ومستلزمات العلاج. كل ذلك بهدف تهجيرهم وإفراغ منطقة غزة من سكّانها وتحصين المحتلين الصهاينة في المستوطنات. إننا نحنُ الفلاسفة العرب بما تعلَّمناه من أصول الفكر العقلاني واعتقدنا لزمنٍ طويلٍ أننا نشترك فيه مع الإنسانية جمعاء لبناء الثقافة الكونيَّة التي تَضمن لكل كائنٍ يعيش على هذا الكوكب حقوقَه الأساسية وأوَّلُها حقُّ الحياة، نُدين هذا الإجرام الوحشي الموجّه ضد الشعب الفلسطيني مباشرةً وعبرَه إلى الإنسانية كلها، إذ لا يمكن لأي إنسان عاقل أن يقبل بمثل هذه الإبادة ويواصل الحديثَ العاديَّ عن الإنسانية والكونية والحق والعدل والحياة ...**إنَّ هذه القيم بحاجة إلى فلسفةٍ تبعثُ فيها قيمةَ الإنسان اليوم.** لذا نرفض مبدأ الاحتلال الذي يترتب عنه حرمان الشعب الفلسطيني من أرضه، ونرفض مبدأ القتل الوحشي للمدنيين الذي يحرم شعبًا كاملًا من حقه في الحياة ونرفض مبدأ الحصار المسلّط على المواطنين العزّل الذي يحرم الفلسطينيين من حقوقهم الطبيعية في العيش الآمن.

وفي هذا البيان نستنكر، أخلاقيًّا وعلميًّا ووجدانيًّا، رأيَ كلِّ مفكّرٍ يلتمس الأعذارَ للمحتّل الإسرائيلي ونستغرب شديد الاستغراب تصريحات مَن اعتبرناهم فلاسفةً غربيين نظَّروا طويلًا لمبادئ الحرية والحق والعقلانية والتواصل، كيف تدعم الإجرامَ المنظَّم الذي تمارسه العصابات الصهيونية التي اصطنعت منذُ 1948 "دولةً" على أرضٍ ليست لها أصلًا، وساندها ولا يزال في ذلك اعترافٌ مارِقٌ وتأييدٌ حاقِدٌ من بعض دولِ العالم "المتحضِّر" التي يعيش فيها هؤلاء الفلاسفة، في الاستمرار بالقتل والعنف والإبادة.

لا يكتفي بياننا هذا بإعلان مساندتنا الكاملة للشعب الفلسطيني المنكَّل به، بل ندعو المفكرين والفلاسفة في كل أنحاء العالم إلى الانضمام إلى صوت الفلاسفة العرب من أجل رفع هذه المظلَمة وإيقاف إجرام الاحتلال الإسرائيلي في فلسطين، وأن تصدُرَ عنهم البيانات والآراء التي تدعَمُ الحقَّ في العيش الكريم القائم على مبادئ ساميةٍ تعزِّزُ الأخوَّة الإنسانية المطلقة والعدالة في إطلاق الأحكام والإيمان بالمساواة بين البشر جميعًا.

إن نظرةً استعلائيةً تمييزيةً عنصريةً لا تزال تحكُمُ ذهنيَّةَ بعض فلاسفة الدول الكبرى الغربية تجاه الإنسان عمومًا، وما نطلبه هو أن يحترِمَ المفكِّرُ وجودَ الأفكار كلها موزَّعةً في هذا العالم. فلا يمكن اعتبار التفكير بالآخر نوعًا من تحديد هويَّتِه بالنسبة إلى موقع ذاتي "أنا–الغربي" في العالم، استنادًا إلى سياسة بلادي الخارجية المؤثِّرة في صياغة العلاقات الدولية الراهنة، بل على المفكِّرِ أن يحرص على التأسيس الدائم للأخلاق، بحيث لا يتنازَل عن رتبة العيش الكريم للجميع.

إذن، نشدِّدُ على استغرابنا مما قام به مجموعة من المفكرين والفلاسفة في ألمانيا وعلى رأسهم يورغن هابرماس، وهم الذين أبانوا عن نجاحهم العالمي في نقد العقل بهدف إصلاحه واستكماله لمشروع الحداثة. كيف ينحاز هؤلاء إلى مواقف عدائية ويشرعنون حرب الإبادة التي يقوم بها الكيان الصهيوني في حق الشعب الفلسطيني، فأين هي المواقف الإنسانية النبيلة؟ وأين هو مشروع الحداثة الذي لم يكتمل؟ ولأجل إعادة الاعتبار إلى الإنسانية والحداثة ومبادئها النبيلة، نؤكد ضرورة رفض أي وصاية على العقل، خاصة الوصاية السياسية التي تشرعن جرائم الحرب في حق

جميع الشعوب من بينها الشعب الفلسطيني، وهذا من أولويات استكمال مشاريع الحداثة التي توصل إلى استكمال بناء عالم إنساني مشترك أساسه الاعتراف بالآخر، والإيمان بضرورة السعي نحو تحقيق سلام دائم بين الشعوب.

إن ثنائية الفكر والموقف هي مصيَدة كل مفكر، لذا فإن تناقضات بعض فلاسفة الغرب وتصريحاتهم ومواقفهم العلنية بخصوص القضية الفلسطينية منتصرين للحركة الصهيونية، تبديهم منهزمين أمام فلسفاتهم الكونية التي كرسوا حياتهم عبرها للتفكير في إمكانات العيش المشترك. وما تحيُّزهمُ هذا إلا انتصار للمحلي على الكوني، أو بالأحرى إنما هو خضوع للقوى السياسية الكبرى التي تمثِّلها دولهم. فالسياسة الجشِعة اقتصاديًا عدوة للفلسفة، لأن هذه الأخيرة صديقةٌ للإنسان، أما الجشَعُ فهو الذي يجعل الإدارات السياسية في الدول الكبرى خاضعةً للشركات ولسياسات الربح والطمع والمنفعة، التي لا تكترث بإنسانية الإنسان؛ وهي تملِكُ حقَّ النقض "الفيتو" في مجلس الأمن!

هنا تتفكك المفاهيم الحقوقية لأنها لا تجد مغزاها إلا في الجغرافيا الغربية، فتفقد مصداقيتها أمام ازدواجية المعايير الدولية التي تصبح معها الإنسانية نسبيةً ومقصورة حصرًا لفئة محددة من بني الإنسان، وبذلك يفشل مشروع المجتمع المفتوح والمواطنة العالمية الذي سعت الفلسفة الحرة إلى تكريسه، دفاعًا عن الحق في الوجود الإنساني الكريم.

وحدة الدراسات القانونية والدستورية

محكمة العدل الدولية وسياسة الكيل بمكيالين

دعوى جنوب افريقيا ضد إسرائيل نموذجا

د. عبيدي محمد

مقدمة

مع مطلع فجر السابع من تشرين الأول/ أكتوبر 2023 ، اخترقت طائرات شراعية سماء غلاف غزة ، وعبر مقاتلون من كتائب الشهيد عز الدين القسام وفصائل فلسطينية أخرى، السياج الفاصل، بسيارات رباعية الدفع ودراجات نارية ومشيا على الأقدام.

قائد كتائب الشهيد عز الدين القسام ، محمد الضيف ، أعلن عن انطلاق عملية تجاه الاحتلال الإسرائيلي، تحت مسمى "**طوفان الأقصى**" ، وأن الضربة الأولى شهدت إطلاق 5200 صاروخ ، وصرح قائلا : " إن اليوم هو يوم المعركة الكبرى لإنهاء الاحتلال الأخير على سطح الأرض " .

أسفرت العملية عن قتل أكثر من 1200 إسرائيلي، منهم أكثر من 300 جندي، وإصابة أزيد من 1500 ، وأسر أكثر من 240 من الإسرائيليين ومن جنسيات أخرى.

وفي أعقاب هذه العملية البطولية ، صرح الجيش الإسرائيلي أن هجمات كتائب الشهيد عز الدين القسام، شملت 8 مواقع بمحيط قطاع غزة، منها قاعدة "**زكيم**" وقاعدة "**رعيم**" العسكريتين، ومستوطنات "**ناحل عوز**" و "**بئيري**" و "**ماعن**".

وزير الدفاع الإسرائيلي يوآف غالانت، قال: " إن حماس تشن حربا على دولة إسرائيل "أما الرئيس الإسرائيلي اسحاق هرتسوغ ، فقال: "إن دولة إسرائيل تمر بوقت عصيب". ومن جهته قال رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو: "نحن في حرب وسوف ننتصر".

وبعد مرور 20 يوما من عملية **طوفان الأقصى** وتنفيذا لتوعدهم ، بدأ الهجوم البري الإسرائيلي على قطاع غزة، معززا بغارات جوية واسعة النطاق، مساء يوم 27 تشرين الاول/ أكتوبر 2023 . وقد ادعت إسرائيل أنها في حالة دفاع عن النفس، وتحت هذه

الذريعة، ارتكبت أعمال ابادة جماعية بقطاع غزة، مما دفع دولة جنوب افريقيا لرفع دعوى إلى محكمة العدل الدولية، تتهم فيها إسرائيل بانتهاك التزاماتها بموجب اتفاقية منع الإبادة الجماعية والمعاقبة عليها لعام 1948 ، وطلبت من المحكمة اتخاذ تدابير تحفظية مؤقتة لوقف الأعمال العسكرية ، **فكيف تصرفت المحكمة ازاء هذه الدعوى في شقها الاستعجالي ؟**

1- الدفاع عن النفس، ذريعة إسرائيل للرد على عملية طوفان الأقصى وإعلان الحرب على غزة: استندت إسرائيل في إعلان الحرب على غزة، ردا على عملية طوفان الأقصى إلى ميثاق الأمم المتحدة التي تمنح الحق للدول للجوء لاستخدام القوة المسلحة دفاعا عن النفس في حالة تعرضها لهجوم مسلح ، ريثما يتخذ مجلس الأمن التدابير اللازمة لحفظ السلم والأمن الدولي.

وقد جاء في الميثاق: " ليس في هذا الميثاق ما يضعف أو ينقص الحق الطبيعي للدول فرادى أو جماعات في الدفاع عن أنفسهم ، إذا اعتدت قوة مسلحة على أحد أعضاء الأمم المتحدة وذلك إلى أن يتخذ مجلس الأمن الدولي التدابير اللازمة لحفظ السلم والأمن الدولي (....) "[36].

2- شروط استخدام الحق في الدفاع عن النفس ومدى انطباقها على حرب إسرائيل على قطاع غزة : اللجوء لاستخدام الحق في الدفاع عن النفس الذي يخول الدول استعمال القوة المسلحة في حالة اعتداء قوة مسلحة عليها يخضع لتوفر مجموعة من الشروط نلخصها فيما يلي ونحاول ابراز مدى انطباقها على الحرب على غزة :

2-1- أن يكون الدفاع عن النفس ردا على هجوم مسلح حال : هذا الشرط غير مستوف في هذه الحالة فعملية طوفان الأقصى حدثت في 7 تشرين الاول / اكتوبر 2023 ، بينما الرد الإسرائيلي عليها وبداية شن الحرب على قطاع غزة جرى في 27 تشرين الاول / اكتوبر 2023 أي بعد 20 يوما، ما يعني أن إسرائيل لم تلتزم بشرط

– نص المادة 51 من ميثاق الامم المتحدة [36]

أن يكون استخدام الحق في الدفاع عن النفس الذي تدعيه ، ردا على هجوم مسلح حال.

2-2- أن يكون الهجوم المسلح قد وقع من قبل قوة مسلحة : ميثاق الأمم المتحدة يتضمن أحكاما ملزمة للدول الاعضاء بهذه المنظمة الدولية، فالمادة 51 منه، تشترط لاستخدام الحق في الدفاع عن النفس أن يكون ردا على اعتداء من قوة مسلحة. ويُستنتج من ذلك أن يكون الهجوم على الدولة من قوة مسلحة تابعة لدولة أخرى أو متواجدة بإقليم دولة أخرى. في حين أن الهجوم لم يصدر عن قوة مسلحة تابعة لدولة أخرى أو قوة مسلحة متواجدة بدولة أخرى، بل الهجوم قامت به كتائب الشهيد عز الدين القسام وفصائل فلسطينية مسلحة أخرى ويندرج ضمن الحق الطبيعي الذي تكفله الاعراف والقوانين الدولية في التصدي للاحتلال ومقاومته بكافة الوسائل المشروعة بما فيها استخدام القوة المسلحة لإنهاء الاحتلال وتقرير المصير .

2-3- أن يكون الرد على الهجوم المسلح لازما وضروريا : إسرائيل في ردها على عملية طوفان الأقصى لم تكن في وضع اللزوم والضرورة التي تعفيها من المسؤولية الدولية، ولم يكن ردها لازما وضروريا لأنها دولة احتلال وبالتالي فإعلانها الحرب على غزة لا يندرج ضمن الحق في الدفاع عن النفس بقدر ما هو استمرار للحصار الجائر والعمليات العسكرية المتواصلة، التي تقوم بها إسرائيل والجرائم التي ترتكبها في حق الشعب الفلسطيني.

2-4- أن يكون الرد على الهجوم المسلح متناسبا ومعقولا : إسرائيل بإعلانها الحرب على قطاع غزة لم تلتزم بشرط التناسب، ففي الوقت الذي استخدمت فصائل المقاومة اسلحة وذخائر بسيطة ، استخدم الجيش الإسرائيلي في حربه على القطاع، معدات وأسلحة متطورة وذخائر فتاكة وقنابل ومتفجرات أحدثت أضرارا بالغة الخطورة في الارواح والممتلكات ، حيث ألقى أكثر من 60 ألف طن من القنابل على القطاع الذي لا تتجاوز مساحته 365 كم2 ، ما يعادل " 4 أضعاف القنبلة النووية التي ألقيت على هيروشيما ونجازاكي عام 1945" [37] ، وقد خلف ردها غير المتناسب وغير

---

[37] – فايز الدويري – المحلل العسكري والاستراتيجي – قناة الجزيرة الاخبارية بتاريخ 25 كانون الاول / ديسمبر 2023

المعقول، خسائر بشرية ومادية غير مسبوقة قياسا لزمن هذه الحرب وحدتها وحجم ضحاياها.

2-5- أن يكون الرد على الهجوم المسلح، مؤقتا ريثما يتخذ مجلس الأمن التدابير اللازمة: إن إسرائيل التي تدعي أن حربها على غزة تندرج ضمن ممارستها لحقها في الدفاع عن النفس، وحتى لو افترضنا أن ما تقوم به هو دفاع عن النفس، يمكن دحض هذه الذريعة فهي لم تلتزم بشروط إعمال هذا الحق بأن يكون استخدامها للقوة المسلحة مؤقتا لحين اتخاذ مجلس الأمن الدولي التدابير اللازمة، فردها على عملية طوفان الأقصى، استمر لأزيد من أربعة أشهر، مما يتعارض مع شروط استخدام الحق في الدفاع عن النفس الذي ينبغي أن يكون محدودا في الزمن، في حين أن القادة الإسرائيليين صرحوا مرارا بأن هذه الحرب لن تتوقف إلا بتحقيق أهدافها . هذه الاهداف التي حددتها إسرائيل في القضاء على حركة حماس وقادتها يحي السنوار ومحمد الضيف واسترجاع الرهائن.

وقد جاء التأكيد على الطابع المؤقت لاستخدام الحق في الدفاع عن النفس الذي تدعيه إسرائيل ، في ميثاق الأمم المتحدة ، الذي خول مجلس الأمن الدولي اتخاذ التدابير اللازمة لحفظ الأمن والسلم الدولي . غير أن هذا المجلس فشل أكثر من مرة، بسبب الفيتو، في اتخاذ قرار يقضي بوقف الحرب في غزة ولو لأسباب إنسانية.

2-6- أن يكون الرد على هجوم مسلح غير مشروع : عملية طوفان الأقصى التي قامت بها كتائب الشهيد عز الدين القسام وفصائل فلسطينية أخرى مسلحة والتي كان منطلقها قطاع غزة، الخاضع للاحتلال، وهدفها المستوطنات والثكنات العسكرية الواقعة بغلاف غزة، الذي يقع ضمن المجال الجغرافي الذي تعده إسرائيل جزءا من إقليمها، تصنف ضمن أعمال مقاومة الاحتلال التي يكفلها القانون الدولي وبالتالي فعملية طوفان الأقصى، من الناحية القانونية، مشروعة بينما رد إسرائيل عليها هو الذي يعتبر غير مشروع.

2-7- أن يكون الرد على الهجوم المسلح، ضمن احترام القانون الدولي الانساني: في ردها على عملية طوفان الأقصى ، لم تلتزم إسرائيل باحترام قواعد القانون الدولي الإنساني ، حيث يلاحظ تجاوزها لضوابط استخدام الحق في الدفاع عن النفس الذي

تذرعت به ، بقيامها بأعمال وهجمات عسكرية يحظرها القانون الدولي الانساني ، فقد ارتكبت جرائم فظيعة ، تصنف كجرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية وجرائم ابادة جماعية وتطهير عرقي .

3- موقف الأمم المتحدة من عملية طوفان الأقصى والحرب على غزة : يمكن استخلاص موقف الأمم المتحدة من عملية طوفان الأقصى والحرب التي تدعي إسرائيل أنها تخوضها إعمالا لحقها في الدفاع عن النفس، من تصريح الامين العام لهذه المنظمة السيد انطونيو غوتيريس ، أمام مجلس الأمن الدولي حيث قال : " إن هجمات حماس ضد إسرائيل لم تحدث من فراغ ، وان الشعب الفلسطيني قد تعرض لاحتلال خانق طيلة 56 عاما. لقد رأى الفلسطينيون أراضيهم وهي تلتهمها المستوطنات بشكل مطرد ، والعنف الذي يعانون منه ومن خنق اقتصادهم وتهجير أهلهم وهدم منازلهم ، وتلاشي آمالهم في التوصل إلى حل سياسي لمحنتهم . ولكن مطالبهم لا يمكن أن تبرر الهجمات المروعة لحماس. هذه الهجمات المروعة التي لا يمكن أن تبرر العقاب الجماعي للشعب الفلسطيني" [38].

ويمكن أن نستنتج من هذا التصريح أن عملية طوفان الأقصى وخلافا لما ادعته إسرائيل، لا تصنف ضمن العمليات الارهابية، بقدر ما تندرج ضمن الأعمال المشروعة التي يكفلها العرف والقانون الدوليان وميثاق الأمم المتحدة لاسيما المادة 55 التي تؤكد على حق الشعوب في تقرير مصيرها ، فضلا عن القرارات المختلفة الصادرة عن جمعيتها العامة والتي تعترف بالحق في مقاومة الاحتلال [39].

4- اتهام جنوب افريقيا لإسرائيل بارتكاب إبادة جماعية بقطاع غزة : بتاريخ 29 كانون الاول / ديسمبر 2023 ، أعلنت محكمة العدل الدولية ، أن دولة جنوب افريقيا، قد تقدمت أمامها بدعوى تتهم فيها إسرائيل بإخلالها بالتزاماتها بموجب اتفاقية منع الإبادة الجماعية والمعاقبة عليها لعام 1948.

---

[38] الموقع الالكتروني للأمم المتحدة – جلسة مجلس الامن الدولي

[39] انظر لمزيد من المعلومات بومدين محمد – الحق في المقاومة في القانون الدولي على ضوء الحالة الفلسطينية – مقال منشور بمجلة دراسات الورقية التي تصدر عن كلية العلوم الانسانية والاجتماعية بجامعة ابن خلدون تيارت – الجزائر – العدد 6 – جانفي 2013 – ص 68- 100

وقد جاء في التقرير المرفق بالدعوى : " منذ السابع من تشرين الاول / أكتوبر 2023 فشلت إسرائيل في منع الإبادة الجماعية وأخفقت في مقاضاة التحريض المباشر والعلني على الإبادة الجماعية، والاخطر من ذلك أن إسرائيل انخرطت في أعمال الإبادة الجماعية ضد الشعب الفلسطيني في غزة ، وهي تتورط فيها وتخاطر بارتكاب المزيد منها. وتشمل هذه الافعال قتلهم والتسبب في أذى عقلي وجسدي خطير لهم ، واخضاعهم عمدا، لظروف معيشية تهدف إلى تصفيتهم جسديا كمجموعة.

إن التصريحات المتكررة لممثلي الدولة الإسرائيلية ، بما في ذلك على أعلى المستويات، من قبل الرئيس الإسرائيلي ورئيس الوزراء ووزير الدفاع ، تعبر عن نية الإبادة الجماعية. ويمكن الاستدلال على هذه النية بشكل مناسب من طبيعة وسير العملية العسكرية في غزة ، مع الاخذ بعين الاعتبار ضمن أمور أخرى، فشل إسرائيل في توفير أو ضمان الغذاء والمياه والدواء والوقود والمأوى وغيرها من المساعدات الإنسانية الاساسية للشعب الفلسطيني المطوق والمحاصر، مما دفعه إلى حافة المجاعة .

ويتضح ذلك أيضا من طبيعة الهجمات العسكرية على غزة ونطاقها ومداها، والتي تضمنت قصفا متواصلا لأكثر من 11 اسبوع لاحد أكثر الاماكن اكتظاظا بالسكان في العالم مما أدى إلى اجلاء 1.9 مليون شخص أو 85 بالمائة من سكان غزة الذين يخلون مساكنهم ويُقتادون إلى مناطق أصغر من أي وقت مضى ، دون مأوى مناسب، حيث يستمرون في التعرض للهجوم والقتل والأذى.

لقد قتلت إسرائيل حتى الان ما يزيد عن 21.110 فلسطينيا، من بينهم أكثر من 7.729 طفلا، بينما 7.780 آخرين في عداد المفقودين، يفترض أنهم ماتوا تحت الانقاض، وأكثر من 55.243 فلسطينيا جريحا (...) وألحقت الضرر أو دمرت ما يزيد عن 355 ألف منزل فلسطيني.

إلى جانب مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية والمخابز والمدارس والجامعات والشركات ودور العبادة والمقابر والمنشآت الثقافية والترفيهية والمواقع الاثرية ومباني البلديات والمحاكم والبنية التحتية الحيوية ، بما في ذلك مرافق المياه والصرف الصحي وشبكات الكهرباء ، بينما تواصل هجوما لا هوادة فيه على النظام الطبي ونظام الرعاية

الصحية الفلسطيني . لقد حولت إسرائيل – ولا تزال – غزة إلى أنقاض ، وتقتل وتؤذي وتدمر شعبها وتخلق ظروف حياة تهدف إلى تصفيتهم جسديا كمجموعة " [40].

وبتاريخ 01 كانون الثاني / يناير 2024 ، أعلنت إسرائيل قبولها المثول أمام المحكمة. وبعد أقل من أسبوعين من رفع الدعوى وتحديدا يومي 11 و 12 كانون الثاني / يناير 2024 عقدت المحكمة أولى جلساتها للنظر في دعوى جنوب افريقيا. وقد خُصص اليوم الأول للاستماع لمرافعات جنوب افريقيا الشفوية وخصص اليوم الثاني للمرافعات الشفوية لإسرائيل.

4-1- طلب جنوب افريقيا باتخاذ تدابير تحفظية لمنع وقمع الإبادة الجماعية:

استندت جنوب افريقيا في دعواها التي رفعتها ضد إسرائيل أمام محكمة العدل الدولية إلى المادتين 34 و35 من النظام الاساسي لمحكمة العدل الدولية والمادة 8 من اتفاقية منع الإبادة الجماعية والمعاقبة عليها لعام 1948 ، التي تخولها كدولة طرف في هذه الاتفاقية ، حق اللجوء إلى أجهزة الأمم المتحدة لمطالبتها باتخاذ التدابير المناسبة . حيث تنص المادة المذكورة من الاتفاقية على أن: "لأي من الأطراف المتعاقدة أن يطلب إلى أجهزة الأمم المتحدة المختصة أن تتخذ، طبقاً لميثاق الأمم المتحدة، ما تراه مناسباً من التدابير لمنع وقمع أفعال الإبادة الجماعية أو أي من الأفعال الأخرى المذكورة في المادة الثالثة".

وبما أن محكمة العدل الدولية المنشأة بموجب المادة 92 من ميثاق الأمم المتحدة، والتي تعد جميع الدول الأعضاء بالأمم المتحدة، استنادا للمادة 93 من الميثاق أطرافا في النظام الأساسي لهذه المحكمة التي تعد بحكم اختصاصها القضائي، الجهاز المؤهل للنظر في مثل هذه الدعاوى، فقد لجأت إليها جنوب افريقيا لاتخاذ تدابير طبقا للنظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية الذي يؤكد على الآتي : " للمحكمة أن تقرر التدابير المؤقتة التي يجب اتخاذها لحفظ حق كل من الأطراف وذلك متى رأت أن الظروف تقضي بذلك " [41].

---

[40] – التقرير الذي أرفقته جنوب افريقيا مع الدعوى التي رفعتها ضد اسرائيل الى محكمة العدل الدولية ص 40

[41] – المادة 41 الفقرة الاولى ومن النظام الاساسي للمحكمة

4-2- مضمون دعوى جنوب افريقيا : تتلخص الدعوى في شقين، الشق الأول يتعلق بطلب اتخاذ تدابير تحفظية مؤقتة، لمنع ارتكاب إبادة جماعية، على أن تنظر فيها المحكمة بصورة استعجالية ، أما الشق الثاني ، فيتعلق بجوهر الدعوى المتمثل في اتهام إسرائيل بانتهاك التزاماتها بمنع الإبادة الجماعية والمعاقبة عليها ، المنصوص عليها في اتفاقية الأمم المتحدة لعام 1948 .

وقد عللت جنوب افريقيا طلبها بأن من حق الشعب الفلسطيني في قطاع غزة ألا يتعرض للإبادة الجماعية، مؤكدة بأن الحرب التي تشنها إسرائيل هي حرب إبادة جماعية غير مسبوقة من حيث حدة القصف والتدمير والتشريد، وحجم الضحايا من المدنيين ، والسرعة التي ترتكب بها هذه الإبادة الجماعية الممنهجة .

والجدير بالذكر أن الدول الأطراف في اتفاقية منع الإبادة الجماعية والمعاقبة عليها، قد تعهدت على منع الإبادة الجماعية والمعاقبة عليها: " تصادق الأطراف المتعاقدة على أن الإبادة الجماعية، سواء ارتكبت في أيام السلم أو أثناء الحرب، هي جريمة بمقتضى القانون الدولي، وتتعهد بمنعها والمعاقبة عليها " [42].

4-3- صلاحية محكمة العدل الدولية للنظر في دعوى جنوب افريقيا : في مرافعتها أمام المحكمة ادعت إسرائيل أن المحكمة لا تملك الاختصاص للنظر في دعواها التي تتهمها فيها بالإخلال بالتزاماتها بموجب اتفاقية منع الإبادة الجماعية والمعاقبة عليها لعام 1948 ، غير أن المحكمة ردت على أنها مختصة للنظر في هذه الدعوى ، استنادا للاتفاقية موضوع الدعوى التي تنص على أن : " تعرض على محكمة العدل الدولية، بناءً على طلب أي من الأطراف المتنازعة، النزاعات التي تنشأ بين الأطراف المتعاقدة بشأن تفسير أو تطبيق أو تنفيذ هذه الاتفاقية، بما في ذلك النزاعات المتصلة بمسئولية دولة ما عن إبادة جماعية أو عن أي من الأفعال الأخرى المذكورة في المادة الثالثة " [43]. وكذا المواد 36 و37 و 38 من النظام الاساسي للمحكمة .

---

[42] - المادة الاولى من اتفاقية منع الابادة الجماعية والمعاقبة عليها الصادرة بتاريخ 9 كانون الاول / ديسمبر 1948

[43] - نفس المرجع - المادة التاسعة

5- مدى توفر أركان الإبادة الجماعية في دعوى جنوب افريقيا ضد إسرائيل :
استندت دولة جنوب افريقيا في الدعوى التي رفعتها ضد إسرائيل، إلى محكمة العدل الدولية، إلى اتفاقية منع الإبادة الجماعية والمعاقبة عليها لعام 1948 ، وقدمت للمحكمة تقريرا مكون من 84 صفحة حول الانتهاكات التي قامت بها إسرائيل ضد قطاع غزة واخلالها بالتزاماتها بموجب الاتفاقية المذكورة ، موضحة أن ما قامت به إسرائيل ابادة جماعية مكتملة الاركان ، ويتعلق الامر بـ :

5-1- الركن الشرعي لجريمة الإبادة الجماعية : يتمثل في الأساس القانوني لاعتبار الأفعال المقترفة جريمة إبادة جماعية [44] : " في هذه الاتفاقية ، تعني الإبادة الجماعية أيا من الافعال التالية المرتكبة بقصد التدمير الكلي أو الجزئي لجماعة قومية أو اثنية أو عنصرية أو دينية ، بصفتها هذه:

أ - قتل أعضاء من الجماعة.

ب- الحاق أذى جسدي أو روحي خطير بأعضاء من الجماعة.

ج- إخضاع الجماعة، عمدا لظروف معيشية يراد بها تدميرها المادي كليا أو جزئيا

د - فرض تدابير تستهدف الحؤول دون إنجاب الأطفال داخل الجماعة.

ه - نقل أطفال من الجماعة، عنوة، إلى جماعة أخرى".

ونصت المادة الثالثة من الاتفاقية المذكورة على أن تعاقب الأفعال التالية :

أ - الإبادة الجماعية

ب - التآمر على ارتكاب الإبادة الجماعية

ج - التحريض المباشر والعلني على ارتكاب الإبادة الجماعية

د - محاولة ارتكاب الإبادة الجماعية

ه - الاشتراك في الإبادة الجماعية.

- نفس المرجع – المادة الثانية[44]

5-2- الركن المادي لجريمة الإبادة الجماعية : استنادا لدعوى جنوب افريقيا فإن الركن المادة للإبادة الجماعية يكمن في الحرب التي شرعت إسرائيل في شنها على قطاع غزة بعد مرور 20 يوما من عملية طوفان الأقصى، بالرد على العملية بالقصف الجوي وبدء الهجوم البري على القطاع مساء يوم 27 تشرين الاول / اكتوبر 2023، وما رافقه من تصعيد واستعمال مفرط للقوة المميتة والمدمرة، جوا وبرا وبحر . من خلال القاء ما يزيد عن 60.000 طن من القنابل والمتفجرات على مساحة جغرافية لا تزيد عن 365 كم2 يقطنها أكثر من 2.3 مليون نسمة ، مما تسبب في مقتل أكثر من 21.000 شهيد وما يزيد عن 55.000 جريح من المدنيين وارغام أكثر من 1.9 مليون نسمة من سكان القطاع على النزوح عن ديارهم وحرمانهم من الماء والطعام والدواء والكهرباء والوقود ، والحاق دمار شامل بالمباني السكنية والبنى التحتية والمستشفيات والمدارس ودور العبادة والاماكن والمقرات التابعة للمنظمات الدولية لاسيما وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين" **الاونروا** " .

5-3- الركن المعنوي لجريمة الإبادة الجماعية : يتمثل في القصد الجنائي ، أي النية في ارتكاب الإبادة الجماعية . وقد قدمت جنوب افريقيا ملفا مكون من مستندات ووثائق تحتوي أدلة عن انتهاك إسرائيل التزاماتها كدولة طرف في اتفاقية منع الإبادة الجماعية والمعاقبة عليها ، تتمثل أساسا في تصريحات عدد من الوزراء في الحكومة ومنهم وزير الدفاع يوآف غالانت الذي قال : " فرضنا حصارا شاملا ، لا كهرباء ، لا ماء ، لا طعام ، لا وقود ، قُطعت جميعها ". وتصريحات منسوبة لوزراء آخرين في الحكومة والتي اشاروا فيها إلى ضرورة القاء قنبلة نووية على قطاع غزة ، وإلى تهجير سكان القطاع نحو شبه جزيرة سيناء [45] .

وفي مرافعتها أمام محكمة العدل الدولية يوم 12 كانون الثاني / يناير 2024، نوهت إسرائيل أن ما قامت به يندرج ضمن حقها في استخدام القوة دفاعا عن نفسها، وبأن الإبادة الجماعية التي اتهمتها بها جنوب افريقيا ، تفترض وجود النية لارتكابها ، وأن جنوب افريقيا لم تقدم حسب إسرائيل دليلا بارتكاب ابادة جماعية ، وأنه إذا كانت

- التصريحات تناقلتها وكالات الانباء العالمية ومنها قناة الجزيرة الاخبارية في شهر تشرين الاول / اكتوبر 2023[45]

هناك ابادة جماعية ، فإن حماس هي من ارتكبتها . وطلبت من المحكمة رفض طلب جنوب افريقيا الذي التمست فيه من المحكمة اتخاذ تدابير تحفظية مؤقتة ، مدعية أن من شأن اقرار هذه التدابير، حرمانها من حقها في الدفاع عن نفسها [46].

6- قراءة في منطوق قرار محكمة العدل الدولية الذي أصدرته في جلسة يوم 26 يناير 2024: نطقت المحكمة بقرارها المتعلق بالشق الاستعجالي لدعوى جنوب افريقيا التي تتهم فيها إسرائيل بارتكاب ابادة جماعية ، في الجلسة المنعقدة يوم 26 كانون الثاني / يناير 2024 ، ولإبراز مدى استقلالية المحكمة ومدى تعاملها على قدم المساواة، عند النظر في الدعاوى المشابهة المحالة عليها ، حاولنا اجراء مقارنة بين ثلاثة قرارات صادرة عن محكمة العدل الدولية تتعلق بتهمة الإبادة الجماعية . قرار يخص دعوى غامبيا ضد ميانمار وقرار يخص دعوى أوكرانيا ضد روسيا وقرار يخص دعوى جنوب افريقيا ضد إسرائيل مع التركيز على القرارين الاخيرين. وفيما يلي استنتاجاتنا :

6-1- فيما يتعلق بدعوى أوكرانيا ضد روسيا : استلمت المحكمة الدعوى المرفوعة أمامها بتاريخ 26 شباط / فبراير 2022 وأصدرت في وقت قياسي قرارها بشأن الشق الاستعجالي بتاريخ 16 مارس / آذار 2022 ، ولم تثبت المحكمة وجود أدلة بارتكاب روسيا أعمال إبادة جماعية ، ومع ذلك اتخذت تدابير تحفظية مؤقتة، حيث أمرت روسيا بالوقف الفوري للأعمال القتالية [47].

6-2- فيما يتعلق بدعوى جنوب افريقيا ضد إسرائيل: استلمت المحكمة الدعوى المرفوعة أمامها بتاريخ 29 كانون الاول / ديسمبر 2023 وأصدرت قرارها بشأن الشق الاستعجالي بتاريخ 26 كانون الثاني/ يناير 2024 ولم تثبت المحكمة وجود أدلة بارتكاب إسرائيل أعمال إبادة جماعية ، غير أنها أشارت لوجود مؤشرات لارتكاب

---

[46] – مرافعات اسرائيل في الجلسة العلنية لمحكمة العدل الدولية بتاريخ 12 كانون الثاني / يناير 2024 والتي تم بثها مباشرة عبر قناة الجزيرة الاخبارية

[47] – الامم المتحدة – الجمعية العامة – الدورة 48 – الملحق 4- تقرير محكمة العدل الدولية 2022-2023

ابادة جماعية ، واكتفت بتوجيه أمر لإسرائيل باتخاذ التدابير اللازمة لمنع ومعاقبة من يدعو ويحرض على الإبادة الجماعية [48].

وفي سابقة يبدو أن المحكمة تجاوزت فيها صلاحياتها، خاطبت حركة المقاومة حماس ودعتها للإفراج الفوري وغير المشروط عن الرهائن الإسرائيليين .

6-3- مقارنة بين منطوق قرار المحكمة في دعوى جنوب افريقيا ضد إسرائيل ودعاوى مشابهة : عند المقارنة بين منطوق قرارات المحكمة بشأن دعوى جنوب افريقيا ضد إسرائيل بتاريخ 29 كانون الاول / ديسمبر 2023 ودعوى غامبيا ضد ميانمار بتاريخ 11 تشرين الثاني / نوفمبر 2019 ودعوى أوكرانيا ضد الاتحاد الروسي بتاريخ 26 شباط /فبراير 2022 ، أمكن لنا الاستنتاج بأن المحكمة وبالرغم من طابعها المستقل إلا أنها قد لا تبدو كذلك ، وتتصرف أحيانا أخرى بمنطق الكيل بمكيالين، وهو ما سنوضحه فيما يلي :

6-2-1- عدم أخذ المحكمة بالسوابق القضائية في دعوى جنوب افريقيا : بالرغم من أن المحكمة قد فصلت في دعاوى سابقة مشابهة ومتقاربة زمنيا، رفعت أمامها تتعلق بالإبادة الجماعية ، إلا أنها على ما يبدو لم تأخذ بالسوابق القضائية .

ففي الدعوى التي رفعتها غامبيا ضد ميانمار بتاريخ 11 تشرين الثاني / نوفمبر 2019، والتي تتهمها فيها بارتكاب إبادة جماعية ضد جماعة الروهنغيا، أصدرت المحكمة بتاريخ 23 كانون الثاني / يناير 2020 أمرا " أشارت فيه بعدد من التدابير التحفظية ونصت فيه ، في جملة أمور ، على أن تتخذ ميانمار جميع التدابير الممكنة من أجل منع ارتكاب أي فعل من الأفعال التي تشير إليها المادة الثانية من اتفاقية منع الإبادة الجماعية والمعاقبة عليها ضد أعضاء جماعة الروهينغيا الموجودين على أراضيها وأن تتخذ تدابير فعالة لمنع إتلاف الأدلة المتعلقة بالأفعال المزعومة وضمان الحفاظ على تلك الأدلة..." [49].

---

[48] – قرار محكمة العدل الدولية الصادر بتاريخ 26 كانون الثاني / يناير 2024 والمتعلق بدعوى جنوب افريقيا ضد اسرائيل

[49] – الامم المتحدة – الجمعية العامة – الدورة 48 – الملحق 4- تقرير محكمة العدل الدولية 2022-2023 – ص 38 و39 الفقرات :131 - 132 و 133

وفي الدعوى التي رفعتها اوكرانيا ضد الاتحاد الروسي بتاريخ 26 شباط / فبراير 2022 والتي أكدت فيها أوكرانيا أن " روسيا يبدو أنها تخطط لأعمال إبادة جماعية في أوكرانيا " وادعت أن الاتحاد الروسي " يقتل عمدا أفرادا يحملون الجنسية الاوكرانية ويتسبب في أصابتهم إصابات خطيرة مما يشكل العنصر المادي للإبادة الجماعية بموجب المادة الثانية من الاتفاقية " مصحوبا بما اعتبرته اوكرانيا خطابا يوحي بالنية في ارتكاب أعمال إبادة جماعية ملتمسة من المحكمة اتخاذ تدابير تحفظية [50] .

وبتاريخ 16 آذار / مارس 2022 نطقت المحكمة بقرارها وأمرت " **بأن يوقف الاتحاد الروسي فورا العمليات العسكرية** التي بدأها في 24 شباط / فبراير 2022 في أراضي أوكرانيا وان يكفل امتناع أي وحدات عسكرية أو أي وحدات مسلحة غير نظامية من الوحدات التي تتلقى التوجيه أو الدعم من الاتحاد الروسي وكذلك أي منظمات أو أشخاص يخضعون لسيطرته أو توجيهه، عن القيام بأي خطوات لمواصلة تلك العمليات العسكرية ، وأمرت المحكمة كذلك الطرفين بالامتناع عن أي عمل يمكن أن يؤدي إلى مفاقمة النزاع أو توسيع نطاقه أو جعله مستعصيا عن الحل " [51] .

6-2-2- المحكمة لا يبدو أنها تصرفت بالاستقلالية التي تتمتع بها: لا يبدو أن المحكمة تصرفت بالاستقلالية التي تتمتع بها، فيما اتخذته من تدابير تحفظية سواء في دعوى أوكرانيا ضد الاتحاد الروسي أو في دعوى جنوب افريقيا ضد إسرائيل ، بدليل أنها أمرت روسيا بالوقف الفوري للأعمال العسكرية ، ولم تأمر إسرائيل بنفس التدابير التحفظية بالوقف الفوري للأعمال العسكرية التي تشنها على قطاع غزة ، رغم التباين الواضح في الخسائر البشرية والمادية المسجلة . فإسرائيل مقارنة بأوكرانيا ارتكبت فظائع كبيرة بقطاع غزة فحجم وعدد الضحايا من المدنيين والدمار الممنهج للمباني السكنية والمستشفيات والمدارس ودور العبادة وكل سبل الحياة، يعجز اللسان عن وصفها . وأن ضحايا هذه العمليات العسكرية الإسرائيلية لا يبدو أنها عرضية بقدر ما كانت تستهدف المدنيين والاعيان المدنية وكافة سبل العيش والحياة، بشكل متعمد وممنهج ومتواصل ومتكرر.

---

[50] – نفس المرجع – ص 44 – الفقرات 167 و168 و 170

[51] – نفس المرجع – ص44- 45 – الفقرة 171

6-2-3- المحكمة على ما يبدو قد تكون تعرضت لضغوط : يبدو أن المحكمة قد تعرضت لضغوط غربية للانحياز إلى أوكرانيا في الدعوى التي رفعتها ضد الاتحاد الروسي ، بتأييد طلبها من خلال الامر الذي أصدرته لروسيا بالوقف الفوري للأعمال العسكرية على الاراضي الاوكرانية .

وقد تكون ذات المحكمة قد تعرضت لضغوط غربية أيضا، للحؤول دون اصدار أمر لإسرائيل بالوقف الفوري لحربها على قطاع غزة على غرار الامر الذي أصدرته لأوكرانيا. ويمكن أن نستنتج خضوع المحكمة لضغوط من خلال منطوق القرار الذي أصدرته المحكمة بتاريخ 26 كانون الثاني / يناير 2026 والذي اكتفت فيه بتوجيه أمر لإسرائيل في اطار التدابير التحفظية " باتخاذ كل ما في وسعها من تدابير لمنع ارتكاب ابادة جماعية في قطاع غزة واتخاذ جميع الاجراءات الممكنة لمنع التحريض المباشر والعلني على ارتكاب ابادة جماعية والمعاقبة عليها، وبضرورة اتخاذ اجراءات فورية وفعالة للسماح بتوفير خدمات أساسية ومساعدة إنسانية يحتاج إليها الفلسطينيون في شكل ملح لمواجهة ظروف العيش غير الملائمة " [52].

ويبدو أن الكلمات التي صيغت بها قرارات محكمة العدل الدولية بشأن دعاوى غامبيا ضد ميانمار وجنوب افريقيا ضد إسرائيل تختلف عن تلك التي صيغ بها منطوق القرار المتعلق بدعوى أوكرانيا ضد الاتحاد الروسي ، هذا القرار الاخير الذي صدر بعد مرور 22 يوم فقط من اندلاع الحرب بين البلدين والذي كان يتعلق بدعوى رفعتها أوكرانيا للمحكمة ضد الاتحاد الروسي بتاريخ 26 شباط / فبراير 2022.

والملفت للانتباه أن المحكمة استندت في منطوق قرارها الصادر في 16 آذار/ مارس 2022 ، لاتفاقية منع الإبادة الجماعية والمعاقبة عليها، وأصدرت أمرا حاسما للاتحاد الروسي بالواقف الفوري للعمليات العسكرية بأوكرانيا، بالرغم من أن هذه العمليات التي كانت في بدايتها لم تسفر عن تسجيل خسائر بشرية ومادية بالحجم والحدة والسرعة

---

52. – منطوق قرار محكمة العدل الدولية بتاريخ 26 كانون الثاني / يناير 2024 بشأن دعوى جنوب افريقيا ضد اسرائيل .

التي سجلت بقطاع غزة، ومع ذلك لم تؤكد المحكمة أن الاتحاد الروسي قد ارتكب ابادة جماعية.

خاتمة

ختاما يمكن أن نخلص إلى مجموعة من النتائج التي يمكن أن تعكس الوجه الآخر للنظام العالمي القائم، فمحكمة العدل الدولية والمحكمة الجنائية الدولية وغيرهما من المنظمات الدولية بما فيها الأمم المتحدة التي أُنشئت بعد الحرب العالمية الثانية ليست سوى جزء من منظومة قانونية ومؤسسية، وضعها الغرب وتحديدا الولايات المتحدة الأمريكية وعدد من الدول الأوروبية لاسيما بريطانيا وفرنسا وألمانيا وايطاليا، للاستمرار في هيمنته على هذا العالم وخدمة مصالحه، ويمكنه استخدامها عند الضرورة ضد الأنظمة المناوئة له والدول التي لا يستحي بأن يصفها بالمارقة. ويمكن أن نستدل على ذلك من خلال استخدام الولايات المتحدة الأمريكية لحق الفيتو بمجلس الأمن الدولي لإجهاض جميع مشاريع القرارات التي تُدين إسرائيل أو تلك التي لا تكون في صالحها ومنها إفشال جميع المساعي الدولية لوقف الحرب، باستخدام الفيتو لمنع صدور قرار بوقف إطلاق النار بقطاع غزة.

كما يمكن أن نلمس التوظيف الفاضح لهذه المنظمات الدولية لخدمة مصالح الدول ذات الماضي الاستعماري وهنا يمكن أن نستدل على الأوامر الدولية ومذكرات الاعتقال التي أصدرتها محكمة العدل الدولية ضد عدد من رؤساء الدول العربية (الرئيس السوداني السابق عمر البشير والقائد الليبي الراحل معمر القذافي) وكذا الرئيس الروسي فلاديمير بوتن . وبالمقابل لم يحصل أن أصدرت المحكمة الجنائية الدولية أي أمر أو مذكرة اعتقال ضد من تعاقبوا على حكم إسرائيل من القادة السياسيين والعسكريين بالرغم من الجرائم الفظيعة التي كانوا مسؤولين عنها والانتهاكات الجسيمة للقانون الدولي ولم تصدر مذكرات اعتقال ضد القادة السياسيين والعسكريين الامريكيين بالرغم من الجرائم الوحشية التي كانوا مسؤولين عن ارتكابها بافغانستان بداية من أكتوبر 2011 بذريعة مكافحة الارهاب و وكذا ما اقترفوه من جرائم وانتهاكات جسيمة في حق الشعب العراقي وحضارته طيلة فترة احتلاله لهذا البلد عام 2003 وإلى يومنا هذا، والتي راح ضحيتها مئات الالاف من الاطفال والنساء والشيوخ .

وننوه هنا إلى احجام المدعي العام للمحكمة الجنائية الدولية عن فتح تحقيق جنائي يمكن أن يفضي إلى تحريك دعوى جنائية ضد إسرائيل، بل ولم يسمح له حتى بالدخول لقطاع غزة لتوثيق جرائم الإبادة الجماعية وجرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية التي ارتكبتها إسرائيل، على الرغم من أن هذه الجرائم لم تعد خافية على أحد فاقترافها مستمر منذ أكثر من أربعة أشهر.

أخيرا وبعد مرور أسبوعين عن صدور قرار محكمة العدل الدولية الذي أمرت فيه إسرائيل باتخاذ التدابير اللازمة لحماية المدنيين ومنع الإبادة الجماعية بقطاع غزة وموافاة المحكمة بتقرير عن هذه الاجراءات ، لم تتراجع وتيرة الحرب ولم تنخفض أرقام الضحايا ، ففي ظرف اسبوع واحد فقط، ارتقى أكثر من 1048 شهيد وسقط أكثر من 1800 جريح من الفلسطينيين بقطاع غزة ، ما يعني أن إسرائيل تجاهلت قرار هذه المحكمة ولم تكترث للأوامر الملزمة التي وجهتها لها.

وتعليقا عن هذه الأوامر، قال بنيامين نتنياهو رئيس الوزراء الإسرائيلي : " لن يوقفنا أحد، لا **لاهاي** ولا محور الشر ولا أحد آخر". وهذا دليل آخر على الغطرسة والاستعلاء على القانون الدولي والقضاء الدولي، نتيجة الحماية التي ما فتئت تحظى بها إسرائيل من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها.

حدث طوفان الأقصى في فلسطين: مرحلة جديدة في مجريات الصراع العربي الصهيوني

د. خليل القادري

المستخلص

شكلت أحداث السابع من أكتوبر سنة 2023 في الأراضي الفلسطينية العربية المحتلة حدثا مفصليا في تاريخ الصراع العربي الصهيوني من حيث كونه حدثا مفاجئا وغير متوقع أحدثته المقاومة الفلسطينية، ولما أنتجه من صدى وانعكاسات على مستوى الساحة الدولية في الوطن العربي والعالم ككل.

تُسلّط هذه الورقة البحثية الضوء على هذا الحدث وعوامله قياسا بالمرحلة التي سبقته وما بعده، وفي علاقته بمجريات الصراع العربي الصهيوني القديم المتجدد والمُستمر منذ قرن من الزمن، وذلك لراهنية الموضوع الذي يشغل حيزا هاما في حقول معرفية متداخلة في العلاقات الدولية ومباحث علم الجيوبولتيك وعلم المستقبليات، ولمِا يطرحه من أهمية على مستوى موازين القوى دوليا التي لم تشهد تغييرا كبيرا على مستوى القوى المهيمنة في العالم.

يرتبط حدث طوفان الأقصى بمجريات الصراع العربي الصهيوني خاصة بما يعرفه من منعرجات على مدى أكثر من نصف قرن، أي منذ زمن التمكين للمشروع الصهيوني على أرض فلسطين، ففشل حروب التحرير العربية، وصولا إلى خيار التسوية السلمية الذي بدأ بمسار أوسلو، فانتهاء ببروز قطب تصفية للقضية الفلسطينية داخل النظام الرسمي العربي يُصر على حلها سلميا على حساب الحقوق الشرعية للشعب الفلسطيني.

الكلمات المفتاحية : الصراع العربي الصهيوني _العلاقات الدبلوماسية _حقوق الشعب الفلسطيني–_المقاومة

Abstract

The events of October 7, 2023, in the occupied Arab Palestinian territories marked a seminal juncture in the annals of the Arab-

Israeli conflict. This occurrence assumed significance not only due to its unforeseen and abrupt nature orchestrated by the Palestinian resistance but also considering its profound reverberations and far-reaching implications on the international stage, both within the Arab world and the global arena.

This research paper sheds light on this event and its factors in comparison to the preceding and subsequent stages. It examines its relationship with the ancient and ongoing dynamics of the Arab-Zionist conflict spanning a century. This is crucial due to the contemporary relevance of the subject, occupying a significant space in intersecting fields of international relations, geopolitics, and futurology. The paper explores the pressing nature of the issue, which holds a prominent position in interconnected fields of knowledge within international relations, geopolitics, and futurology, and highlights its impact on the balance of international relations, which has not witnessed significant changes among the dominant powers in the world.

The Al-Aqsa Flood event is linked to the course of the Arab-Zionist conflict, especially with its twists and turns over more than half a century, that is, from the time of the empowerment of the Zionist project on the land of Palestine, the failure of the Arab liberation wars, up to the option of a peace settlement that began with the Oslo process, and ending with the emergence of a liquidating pole for the issue. The Palestinian Authority within the official Arab system insists on resolving it peacefully at the expense of the legitimate rights of the Palestinian people.

The Zionist-Arabic conflict - Diplomatic relations **Key words**:
.- The rights of the Palestinian people - Resistance

تتنزل أهمية الموضوع كونه يندرج ضمن دراسة علم المستقبليات الذي يعنى بالظواهر السياسية، فيدرس الحدث السياسي على ضوء متغيراته وتأثير مجرياته على نزاع دولي ما في الحاضر والمستقبل، لذلك تتطلب دراسة الحدث المفصلي في نزاع ما على فحص الأوضاع التي سبقت اندلاعه ثم تحليل طبيعته سياسيا وعسكريا وانعكاساته

في المنطقة المشكلة لبؤرة الصراع اعتمادا على ما وثقته الصحف العربية والعالمية وسائل الاعلام المعروفة بموضوعيتها وبعض الدراسات النادرة التي حللت طبيعة الحدث، فطوفان الأقصى "جاء كعملية عسكرية شاملة شنتها المقاومة الفلسطينية في قطاع غزة على إسرائيل فجر يوم السبت 7 أكتوبر/تشرين الأول 2023. بدأ تدشينها عبر هُجومٍ صَاروخي وَاسعِ النطاق شنّته فصائل المقاومة، إذ وجَّهت آلاف الصواريخ صوبَ مختلف المستوطنات الإسرائيليّة من ديمونا في الجنوب إلى هود هشارون في الشمال والقدس في الشرق، وتزامنَ مع إطلاق هذه الصواريخ اقتحام برّي من المُقاومين عبر السّيارات رُباعيّة الدّفع والدّراجات النّارية والطّائرات الشّراعيّة وغيرها للبلدات المتاخمة للقطاع، والتي تُعرف باسم غلاف غزة، حيث سيطروا على عددٍ من المواقع العسكريّة خاصة في سديروت، ووصلوا أوفاكيم، واقتحموا نتيفوت، وخاضوا اشتباكاتٍ عنيفة في المستوطنات الثلاثة وفي مستوطنات أخرى كما أسروا عددًا من الجنود واقتادوهم لغَزَّة فضلًا عن اغتنامِ مجموعةٍ من الآليّات العسكريّة الإسرائيليَّة.[53]

تتحدد طبيعة حدث طوفان الأقصى بكونه ليس بمعزل عن بقية الظواهر السياسية المتعلقة بخلق أزمات دولية أو بؤر صراع ممتدة في الزمن، لذلك يستوجب تحليل حدث طوفان الأقصى مقاربة وصفية وتاريخية تعتمد على تحليل الوقائع داخل بؤرة النزاع وربطها جدليا بما قبل الحدث وما بعد الحدث ضمن باب علم المستقبليات الذي يحلل الوقائع الحالية ويرسم تصور الأزمات المقبلة وسبل مواجهتها بالإمكانيات المتاحة أو من خلال خلق إمكانيات إضافية، وقد شكلت تلك البدايات منظومة عمل تضم الكثير من العلوم أطلق عليها تسمية سيناريوهات الأحداث، التي لا تنحصر على الجوانب السياسية والعسكرية فحسب، بل تشمل الكثير من الجوانب الأساسية بما فيها التربية والتعليم والاقتصاد [54]، لذلك تتمحور إشكالية البحث حول رصد طبيعة حدث طوفان الأقصى من حيث مدى تأثيره في مجريات الصراع العربي الصهيوني وانعكاساته إقليميا وأمميا، خاصة بما يطرحه الصراع بين المقاومة الفلسطينية ومحيطها العربي من جانب والكيان الصهيوني وحلفائه من جانب آخر فالصراع السياسي هو

حالة من التنافس الخاص بين البشر على الحكم أو السلطة أو الحصول على الميزات، حيث يكون أطرافه على عِلم بوجود الاختلافات في المواقف المستقبليّة المحتملة ويضطر أحد الأطراف إلى تبّني واتخاذ مواقف لا تتوافق مع مصالح الطرف الآخر، نظراً لاختلاف الأفكار السياسية، ويتأثر حجم الصراع بحجم أهدافه، فكلّما كان الهدف كبيراً كان الصراع أكبر، كما تتحكّم الإمكانيات والموارد المتاحة للأطراف في مدّة الصراع واتجاهه، فهناك بعض الأنظمة السياسية قادرة على الصمود في الصراع، بينما بعضها يتفكك وينهار أمام أول مواجهة فيؤثر في أحد موازين القوى فيه، كما يؤثر في القوى الأخرى خاصة أن ارتبط بنزاع عسكري وسياسي له جذوره في التاريخ وامتداده في المستقبل،[55] وعادة يكون النزاع خاضعا لمنطق موازين القوى العسكرية والاقتصادية، وأيضا يخضع للمفاجآت والمتغيرات المؤثرة في مجرياته فيضع هامشا لتدخل المؤسسات الدولية لوضع نهاية له كأزمة دولية تتطلب حلول سياسية عاجلة عبر ما يسمى الشرعية الدولية المضمنة بالقانون الدولي، وذلك ما ينطبق على الصراع العربي الصهيوني.

يعالج هذا الموضوع على ضوء ذلك حدث طوفان الأقصى من خلال الإجابة عن سؤال يتعلق بما غيره حدث طوفان الأقصى في ميزان العلاقات الدولية إقليميا وأمميا في علاقته بالصراع العربي الصهيوني في محورين:

الجزء الأول: الأوضاع العامة قبل حدث طوفان الأقصى

الجزء الثاني: انعكاسات حدث طوفان الأقصى على موازين الصراع العربي– الصهيوني

الجزء الأول :الأوضاع العامة قبل حدث طوفان الأقصى

لفهم ما غيره طوفان الأقصى وجب رصد وقائع ما قبل الحدث في بؤرة النزاع أي في الأراضي المحتل (أ) ثم رصد المناخ السياسي العام عربيا (ب).

أ- في الأراضي المحتلة بوصفها مركزا للنزاع العربي الصهيوني

بعد فشل تمرير صفقة القرن وصعود اليمين الصهيوني إلى سدة الحكم مجددا، استمرت سياسة الصهاينة الإجرامية العنصرية في الاستيطان والتضييق على الفلسطينيين وتواصل عمليات الاعتقال وسط سكوت باهت من المجتمع الدولي والنظام الرسمي العربي.

ب- في الوطن العربي

يشهد الوطن العربي استمرارية مشروع التجزئة منذ أكثر من قرن، كما يشهد أيضا انقساما بين محاور مختلفة من مكونات النظام الرسمي العربي ذات سياسات متباينة إزاء الموقف من القضية الفلسطينية، إضافة إلى تأثير انعكاسات الأوضاع الداخلية لبعض الأقطار بفعل ارتدادات فشل مشروع الربيع العربي وتراجع زخم الفعل الاحتجاجي.

لئن عرفت بعض الأقطار العربية انفراجا محدودا لأزماتها من بينها الوضع في ليبيا والعراق ونقص احتدام النزاع المسلح في سوريا بين النظام والمعارضة، إلا أنه في أقطار أخرى شهدت حروبا أهلية دموية كالتي حدثت في دولة السودان بفعل الانقسام داخل المؤسسة العسكرية ، كما شهدت مناطق أخرى صراعات باردة بين الأقطار كالأزمة الدبلوماسية بين النظام المغربي والجزائري التي انتهى مآلها إلى التراشق الإعلامي المتبادل والسباق نحو التسلح وتوفير موطئ قدم للكيان الصهيوني عبر اتفاقيات تطبيع أمني وعسكري بينه وبين النظام المغربي[56]. وفشلت انعكاسا لتلك الأوضاع كل مقررات القمم العربية في معالجة الموضوع الفلسطيني، فعجزت عن الخروج بموقف فعلي موحد، وذلك بالخصوص في قمتي الجزائر وجدة.[57]

الجزء الثاني : انعكاسات حدث طوفان الأقصى على ميزان معادلات الصراع العربي الصهيوني

.

لكل حدث مفصلي في مراحل من نزاع دولي ما طبيعة سياسية وعسكرية تحمل عادة تجديدا على ما سبق (أ) ومنعكسا على إحداث تغييرات جيوسياسية في ميزان العلاقات الدولية **(ب)**

أ- طبيعة الحدث السياسية والعسكرية

مثل حدث طوفان الأقصى طبيعة مفاجئة بعد أن أُدخلت القضية الفلسطينية في غياهب النسيان، وأصبحت المعاناة الفلسطينية جزءا من الروتين السياسي والإعلامي الباهت الذي لا يكاد يحظى بأدنى اهتمام، فجاء حدث طوفان الأقصى صبيحة 7 أكتوبر/تشرين الأول الماضي ليضع القضية الفلسطينية في صدارة الأحداث العالمية وفي قلب الاهتمام الدولي حقوقيا وإعلاميا وسياسيا.[58]

كانت عملية طوفان الأقصى في 7 أكتوبر 2023 م، خطوة ضرورية واستجابة طبيعية، لمواجهة ما يُحاك من مخططات إسرائيلية تستهدف تصفية القضية الفلسطينية والسيطرة على الأرض وتهويدها، وحسم السيادة على المسجد الأقصى والمقدسات، وإنهاء الحصار الجائر على قطاع غزة، وخطوة طبيعية في إطار التخلّص من الاحتلال، واستعادة الحقوق الوطنية الفلسطينية المسلوبة، مكرسة بذلك صواب مسار التمسك بحرب الشعب طويلة الأمد كخيار استراتيجي للمقاومة لمواجهة كل مشاريع الإفناء والتصفية الصهيونية للقضية الفلسطينية، لذلك تندرج الطبيعة العسكرية للحدث ضمن أساسيات حروب الشعب طويلة الأمد التي تستلهم منها الشعوب المضطهدة التي ترزخ تحت نير الاحتلال، والتي استلهمت منها فصائل العمل الوطني الفلسطيني فيما سبق، أي منذ تفجير الثورة الفلسطينية المعاصرة واستلهامها دروس الثورة الصينية، بالخصوص زعيمها ماو تسي تونغ الذي وضع أسس حروب الشعب طويلة الأمد والتي تعتمد على ركيزتين: المحافظة على الذات، ومباغتة العدو بالحرب الخاطفة التي تؤمن عبر عمليات المباغتة السرية والسريعة[59]، فحدث طوفان الأقصى يعد مباغتا للكيان الصهيوني، ذلك أن القاعدة العامة في حروب العصابات هي الارتكاز على عنصر المباغتة بسبب اختلال موازين القوى، وفي ظل عدم امتلاك المقاومة

.

.

الفلسطينية مقومات الجيش النظامي، فهي تملك فقط عناصر أو كتائب صغيرة تسليحها لا يرقى إلى ما بأيدي إسرائيل التي تمتلك جيشا نظاميا متطورا و مجهزا بأحدث التكنولوجيا العسكرية ، لذلك يمثل حدث السابع من أكتوبر 2023 خط الاستمرارية في انتقال الصراع من الدول إلى الحركات الشعبية المسلحة .

تتحدد طبيعة طوفان الأقصى على ضوء علم المستقبليات المهتم بدراسة الظواهر السياسية من كونه الحدث الذي يفرض تغيرات تؤدي لتحول جذري في مسار الاتجاه الأعظم بشكل رئيسي أي الحدث غير المتوقع والمفاجئ ، والذي يصيب مركز الظاهرة، ويسمى بمتغير البجعة السوداء الذي يصف الحدث بكونه مفاجأة للمُرَاقِب بعد وقوع الحدث، تجد هذه النظرية أساسها عند الباحث الأمريكي من أصل لبناني نسيم نقولا طالب في كتابه البجعة السوداء سنة 2007 .[60]

تفاجأ الكيان الصهيوني بطبيعة الحدث، قرر الرد بكل حزم جاعلا إنهاء سلاح المقاومة هدفا استراتيجيا، فانطلق بحملات جوية تستهدف المدنيين ظنا منه أنه سيعزل المقاومة عن حاضنتها الشعبية.

أبدى المقاومون الفلسطينيون في المقابل حسن استعدادهم للمعركة رغم الخسائر في الأرواح البشرية بفعل الهمجية الإجرامية الصهيونية فهزّت معركة "طوفان الأقصى" تبعا لذلك صورة إسرائيل العسكرية في ظل عدم امتلاك حماس جيشا نظاميا، في المقابل استنفر سلاح الجو الصهيوني من خلال تأمين نقل مئات الجنود النظاميين والاحتياطيين من جميع أنحاء أوروبا إلى إسرائيل، بغية الاستعداد لشن الغارات الإسرائيلية على مناطق عدة في قطاع غزة، فأدى ذلك إلى سقوط عدد كبير من الشهداء بينهم صحفيون، بعد أسبوع دخل جيش الكيان الصهيوني الحرب البرية مع المقاومة الفلسطينية والتي أظهرت استبسالا منقطع النظير من حيث العمليات النوعية المباغتة والصمود، مانعة الكيان الهدف استعادة الأسرى الصهاينة من أيدي المقاومة بأي ثمن.

نجحت المقاومة الفلسطينية خلال عملية "طوفان الأقصى في إحداث مفاجأة الجيش الإسرائيلي باستخدام أسلحة نوعية متطورة بعضها صُنع محليًا واستُعمل لأول مرة، وبينها تلك القذائف التي من أبرز قدراتها مضادة للدروع وذات قدرة تدميرية عالية، قذيفة ترادفية ومحلية الصنع من عيار 105 ملم.[61]

استخدمت المقاومة الفلسطينية الصواريخ بكثافة واعتمدت خطة الخداع الاستراتيجي عبر توظيف مفرط للصواريخ التي تمكنت من شل المطارات والقبة الحديدية، وعطّلت أيضا عمل مساند المراقبات الإلكترونية كما استخدمت قذيفة الياسين" شديدة التدمير وهي وغيرها من الأسلحة تم تصنيعها محليا بقطاع غزة بمعاونة إحدى الدول الإقليمية.[62] تميز بالتوازي نجاح السياسة الإعلامية للمقاومة الفلسطينية في كسب ثقة شارعها العربي من خلال سياستها الإعلامية التي تنقل يوميا نشاطها المقاوم وتوثقه بدقة فبرزت معها ظاهرة الناطق الرسمي لكتائب عز الدين القسام المكنى بأبي عبيدة الذي أضحى رمزا لتلك الحرب ومصدر موثوقية من الرأي العام العربي والعالمي الموضوعي مما عكس تطورا في السياسة الاتصالية للمقاومة الفلسطينية .

ب- انعكاسات الحدث جيو-سياسيا

انتج حدث طوفان الأقصى انعكاسات على مستوى التعاطي العربي وعلى مستوى التعامل الدولي مع مجريات الأحداث.

1 – على مستوى التعامل العربي مع حدث طوفان الأقصى

يمكن قياس التعامل العربي مع مجريات حدث السابع من أكتوبر على مستويين مستوى تعاطي النظام الرسمي العربي مع الحدث بكل مكوناته الفاعلة سياسيا، وأيضا مستوى تعاطي الشعوب ومكونات المجتمع المدني، ذلك أن قياس التعامل العربي مع الحدث لا ينصب فقط على جانب النظام الرسمي العربي، بل يتجاوزه أيضا إلى ديناميكية الشعوب في تفاعلها مع الحدث، وبالخصوص مكونات المجتمع المدني وبعض التيارات المعارضة المسلحة في دول الطوق.

ظهر النظام الرسمي العربي فعليا مع تأسيس جامعة الدول العربية عام 1945، وكانت فلسطين إحدى قضاياه المركزية، لذا عكست حرب غزّة مرحلته الأخيرة، وأظهرت إمكانية إسدال الستار عن انتهاء وجود حقيقي، أو استمراره في أداء مهمة وظيفية، كما كشفت الحرب عن قدر التفتت في المواقف يعكسه واقع النظم العربية المليء بالتناقضات، والمصالح، والتنافس القُطري، وتأثيراتٍ سلبيةٍ لخرائط التحالفات، وموجات التطبيع، وربّما يكون النداء الأخير من مواطني غزّة للعرب، تأكيدًا لما سبق، وإدراكًا لحال ومواقف حكام دول الجيران والأشقاء، تزامن طوفان الأقصى مع استعداد بعض الأنظمة العربية لصفقة تطبيعٍ منفردةٍ، فكان الحدث مفاجئا لها، لذلك استمرت جل مكوناته في سياسة التنديد والدعوة إلى التمسك بحلول التسوية السلمية، وذلك من خلال الدعوة إلى ضبط النفس من كلا الجانبين ووقف التصعيد في حين توسل البعض بالمجتمع الدولي[63].

تميزت ردة فعل الشارع العربي باندلاع عدة مظاهرات احتجاجية يومية في الدول العربية رفعت فيها أعلام فلسطين، كما نظمت تحركات احتجاجية أمام مبنى السفارات الدول الغربية الداعمة للكيان الصهيوني.[64] وأقيمت ندوات أطرتها نخب وتيارات سياسية معارضة تمحورت حول سبل دعم القضية الفلسطينية، كما فتح باب التبرع لإغاثة أهل غزة من الجرحى.

بينت هذه الحركية إزاء ما يحدث في الأراضي الفلسطينية المحتلة امتلاك المقاومة لحاضنة شعبية عربيا أن الشارع العربي ما زال يرفض أي علاقة تطبيع للعلاقات مع الكيان الصهيوني أو التفريط في الحقوق الفلسطينية، ويؤيد ذلك حجم استطلاعات الرأي العام العربي الذي أجرته منظمات عربية وغربية .[65]

لم يكن تعاطي الشارع العربي فقط قائما على الاحتجاج والدعم بالكلمة والموقف والمساهمات العينية، إنما امتد إلى دخول فاعلين سياسيين قدماء وجدد إلى غمار المعركة، وقد ترافق ذلك مع الحديث عن مرحلة ما بعد عملية طوفان الأقصى، فدخل

على خط الصراع حزب الله اللبناني عبر بعض الهجمات الخاطفة على قواعد الكيان الصهيوني في شمال الأراضي الفلسطينية المحتلة[66]، كما دخل تنظيم انصار الله اليمني إلى معادلة الصراع عبر قرصنة السفن الصهيونية[67]، مما أنبأ باحتمال حرب إقليمية موازية لما يحدث في الأراضي الفلسطينية، في المقابل شهد العراق قصف بعض التنظيمات الإسلامية العراقية المسلحة لقواعد أمريكية كرد على دعمهم للكيان الصهيوني.[68]

2- على مستوى التعامل الدولي الأممي مع حدث طوفان الأقصى

يمكن قياس التعامل الدولي مع الحدث في مستويات عديدة من خلال تعامل المجتمع الدولي عبر هياكله الدولية وعبر الدول النافذة في مراكز صنع القرار العالمي.

تمثل العنوان الأبرز في التعامل مع حدث طوفان الأقصى في عجز الأمم المتحدة عن إنهاء الصراع منذ بدء الحرب في غزة، وقد سجل مجلس الأمن الدولي فشلا متكررا، في اعتماد قرار، بوقف إطلاق النار في هذه الحرب، التي دخلت شهرها الرابع، وقد استخدمت الولايات المتحدة، في التاسع من كانون الأول/ديسمبر، حق النقض ضد مشروع قرار للمجلس يدعو إلى "وقف إنساني فوري لإطلاق النار" في غزة، وذلك رغم ضغوط غير مسبوقة من الأمين العام للأمم المتحدة أنطونيو غوتيريش، وعلى إثر ذلك تبنت الجمعية العامة للأمم المتحدة، قرارا غير ملزم بهذا الصدد، بغالبية 153 صوتا، من أصل الدول الأعضاء الـ193 ، فيما صوتت عشر دول ضده وامتنعت 23 عن التصويت.[69]

يطرح هذا التعامل للقوى الدولية في ميزان العلاقات الدولية طبيعة تفعيل قواعد القانون الدولي الذي يتميز بطبيعة متكاملة عبر التنصيص قانونا على قواعد المسؤولية الدولية في مواجهة الدولة التي ترتكب جرائم دولية، وهو ما ينطبق على حالة الاحتلال الإسرائيلي بامتياز، الذي ارتكب ويرتكب مختلف أنواع الجرائم الدولية المعروفة، من عدوان ترافق مع احتلال وضمّ، إلى انتهاك فجّ لاتفاقيات جنيف وقواعد لاهاي المنظمة

لحالة الاحتلال الحربي، وصولًا إلى حدّ ارتكاب جرائم حرب، وجرائم ضد الإنسانية، وجرائم إبادة بحق المواطنين الفلسطينيين في الأراضي الفلسطينية المحتلة، لا سيما في قطاع غزة.[70]

لم يجرِ تفعيل أيٍّ من صور المحاسبة والجزاء في مواجهة إسرائيل، رغم كل ما ارتكبته وترتكبه حتى الآن. ويعود ذلك بصورة أساسية إلى تمتع إسرائيل بمظلة حماية أميركية تقيها الخضوع لقواعد القانون الدولي وتحرّرها من التزام مبادئ الشرعية الدولية وقيمها، فالفيتو الأميركي والدعم السياسي والاقتصادي والعسكري كانا دومًا لا يشكّلان فقط حمايةً لها من إعمال قواعد المسؤولية الدولية ضدها، بل أيضًا دافعًا نحو ارتكاب المزيد من الجرائم الدولية، وتشجيعًا على التمسك بموقفها الرافض تطبيقَ قرارات الأمم المتحدة. وهي سياسة تطرح إشكالية مساءلة الولايات المتحدة الأميركية نفسها لعدم تحمّل مسؤولياتها كدولة دائمة العضوية في مجلس الأمن، ولعدم التزامها بما جاء في ميثاق الأمم المتحدة فيما يتعلق بردع المعتدي وعدم مساعدته. هذا العجز لا تتحمله الولايات المتحدة فقط بل الدول الغربية النافذة لكن اللافت للنظر هو بروز ازدياد حجم التنكر الغربي لحقوق الشعب الفلسطيني، وهو ما فوجئت به الساحة العربية بالخصوص الفعاليات الحقوقية، فمواقف الدول الغربية تنكرت للشعب الفلسطيني وحقوقه فساوت بين الضحية والجلاد وخرجت من مقولات ضرورة تحقيق السلام عبر حل الدولتين، في المقابل فإن بعضها قد دعا إلى تفعيل هدنة إنسانية تستهدف وقف إطلاق النار، في حين اعتبرت الغالبية منها حق إسرائيل في الدفاع عن نفسها حتى ولو تطلب إبادة الشعب الفلسطيني.[71] ويستشف من ذلك تصريحات المسؤولين الكبار في الاتحاد الأوروبي الذين تحدثوا عن "الوقوف غير المشروط إلى جانب إسرائيل [72]، كما وجهوا وصم الإرهاب إلى المقاومة الفلسطينية، بالرغم من أن المقاومة المسلحة حق مكفول بموجب القانون الدولي[73]، في المقابل برزت أصوات حقوقية غربية مساندة

.

للشعب الفلسطيني فاندلعت احتجاجات كبرى داخل عواصم و مدن عديدة غربية تدين الكيان الصهيوني وتطالب بوقف العدوان على قطاع غزة[74].

مثل موقف جنوب افريقيا في مجريات ما بعد أحداث طوفان الأقصى نقطة ضوء منيرة وسط ركام ظلام مساندة القوى الدولية النافذة للكيان الصهيوني وأمام صمت النظام الرسمي العربي، حيث بادرت بالتماس طلب لرفع دعوى ضد إسرائيل أمام محكمة العدل الدولية على خلفية تورط الكيان الصهيوني في "أعمال إبادة جماعية" ضد الفلسطينيين بقطاع غزة. تفاعلت إيجابا محكمة العدل الدولية، عبر قبولها النظر في "الطلب المقدم المتعلق بانتهاكات إسرائيل لالتزاماتها، بموجب اتفاقية منع جريمة الإبادة الجماعية، والمعاقبة عليها بموجب القانون الدولي .[75]

رفعت محكمة العدل الدولية تبعا لذلك أولى جلساتها بعد الاستماع لمرافعة جنوب أفريقيا ضد إسرائيل بتهمة ارتكاب إبادة جماعية بحق الفلسطينيين في قطاع غزة. وتلت رئيسة المحكمة القاضية الأميركية جوان دونوغو قائمة بالمسائل الإجرائية التي ستتخذها المحكمة في نظر الدعوى بمشاركة قاضيين من جنوب أفريقيا وإسرائيل وذلك لضمان النزاهة والشفافية على حد تعبيرها.[76]

وقال الفريق القانوني لجنوب أفريقيا إن إسرائيل تكثف جرائمها ضد الفلسطينيين منذ عام 1948، وإنها تخضع الفلسطينيين لنظام فصل عنصري، مضيفا أن المجتمع الدولي فشل في منع الإبادة الجماعية في غزة.

نتائج البحث

تتمثل نتائج البحث في تبلور معطيات لطبيعة الحدث وفتح الباب أمام مآلات محتملة للصراع بعد حدث طوفان الأقصى من خلال رصدها على المستوى المرحلي والمستوى الاستراتيجي عربيا وانعكاساته دوليا الذي يفتح إمكانية قيام حل منهي للصراع.

أولا على المستوى المرحلي يستحيل التنبؤ مبكرا بكل السيناريوات المحتملة لنتائج معركة طوفان الأقصى، وهي التي لم تتجاوز بعد مراحلها الأولى، ومن الصعب جدا

قراءة معطياتها بنفس السياقات والأدوات التي كانت تقرأ بها المعارك والمواجهات السابقة بين الفلسطينيين، أو العرب على وجه العموم، من جانب، والكيان الصهيوني من جانب آخر. وكذلك من الصعب جدا التنبؤ بإمكانية حسم النزاع السياسي في عواصم غربية وعربية وإقليمية، لذلك فإن المعركة العسكرية ستشهد حسم الميدان وفق منطق "لا غالب ولا مغلوب"، ووفق خيار العودة إلى وضع ما قبل طوفان الأقصى التي عادة تنتهي بمفاوضات غير مباشرة عبر وسيط دولي، كما تتيح نتائج فاعلية سلاح المقاومة تحسين شروط التفاوض بوساطة دولية صفقة تبادل أسرى كما حدث في السابق، لا سيما تشبث المقاومة بشرط إطلاق الأسرى الفلسطينيين من مختلف الفصائل الفلسطينية التي قد تساهم في إنهاء الانقسام الفلسطيني وتؤسس للوحدة الفلسطينية.

ما يعانيه قطاع غزة الآن هو ارتفاع عدد الضحايا من شهداء وجرحى، بالإضافة إلى دمار البنية التحتية بالخصوص الدمار الكلي أو الجزئي لربع مليون مسكن ودمار المؤسسات التجارية والاقتصادية والأراضي الزراعية وشبكات الطرقات البرية، عدا الحصيلة الثقيلة لمخلفات القصف الصهيوني الهمجي على قطاع غزة وما أفرزه من عدد كبير من الأيتام والأرامل وفاقدي السند، لذلك فإن الوضع في القطاع يحتاج إلى إعادة تعمير البنية التحتية وإعادة هيكلة الاقتصاد والمؤسسات، وهذا يحتاج إلى تكاتف مجهود عربي ودولي لدعم قطاع غزة وإعادة شريان الحياة فيه، في المقابل فإن استمرار المعركة قد يؤدي لنفس النتائج ويزيد من حجم المعاناة ولتكاليف المستوجبة لإعادة الإعمار.

– ثانيا على المستوى الاستراتيجي، إن ما أبرزه العمل المقاوم بعد أحداث طوفان غزة كفيل بأن يضع حدا لمسار التسوية الفاشل ويفتح الباب أمام حوار وطني فلسطيني جاد ينهي الانقسام، ومؤسسا لفاعلية جديدة لمؤسسات القرار الوطني الفلسطيني تشرك فيه كل الحساسيات الفلسطينية دون إقصاء، وذلك على قواعد جديدة تعيد آليات التحرير والمقاومة كعناوين وأهداف استراتيجية لا أهداف تكتيكية مرحلية توظف لمكاسب سياسية فئوية ضيقة وغير فاعلة كما حدث في الماضي.

أمام ضعف تأثير النظام الرسمي العربي في المنابر الأممية وعدم فاعلية المبادرات لإنهاء الصراع وإنهاء أزمة الشعب الفلسطيني المزمنة، فإن الصراع سيستمر على ثنائية صمود المقاومة ومواصلة همجية إجرام الاحتلال الصهيوني، خاصة وأن سلاح المقاومة اكتسب استعادة ثقة الرأي العام العربي بخيار المقاومة وصنع توازنا استراتيجيا مع جيش العدو الصهيوني، فالمعلوم في الحروب التحررية التي تخوضها الشعوب المستعمرة كطرف ضعيف إذا لم يُمكّن الطرف القوي من تحقيق أهدافه، فإنه يكون بمعنى من المعاني قد انتصر، ويمكن أن تتحقق هذه النتيجة نظرًا إلى الأهداف العالية العلنية والسرية التي وضعتها الحكومة الإسرائيلية، والتي تبدأ بالقضاء على المقاومة، وتمر بإطلاق سراح الأسرى الإسرائيليين، وألا يكون قطاع غزة مصدرًا للتهديد في المستقبل القريب، ولا تنتهي بالتهجير، وتقليص مساحة وسكان القطاع، وفرض مناطق عازلة وإدارة ذاتية تخضع للاحتلال من دون تسميته احتلالًا، تلك الأهداف أحبطتها المقاومة بعملية طوفان الأقصى، في المقابل قد يؤدي صمود المقاومة إلى اندلاع أزمة داخلية داخل المجتمع الصهيوني وربما تتراجع سطوة اليمين الصهيوني على القرار السياسي الصهيوني وفق مآلات الانتخابات النيابية القادمة .

ثالثا حل الصراع على المستوى الدولي

يؤيد أقطاب المجتمع الدولي حاليا مشروع حل الدولتين كآلية لإنهاء النزاع العربي الصهيوني، لكن لمجرد موافقة الكيان الصهيوني على هذا القرار، سيفتح الباب أمام انقسام داخلي، وهو بمثابة مخاطرة داخل المجتمع الإسرائيلي ينبئ بأزمات حادة داخل مكوناته السياسية، أما رفض الحل سيحرج دولة الكيان الصهيوني أمام المجتمع الدولي.

كانت مبادرة دولة جنوب افريقيا برفع دعوى عامة أمام محكمة العدل الدولية وقبول النظر فيها عنصر المفاجئة في الصراع العربي الصهيوني في جانبه القانوني والمؤسساتي ، ربما تفتح الباب أمام هياكل الأمم المتحدة لصحوة ضمير حقوقي متناغم مستقبلا مع أسس القانون الدولي كي لا يساوي بين الضحية والجلاد.

التوصيات

– وجوب دراسة هذا الحدث من زاوية حقول معرفية عديدة ومتداخلة بين الدراسات العسكرية والأمنية والقانون الدولي الإنساني وعلم المستقبليات، لا سيما أن هذا الحدث عكس نجاحات ومكاسب لفصائل المقاومة الميدانية المتمسكة بإحياء خيار المقاومة سبيلًا للتحرر، وهو ما يتعارض مع حالة الاستسلام العربي، وأهداف المطبّعين، ويفتح مجالًا يهدد مخططاتهم الاقتصادية، وطموح بعضها لقيادة المنطقة العربية بالتحالف مع الكيان الصهيوني.

– ضرورة تجاوز الأنظمة العربية مرحلة سياسة التنديد والتمسك بخيارات التسوية مع ضرورة العمل على حل مشاكلها البينية بالحوار وأن تعيد الاهتمام بقضية فلسطين والعمل على إعادة إنعاش الاقتصاد الفلسطيني في المناطق المنكوبة بالقطاع وتحسن أسلوب ممثليه داخل أروقة الأمم المتحدة وبالخصوص فريقها الحقوقي داخل هياكلها.

–ضرورة تكاتف جهود النخب العربية في دول المركز الأوربي في تحسين تواجدها في الجامعات الغربية والإعلام الغربي لفضح الدعاية الصهيونية المتهافتة وإحراجها أمام أروقة الأمم المتحدة والمجتمع المدني الدولي، وذلك عبر كسب ذوي الضمائر الإنسانية الحية من الرأي العام الغربي مع ضرورة تثمين ودعم مبادرة دولة جنوب افريقيا في مقاضاة دولة الكيان أمام محكمة العدل الدولية.

خاتمة

بينت معركة طوفان الأقصى في قطاع غزة صواب خيار المقاومة حلا استراتيجيا لمواجهة مشاريع تصفية القضية الفلسطينية ، لئن كانت ضريبته باهظة على سكان قطاع غزة الذين تحملوا الرد الهمجي الصهيوني على تلك العملية، فإن التحرير لا يأتي إلا بالتضحيات الجسام وبمقاومة تسندها حاضنة شعبية.

أضحت عملية طوفان الأقصى بقطع النظر عن نتائجها صفحة رئيسية تميزت بطبيعتها المفاجئة وأخرجت الصراع العربي الصهيوني من مجريات صراع الدول إلى صراع الحركات الشعبية المسلحة المعتصمة بحرب الشعب طويلة الأمد خيارا استراتيجيا للتحرير واستعادة الحقوق المسلوبة.

المصادر والمراجع

1- محمد بسيوني عبدالحليم، طوفان الأقصى ،ما التداعيات المحتملة للتصعيد العسكري بين إسرائيل وحماس؟14 أكتوبر2023، موقع انترجيونال للتحليلات الاستراتيجية https://www.interregional.com/

2- زكي، أحمد عبد الفتاح وآخرون، الدراسات المستقبلية، دار الميسرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن 2003 ، ص 4-5.

3- "Political Conflict", Retrieved 20/8/2018. Edited. oefresearch.org.

4- حازم علي وهيب علي أبو الرمح ، الصراع بين حركتي فتح و حماس و أثره على التسوية السلمية ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في العلوم السياسية ، كلية الآداب و العلوم قسم العلوم السياسية ، جامعة الشرق الأوسط ، السنة الجامعية 2010 -2011 ، ص4 .

5- وليد عبد الحي ،سيناريوهات ما بعد طوفان الأقصى ، ورقة علمية ، مركز الزيتونة للدراسات و الاستشارات ، بيروت كانون الأول 2024، ص5.

اتفاقية أو معاهدة أوسلو، ، والمعروفة رسمياً باسم إعلان المبادئ حول ترتيبات الحكم الذاتي الانتقالي هو اتفاق سلام وقعته إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية في مدينة واشنطن الأمريكية في 13 سبتمبر 1993، بحضور الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون. وسمي الاتفاق نسبة إلى مدينة أوسلو النرويجية التي تمت فيها المحادثات السرّية التي تمت في عام 1991 أفرزت هذا الاتفاق في ما عرف بمؤتمر مدريد. اعتبر اتفاقية أوسلو، التي تم توقيعها في 13 سبتمبر/ أيلول 1993، أول اتفاقية رسمية مباشرة بين إسرائيل ممثلة بوزير خارجيتها آنذاك شمعون بيريز، ومنظمة التحرير الفلسطينية، ممثلة بأمين سر اللجنة التنفيذية ياسر عرفات. وشكل إعلان المبادئ والرسائل المتبادلة نقطة فارقة في شكل العلاقة بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل تزمت منظمة التحرير الفلسطينية على لسان رئيسيها ياسر عرفات بحق دولة إسرائيل في العيش في سلام وأمن والوصول إلى حل لكل القضايا الأساسية المتعلقة بالأوضاع الدائمة من خلال المفاوضات.

6- المكتب الإعلامي لحركة المقاومة الإسلامية حماس ، وثيقة بعنوان : هذه روايتنا لطوفان الأقصى ص4

7- صفقة القرن خطة الرئيس الأمريكي الأسبق ترامب للسلام هو اقتراح أو خطة سلام تهدف إلى حل النزاع الإسرائيلي الفلسطيني، أعدها رئيس الولايات المتحدة دونالد ترامب. وتشمل الخطة إنشاء صندوق استثمار عالمي لدعم اقتصادات الفلسطينيين والدول العربية المجاورة، مقابل تصفية القضية الفلسطينية . رفضت جامعة الدول العربية مقترحه بالإجماع، كما رفضته مختلف القوى السياسية الفلسطينية.

عبد الوهاب حمروش ، حفيظة طالب ، صفقة القرن :2020 تسوية القضية الفلسطينية أم تصفيتها ، مقال بالمجلة الجزائرية للعلوم الاجتماعية و السياسية المجلد 1 ، العدد 09 ، 2021،.ص 774 -775

8 - وليد عبد الحي ،سيناريوهات ما بعد طوفان الأقصى، ورقة علمية ، مركز الزيتونة للدراسات و الاستشارات ، مرجع سابق ،ص 2 .

-نسيم نقولا طالب ، البجعة السوداء تداعيات الأحداث غير المتوقعة ، ترجمة حليم نسيب نصرالدار العربية للعلوم ، ط 1 بيروت 2009، ص 10-12 - 13.

9- إلهام رشيدي، العلاقات المغربية الجزائرية: سجال عبر التاريخ ، مركز مالكوم كارنيغي للشرق الأوسط https://carnegie-mec.org/.

10- مؤتمر القمة العربية بالجزائر عدد 31 نوفمبر 2022 أكدت القمة العربية التي اختتمت أعمالها بـ"إعلان الجزائر" على تمسكها بحقوق الشعب الفلسطيني، بما فيها حقه في الحرية وتقرير المصير، وإقامة دولة فلسطين وعاصمتها القدس الشرقية.

-مؤتمر القمة العربية بالرياض عدد 32 ماي 2023 التأكيد على مركزية القضية الفلسطينية عربيا وعلى المبادرة العربية كسبيل لحلها و التأكيد على أهمية تكثيف الجهود للتوصل إلى تسوية عادلة للقضية الفلسطينية.

11- وليد عبد الحي ،سيناريوهات ما بعد طوفان الأقصى ، ورقة علمية ، مركز الزيتونة للدراسات و الاستشارات ، بيروت كانون الأول 2024 ص12.

12- ماو تسي تونغ ، حرب التحرير الشعبية جزء أول حرب العصابات و قضايا التكتيكية و الاستراتيجية ، ترجمة الدكتور فؤاد أيوب ، دار دمشق للطباعة و النشر ، ص 12 -13.

13- شيرين شريف، ما هي أسلحة حماس الجديدة التي تمكنها من المواجهة حتى الآن؟ موقع بي بي سي عربي

14- محمد سناجلة ، من القبة الحديدية إلى مقلاع داود.. كم تكلف أنظمة الدفاع الإسرائيلي؟ 23 ديسمبر 2023 موقع الجزيرة اقتصاد

https://www.aljazeera.net/ebusiness/

15- عصام شعبان ، النظام الرسمي العربي والحرب على غزة، 26 أكتوبر 2023، موقع العربي.https://www.alaraby.co.uk/الجديد

16- صحيفة العرب، مظاهرات حاشدة في أنحاء العالم تضامنا مع غزة 23 أكتوبر 2023

17- المكتب الإعلامي لحركة المقاومة الإسلامية حماس ، وثيقة بعنوان : هذه روايتنا لطوفان الأقصى ص 5 مرجع سابق.

18-نذير رضا ،4 أهداف لاستراتيجية «حزب الله» لمواكبة حرب غزة، جريدة الشرق الأوسط 22 أكتوبر 2023

19- فوزي الغويدي، تدخّل الحوثيين في حرب غزة: ما بين التكتيك والتأثير، 7 ديسمبر، 2023 ،مجلس الشرق الأوسط للشؤون الدولية

.https://mecouncil.org

20- حمدي مالك, مايكل نايتس ، لمحة عامة: "المقاومة الإسلامية في العراق"، 21 تشرين الأول/أكتوبر 2023 ،معهد واشنطن للسياسات الشرق الأدنى الموقع الكتروني https://www.washingtoninstitute.org/ar/ .

21- موقع بي بي سي عربي ،هل بات مجلس الأمن الدولي عاجزا عن وقف الحرب في غزة؟ 19 ديسمبر 2023 . الموقع الكتروني

. /https://www.bbc.com/arabic

22. محمود الحنفي، غزة: إدانة أممية بلا فعل.. هل فات الأوان لإنقاذ الأمم المتحدة؟،25 يناير 2024 .https://www.aljazeera.net/opinions/ اراء مدونة الجزيرة

23- محمد حمشي ، عن مفهوم المجتمع الدولي وخيبته المريرة في غزة، 23 تشرين 2023 ، المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات ، الدوحة قطر ، ص 6 .

24- صحيفة القدس العربي ، الغرب يعارض وقف إطلاق النار وسط تفاقم المأساة الإنسانية في غزة 26 أكتوبر 2023

25- يعد حق تقرير المصير حقاً ثابتاً في القانون الدولي، ومبدأ أساسي في ميثاق الأمم المتحدة، والتي في قرارها رقم 1514 لـ "إعلان منح الاستقلال للبلدان والشعوب المستعمرة"، بتاريخ 14 ديسمبر/ كانون الأول 1960، أكدت بصفة صريحة أنه "لجميع الشعوب الحق في تقرير مصيرها، ولها بمقتضى هذا الحق أن تحدد بحرية مركزها السياسي وتسعي بحرية إلى تحقيق إنمائها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي ويشمل هذا الحق القضية الفلسطينية، وهو ما يؤكده القرار الأممي 3236، بتاريخ 22 نوفمبر/ تشرين الثاني 1974، والذي نص على أن الأمم المتحدة "تعترف كذلك بحق الشعب الفلسطيني في استعادة حقوقه بكل الوسائل وفقاً لمقاصد ميثاق الأمم المتحدة ومبادئه وتناشد جميع الدول والمنظمات الدولية أن تمد بدعمها الشعب الفلسطيني في كفاحه لاسترداد حقوقه، وفقاً للميثاق."

26- محمد يوسف ،المتضامنون مع فلسطين يصطدمون بحظر وتقييد الدول الأوروبية، 17 أكتوبر 2023 ،وكالة الأناضول الإخبارية الموقع الكتروني

https://www.aa.com.tr/ar.

27–وكالة الأنباء الباكستانية الرسمية، جنوب إفريقيا ترفع دعوى قضائية ضد إسرائيل أمام "العدل الدولية" 31 ديسمبر 2023 الموقع الكتروني

.https://arabic.app.com.pk/arabic/

28– جريدة القدس العربي ،محاكمة إسرائيل تخطف الأضواء على شبكات التواصل وتطرح سؤالاً كبيراً: أين العرب؟.

هيئة الشباب والتنمية

طوفان الأقصى ومواجهة المشروع الاستعماري

أ. جمال العملة

تقديم

ظن البعض أن الحرب على قطاع غزة وعلى الضفة الغربية من فلسطين قد بدأت بسبب ما قامت به المقاومة الفلسطينية يوم السابع من أكتوبر لعام 2023، وهذه هي الرواية التي تتستر بها الحركة الصهيونية ودولتها المسخ إسرائيل، لكنهم بذلك يغطون على الجرائم المتواصلة على الشعب الفلسطيني منذ ما قبل النكبة ولم تتوقف يوما!

لكن الحقيقة أن أي نشاط معادٍ يقوم به الفلسطينيون ضد الإسرائيليين هو ردة فعل بسيطة على مواصلة العدوان البشع على شعب فلسطين وأرضه ومقدراته منذ ما قبل النكبة وما زال مستمرا.

فكيف كان الواقع في الأرض الفلسطينية المحتلة قبل السابع من أكتوبر !؟

مشاهد الوضع الفلسطيني قبل الحرب – طوفان الأقصى

- وصول أكثر الصهاينة تطرفاً – حزب الصهيونية الدينية – بتسلئيل سموترتش، بن غافير (هؤلاء ليسوا قادة ولا ينتمون لمجتمع انساني حقيقي، هؤلاء من اللقطاء الذين ولدوا في الكيبوتسات الصهيونية التي أقيمت على أرض فلسطين منذ ما قبل النكبة، وهم ينتمون إلى جيل ليس لهم نسب وتمت تربيتهم على الحقد والسادية في السلوك الإنساني ، وعلى التطرف الديني والنرجسية الدينية التي لا تعترف بغير الديانة اليهودية بالصيغة المحرفة التي تعتبر أن أنبياء بني إسرائيل هم من أخضع الرب .. هذا الرب الذي خلق الكون ويديره لصالحهم !!! ففي عقيدة حزبهم أن أرض الميعاد وهي من النيل إلى الفرات هي لهم منحة الهية سيحصلون عليها بالتدريج بدءً من أرض فلسطين، وحتى ينفذون أحلامهم السادية كتبوا في ميثاق حزبهم –أرض إسرائيل من نهر الأردن حتى البحر هي وقف يهودي، والعرب المتواجدون عليها أمامهم ثلاث سبل فقط : إما الرحيل ونحن جاهزون لتأمين ذلك لهم، أو الموت قتلا (بمفهوم الإبادة) ، والسبيل الثالث لجزء بسيط منهم نختارهم للبقاء من أجل تقديم الخدمات

العامة لنا دون أن يكون لهم أي حقوق سياسية أو قومية ويخضعون لنا خضوعا تاماً (أقرب إلى مفهوم الرقيق).

- استلم هؤلاء مسؤوليات في الحكومة الاحتلالية كما يلي:- **سموترتش:- 1- وزيرا للمالية** (وهذا يعني التحكم في موازنة الدولة وتخصيص مبالغ ضخمة لتمويل الاستيطان الذي يعتبرونه جزء من عقيدتهم، والتحكم في أموال السلطة الفلسطينية عائد المقاصة، **2- مسؤول ما يسمى بالإدارة المدنية** وهي الجهاز المسؤول عن الضفة الغربية – مصادرة الأراضي، اغلاق الطرق، شق الشوارع الاستيطانية وربط المستعمرات بالمياه والكهرباء، المسؤول عن ترخيص الاستيطان الصهيوني، وشرعنة البؤر الاستيطانية، وهو المسؤول عن قرارات هدم المساكن الفلسطينية في المنطقة المصنفة ج وهي (64% من مساحة الضفة الغربية)، وهو المسؤول عن الهدم الأمني للمساكن الفلسطينية في المنطقتين المصنفتين أ، ب، وهو المسؤول عن ترخيص البناء الفلسطيني والموافقة على المخططات الهيكلية، ....الخ الخ

إيتمار بن غافير:- وزير الأمن الداخلي في حكومة الاحتلال، هو المسؤول عن الشرطة وحرس الحدود، هو المتحكم في الحواجز في كل الضفة والقدس وكل بوابات الأقصى والقيامة والبلدة القديمة في القدس، والحرم الابراهيمي في الخليل، والمسؤول عن أكذوبة قبر يوسف في نابلس، هو من يقرر متى تتم الاقتحامات وكيف وهو الذي يحرض عليها ويجند لها آلاف أفراد الشرطة وحرس الحدود، ويجند الأموال الطائلة لتمويل الاعتداءات التي لا تتوقف ليلا ولا نهارا في عملية فرض هيمنة شبه مطلقة على الفلسطينيين، وهو المسؤول عن السجون والمعتقلات والمتحكم بالأسرى الفلسطينيين والذي صرح بوقاحة بان الاسرى يجب تركهم يموتون في السجون لا أن يعيشون فيها، ويطالب بتشريع قانون الإعدام بحقهم وقد مرره بالقراءة الأولى في الكنيست الإسرائيلي، هو يعتبر كل معلم أثري هو لهم وكل بئر قديم وكل مقام ديني وكل شجرة وكل حجر، لقد قام بفرض التقسيم الزماني على المسجد الأقصى وسمح بإدخال القرابين لتذبح في ساحة الأقصى وجهز البقرة الحمراء التي سيتم ذبحها مع بدء بناء الهيكل المزعوم، لقد ارتكبت الشرطة في عهده جرائم ضد الفلسطينيين أضعاف ما ارتكب في سنوات سابقة، وأبرز هذه الجرائم الاعتداء على المرابطات في الأقصى ليس بالطرد فقط بل بالضرب والاهانة وهتك الحرمات والقتل أحيانا.

- **ومنذ** استلام هذه الحكومة تزاحمت الانتهاكات بشكل متسارع وكأن هؤلاء المجانين يسابقون الزمن لتنفيذ سياساتهم الحاقدة على أرض الواقع، وبالرغم من أنه لم يمر عام على استلامهم لمقاليد الحكم في دولة الاحتلال فقد كانت الانتهاكات منذ استلام هذه الحكومة حتى قبيل السابع من أكتوبر مضاعفة عما كانت عليه في السنوات السابقة، ومنها:-
- **مئات** الاعتداءات على المسجد الأقصى (حوالي 300 اقتحام ، بعضها لأكثر من مرة في اليوم الواحد) وبصورة جنونية حتى في رمضان بأعداد غير مسبوقة من المستوطنين المتدينين (حيث بلغ عدد المقتحمين للمسجد الأقصى حوالي 44000 مستوطن) والاستباحة كانت تتكرر لأكثر من مرة في اليوم وبصورة يومية، المسجد وساحاته لم يعد للمسلمين سوى أثناء الصلوات فقط، منعوا اعتكاف المسلمين في رمضان ومنعوا المرابطات من النساء من حلقات تعلم القرآن واعتدوا عليهم وعليهن واعتقلوا ونكلوا، خرجت مئات صرخات الاستنجاد لمن بقي لديهم شيء من شهامة أو كرامة أو غيرة على الأرض وعلى الحرمات أو على العرض، خرجت صرخات الاستنجاد بالمقاومين في غزة للثأر لكرامة اخواتهم في القدس.
- **الاقتحامات** المتكررة لجنين ونابلس وطولكرم والقتل شبه اليومي سواء للمقاومين أو للأبرياء وهدم مساكنهم وتجريف الشوارع وشبكات المياه والكهرباء والهاتف وخطوط المجاري، هذا فضلا عن **الاعتداء على بلدة حوارة بالهدم والحرق** وتحطيم وحرق السيارات والمطالبة **بإبادة حوارة** وشطبها من الوجود، واستمرار الهجمات على الكثير من المناطق الأخرى حتى التي لا مقاومة فيها، وذلك بحجج مختلفة، لقد تم قتل حوالي (244) شهيدا منهم 45 طفلاً و 6 نساء من الضفة الغربية منذ استلام هذه الحكومة حتى قبل السابع من تشرين الأول، وتم إحراق 8 مساكن فلسطينية، واقتلاع حوالي (9760) شجرة، وتجريف ومصادرة (4100) دونما من الأراضي الفلسطينية، وتم توسيع حوالي (103) مستعمرات وتم انشاء حوالي (34) بؤرة استعمارية جديدة غالبيتها مستعمرات رعوية. وتم **هدم** حوالي (1017) مسكنا ومنشأة -كان المعدل الشهري للهدم قبل هذه الحكومة 79 مسكن ومنشأة في الشهر، أرتفع في عهد هذه الحكومة إلى 113 مسكن ومنشأة **بارتفاع 43%** عما كان عليه سابقاً.

- **إنشاء** بؤر استيطانية رعوية يقوم عليها مجرمون متعطشون للدماء، يقومون بإغلاق مساحات شاسعة كانت تستخدم مراعي للفلسطينيين حتى تصبح حكرا لهم ويقتلون أي ماشية تدخلها أو يصادرونها وينكلون بالراعي ويحاكموه بحجة الاعتداء عليهم وعلى حقوق ماشيتهم! لقد صادروا للاستيطان عبر خمسين عاما حوالي 200 ألف دونم، وصادروا باستخدام خديعة البؤر الرعوية حوالي 500 ألف دونما خلال فترة حكم هذه الوزارة الحاقدة. ولقد فككوا وقاموا بترحيل حوالي أربع تجمعات بدوية فلسطينية بحجة أنها تشكل إزعاجا لهؤلاء المستوطنين!
- **التنمر** على الأسرى الفلسطينيين في المعتقلات الاحتلالية (حوالي 5500 أسير منهم (180) طفل و(36) امرأة، و (900) مرضى أمراض مزمنة وسرطان، و(600) أسرى المؤبدات، وذلك بسحب معظم المنجزات التي كانوا قد حققوها بالجوع والألم والاستشهاد، فقد أعادوا الأسرى لمرحلة السبعينات فعادت المعتقلات أماكن تعذيب دائم والدفع نحو الموت وتجاهل المرضى وإلغاء الكثير من زيارات الأهالي وتجاهل حقوقهم بالعلاج والغذاء والتعليم والتواصل الإنساني وتوفير أساسيات المعيشة.
- **مواصلة** اعتقال جثامين الشهداء (15 جثمان أسير في الثلاجات) وتجاهل سائر المواثيق الدولية التي تحرم ذلك، ويهدف الاحتلال الإمعان في سكب الملح على الجراح الفلسطينية بعنجهية لا مثيل لها.
- **خصم** كل رواتب أسر الشهداء ورواتب الأسرى من مبلغ المقاصة الفلسطينية الشهرية وتقدر بحوالي 30 مليون شيكل.

المشاهد التي كانت قائمة قبل حرب طوفان الأقصى على المستوى العربي والإقليمي:

- تجاهل القضية الفلسطينية وتجاوزها نحو التطبيع مع بعض الدول العربية دون أي اعتبار للحقوق الفلسطينية أو للمبادرة العربية للسلام. أو أي من المبادرات الدولية.
- إضعاف السلطة الفلسطينية في الضفة الغربية بشتى السبل لدرجة الإذلال سواء من اتهام الرئيس أبو مازن بدعم الإرهاب وبمعاداة السامية والتحريض على دولة الاحتلال، إلى اعتبار النضال السلمي هو اعتداء عليهم، واعتبار السلطة ليست شريكا للسلام.

- تجاهل وتجاوز الوصاية الأردنية على المقدسات الإسلامية والمسيحية بالمزيد من الانتهاكات والتحكم بها بالمصلين والإساءة لهم سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين.
- انتهاكات متواصلة للأراضي السورية بحجة الصراع المزعوم مع ايران.
- التخطيط لعمل جولة لأسرى حرب أكتوبر 1973 فوق الأراضي السورية وجبل الشيخ وفوق سيناء المصرية وقناة السويس وبالمرور بحرا من قناة السويس كإجراء احتفالي يؤرخ لبطولاتهم حيث خططوا لتنفيذه في الذكرى الخمسين لحرب أكتوبر في أيام 8+9+10/أكتوبر–تشرين أول/2023 لإعطاء رسالة للعالم العربي بأن إسرائيل انتصرت بالنهاية وها هي تتحرك في كل مكان لأنها صاحبة اليد الطولى في كل أماكن الحرب التي بدأت بهزيمة للجيش الإسرائيلي.
- اعتبار أن الأراضي الفلسطينية ليست للفلسطينيين بل هي أراض يهودية محتلة وهم يقومون بتحريرها بالتدريج، وهم ليسوا احتلالاً بل محررون.
- اعتبار أن إسرائيل هي المعتدى عليها بخطابات كراهية من العرب، وهي تدافع عن حقها في الحياة، أي أن الاحتلال يسوق نفسه كضحية، والشعب الواقع تحت الاحتلال هو من يضطهد المحتل، مفهوم عجيب من الهرطقة السياسية.
- إنكار وجود شعب اسمه الشعب الفلسطيني وأن التاريخ لا يعرف فلسطين فهي أرض إسرائيل فقط وهي تمتد على ضفتي نهر الأردن الغربية والشرقية، أي أن الأردن هي جزء من أرض إسرائيل، بل إن مصر والشام والعراق كذلك.!
- إلغاء كلمة فلسطيني من خطاباتهم واستبداله بكلمة عربي وطبعا ليس ذلك من باب دعم الهوية القومية بل من أجل شطب الحق الفلسطيني واعتبار أن الفلسطينيين يتبعون عالمهم العربي وهو المسؤول عن استيعابهم بعد تهجيرهم من فلسطين طوعا أو قسرا.
- التجاهل الأمريكي التام للقضية الفلسطينية حيث اعتبرت أن هناك ما هو أهم في المنطقة وأن العمل على خلق تعايش عربي – صهيوني هو الأولوية أمامهم.

المشهد الحالي خلال حرب طوفان الأقصى

- **لا يوجد** صراع فلسطيني إسرائيلي ... يوجد احتلال إسرائيلي متوحش عنصري سادي حاقد لفلسطين ويفعل بالفلسطينيين ما لم يفعله أحد بالتاريخ الموثق، وشعب فلسطيني أعزل يعاني الأمرين تحت الاحتلال!!!
- **يطالب** سموترتش بترحيل الفلسطينيين، حيث قال: أرحب بفكرة الهجرة الطوعية للعرب في غزة إلى دول العالم معقبا على مقال لعضوي كنيست هما داني دانون ورام بن باراك في صحيفة وول ستريت جورنال حيث طالبا بصياغة خطة لتمكين مرور اللاجئين من غزة إلى دول توافق على استقبالهم.
- **إعلان** حكومة طوارئ لدولة الاحتلال، وإعلان حالة الحرب ضد المقاومة في قطاع غزة.
- **انفصال** قطاع غزة عن الضفة هو أجمل هدية لدولة الاحتلال، لذا لن تكون إدارة لقطاع غزة لصالح السلطة. السلطة هي كينونة رسمية فلسطينية لأول مرة، لذا سيكون في الضفة ما حدث في غزة فدورها قادم!
- **نتنياهو** كان في وضع سيء جدا قبل 7 أكتوبر داخليا هناك مظاهرات صاخبة تطالب بمحاكمته على مسألة التغيير القضائي، وخارجيا كان شبه مقاطع من الاتحاد الأوروبي وامريكا لمواقف حكومته وسلوكها السيء، استطاع استثمار 7 أكتوبر ليخرج من عزلته داخليا وخارجيا، ضم الد خصومه السياسيين غينتس لوزارة الطوارئ واستغاث للغرب فأغاثوه جميعا بصورة شكلت طوق أمان له شخصيا ولدولة الاحتلال.
- **إسرائيل تفتح** حرب مجنونة على الشعب الفلسطيني الأعزل، من يملكون السلاح جزء بسيط من الفلسطينيين وإسرائيل تضخم ما حدث لها حتى تبرر اجرامها ضد الشعب الفلسطيني الأعزل.
- **اذا لم تكن** هكذا حرب الإبادة فما هي إذن؟
- **طوفان الأقصى** أذهل العالم ، وأوقع القيادة الإسرائيلية في إرباك جعلهم يطلبون النجدة قبل أي تحرك ميداني.
- **هذه المعركة** كشفت عورات العالم الغربي، الضعف العربي، التواطؤ وازدواجية المعايير الدولية والإنسانية والمنظومة القانونية
- **سقط الدور** الأمريكي ويتبعه الدور الأوروبي كوسيط سلام

- **المطالبة** بقصف غزة بقنبلة نووية، قتل الطفل قبل جده لانهم كلهم ارهابيون، اعتبار شعب فلسطين حيوانات بشرية
- **التهجير** إلى سيناء طرح أمريكي لمصر، فلأمريكا مصلحة اقتصادية استراتيجية في ذلك، وهو مشروع استعماري قديم واليوم هو ذو أولوية عالية للالتفاف على طريق الحرير الصيني واستبداله بالخط الهندي عبر البحر الأحمر وخليج العقبة وقناة البحرين تصل المتوسط من أراضي غزة
- **أمريكا** هي التي تدير الحرب بالنيابة عن إسرائيل
- **يرفض** الأمريكان إقامة دولة فلسطينية أكثر من رفض إسرائيل
- **تستخدم** إسرائيل سلاح الوقود والكهرباء والغذاء والدواء والماء كسلاح ضد المدنيين في الحرب لإجبار المقاومين على التسليم واطلاق سراح الاسرى دون مقابل من أجل التوقف عن قصف الأهداف المدنية!
- **ترفض** الدول النفطية والغازية العربية حتى التلويح بالتوقف عن تزويدهم بها اذا لم يتوقفوا عن إجراءات قطع الوقود والمستلزمات المعيشية أو السماح بإدخالها إلى قطاع غزة، وتستمر بتزويد إسرائيل بالنفط والغاز.

مشاهد مستقبلات قطاع غزة ما بعد طوفان الأقصى

سنقدم هنا مشاهد المستقبلات كدراسة للواقع الذي يعقب حرب طوفان غزة مباشرة ، لذا فالمشاهد المدروسة هي المشاهد المستقبلية القريبة جداً خلال السنوات الخمسة الأولى من الآن.

المشاهد المستقبلية المستبعد حدوثها

المشهد المستبعد الأول: دخول دول المنطقة كلها أو بعضها في هذه الحرب لإنقاذ من تبقى من أهالي غزة ، وتتحول الحرب إلى حرب إقليمية موسعة

فهذا مشهد عاطفي لن يحدث في ظل أن غالبية دول المنطقة مرتبطة مصائرها ومصالحها بأيدي الغرب الاستعماري، وفي ظل عدم وجود قوة دولية كبيرة مثل روسيا أو الصين على استعداد للتدخل لردع حلف شمال الأطلسي.

والمشهد المستبعد الثاني: تدمير القطاع، وكسر شوكة المقاومة والسيطرة على الانفاق، واطلاق سراح من تبقى من اسرى العدو مجاناً، وانسحاب الاحتلال من قطاع غزة دون تهجير مواطنيه أو من تبقى منهم، وتسليمه للسلطة الفلسطينية للعودة إلى بدايات مشروع أوسلو

فهذا المشهد لن يحدث لأن السلطة الفلسطينية سترفضه رفضا باتا، كذلك لأن دولة الاحتلال هي من عمقت جرح الانقسام الفلسطيني الذي اعتبرته أكبر هدية تأتيها من أعدائها، فلن تسعى اليوم لمعالجة هذا الجرح بل لتعميقه، وهي من الأصل ضد وحدة الضفة والقطاع، وستسعى لجعل غزة جرح نازف ونزيفه لا يتوقف سواء بالقتال المدمر أو بالاحتواء المجهض –كما حدث لحزب الله في لبنان–

للأسف هذا السيناريو تروج له المخابرات الإسرائيلية ومراكز الأبحاث الأمريكية من أجل المزيد من احتواء الضفة الغربية، واليوم فالأمريكان يتلاعبون ببعض الشخصيات السياسية الفلسطينية الذين قد تنطلي عليهم الاكذوبة الجديدة، "ومغفل من يأخذ بنصيحة عدوة أثناء حربه معه" كما قال الشاعر تميم البرغوثي.

المشاهد المستقبلية لما بعد الطوفان

أولا : المشهد الاول: تقوم دولة الاحتلال بترحيل أهل قطاع غزة إلى سيناء وتوطنيهم فيها أو تشتيتهم في دول مختلفة في قارات العالم البعيدة، كما وتقوم بالقضاء على المقاومة في غزة، وتعيد احتلالها خالية من الفلسطينيين كأرض محروقة، لتنفيذ مشروع قناة البحرين الأحمر والمتوسط – أم الرشراش حتى شاطئ غزة– كبديل استراتيجي دولي لقناة السويس

مبررات نجاح هذا المشهد

- التواطؤ والدعم الغربي بقيادة أمريكا الذين يسعون لهذا الهدف بلهفة تفوق لهفة الصهاينة.
- عجز منظومة الأمم المتحدة عن اتخاذ قرارات ملزمة بالقوة لكبح جنون الاحتلال وأعوانه.

- الموقف الرسمي العربي والإسلامي الضعيف والباهت في أحسن أحواله والمتآمر والمشارك في الأحوال الأخرى، وعدم استعدادهم في استخدام سلاح النفط والغاز ولا سلاح المقاطعة الاقتصادية، ولا بالتدخل العسكري.
- الروح الإجرامية الدموية التي يتصف بها أعضاء القيادة الصهيونية والذين أصبحوا كالوحش الهائج ولا رادع لهم.
- الحاجة الاستعمارية الغربية العميقة لهذا السيناريو من أجل احياء خط التجارة الهندي في مجابهة طريق الحرير الصيني، وهو مشروع قديم جاءت فرصة يعتبرونها ذهبية لتنفيذه الآن.

عوامل فشل هذا المشهد

- القدرة القتالية العالية لدى المقاومة الفلسطينية والتي أرعبت العدو وأذهلت العالم، فقدرتهم على الصمود لفترات لا تخطر على بال خبراء العدو العسكريين، وليس أدل على ذلك من مرور 40 يوما دون أن يحقق الاحتلال أي من أهدافه سوى تقتيل المدنيين وهدم المساكن وهدم الحياة. فلا شعب غزة غادر القطاع ولا المقاومة استسلمت ولا أسرى الاحتلال عادوا.
- الصمود الأسطوري لأهل غزة وتمسكهم بالوطن رغم كل المآسي وابتداعهم وسائل تحدي للجوع والعطش يعجز العقل البشري عن تصورها.
- الموقف العربي عموماً والموقف المصري الرافض لفكرة تهجير أهل غزة إلى سيناء أو إلى خارج فلسطين.
- التحرك الجماهيري العربي الذي بات يهدد باقتحام الحدود لنصرة أهل غزة، وهذا عامل مخيف للاحتلال وللاستعمار الداعم للاحتلال.
- التحرك الشعبي العالمي العارم الذي بات يشكل ضغطا عميقا على الأنظمة الاستعمارية أو المترددة والخائفة.

ثانياً المشهد الثاني: احتلال قطاع غزة احتلالا عسكريا كاملا، واستلام أسرى العدو مقابل بقاء أهالي غزة على أرضهم، مع السماح لرموز المقاومة والمقاتلين بالمغادرة بعد كسر شوكة المقاومة التي تقرر انهاء نشاطاتها العسكرية حفظاً لأرواح ودماء المدنيين الفلسطينيين، وتسليم الشؤون الحياتية في القطاع لإدارة دولية من خلال

الأمم المتحدة التي تسيطر عليها أمريكا، مع بقاء الجيش الإسرائيلي وقيامه بالسيطرة الأمنية والعسكرية متحكماً في القطاع

عوامل نجاح هذا المشهد

- إصرار العدو على التدمير والمذابح بحق أهلنا في غزة دون أي استعداد للتوقف بل والسعي لتطويل الحرب وتهيأت الرأي العام المحلي والدولي لذلك.
- الرفض الأمريكي الكامل لوقف اطلاق النار وكأن أمريكا هي من تدير الحرب بلا هوادة ضد المقاومة وتسعى لتحقيق أهدافها من هذه الحرب.
- خطاب السيد حسن نصر الله أمين عام حزب الله في لبنان والذي حسم مسألة تعدد الجبهات وطمأن دولة الاحتلال بأن لا حرب من الجبهة اللبنانية، وللتدليل على ذلك فقد ارتفعت قيمة العملة الإسرائيلية الشيكل 3% فور انتهاء حسن نصر الله من خطابه.
- نتائج مؤتمر القمة العربية والإسلامية حيث لا ضغط عسكري ولا اقتصادي ولا التلويح بهما، ولا ضغط سياسي أو دبلوماسي، وللدلالة على ذلك فقد ارتفعت قيمة الشيكل الإسرائيلي بنسبة 2% فور صدور بيان القمة العربية.
- الجانب الإسرائيلي صرح في أكثر من مكان وزمان ومن أكثر من مسؤول بأن أصدقائنا ليس فقط راضون عن القضاء على المقاومة بل يضغطون علينا للقيام بذلك! وليس أدل على ذلك من تأجيل انعقاد مؤتمر القمة العربية لما بعد مرور 36 يوما على إعلان إسرائيل وأمريكا الحرب على غزة والدماء تنزف والاشلاء تفطر القلوب! فماذا كانوا ينتظرون سوى القضاء على المقاومة !؟
- التصريحات التي تطالب بتدويل قطاع غزة وهي كثيرة.

عوامل فشل هذا المشهد

- لا تزال تجربة خروج الثورة الفلسطينية من بيروت عام 1982 حرصا على حماية المدنيين فلسطينيين ولبنانيين ماثلة في الأذهان!!! فماذا كانت النتيجة ؟ مذبحة صبرا وشاتيلا وأول اقتحام كان لمستشفى عكا في المخيم قتلوا الأطباء والمرضى واغتصبوا

الممرضات .. هذا العدو غادر وغدره اليوم سيكون أكبر وأفظع، فهذه التجربة لن تتكرر فلسطينياً.

- الجيش الإسرائيلي بلا شك متفوق عشرات المرات على المقاومة من حيث التسليح والتكنولوجيا العسكرية والغطاء الجوي والبوارج في البحر، بالتالي هو قادر على وصول أي مكان في قطاع غزة، لكنه غير قادر على الاستمرار في أي مكان فحرب العصابات الكر والفر انهكتهم من الأسبوع الأول فلا قدرة لهم على المواصلة، والقيادة العسكرية الصهيونية اليوم ليست بقدرة ومهارة وجسارة ارئيل شارون الذي قرر الانسحاب من قطاع غزة وتفكيك كل المستعمرات وترحيل المستعمرين من القطاع عام 2004، كل ذلك قبل أن تكون المقاومة متحصنة في الانفاق.
- الشعب الفلسطيني في غزة يلتف حول فكرة المقاومة بغض النظر عن التنظيم، فكيف اليوم بعد كل هذه الثارات !!!
- تجربة القوات الدولية والتدويل الإداري والعسكري لأي منطقة فشلت حيثما جربت في العالم ، وشعب فلسطين حتما سيلفظها ويفشلها.

ثالثاً المشهد الثالث: توقف الاحتلال عن القتال دون إعلان رسمي بوقف اطلاق النار وانسحاب قواته من قلب غزة وإعادة انتشارها في محيط قطاع غزة، وتوقف المقاومة عن اطلاق الصواريخ أيضا دون أي اتفاق رسمي بذلك، ودون أي التزام من أي طرف بعدم العودة للقتال أو الحرب، وحدوث عملية تبادل اسرى كبيرة من خلال وسطاء دوليين، وترك كل الخيارات مفتوحة للمستقبل

عوامل نجاح هذا المشهد

- لعل انسحاب قوات الاحتلال من قلب غزة هو أفضل الخيارات الأمنية له، يظل حصار القطاع قائم وتظل قدرته وفرصه لقصف القطاع من محيطه قائمة دون الغرق في وحل حرب الشوارع.
- التوقف النسبي للقصف بين الطرفين يعطي فرصة التقاط الانفاس دون قيود تمنع تكرار القتال.

- وقف القتال دون اتفاق .. يحرر الطرفين من الاعتراف المتبادل ويترك لكل طرف منهما فرصة التربص بالطرف الآخر في المستقبل، فكلا الطرفين له مصلحة في ذلك.
- عملية تبادل أسرى كبرى تحقق مصلحة للطرفين أيضاً دون تنازل مبدئي لأي منهما.
- موقف السلطة الفلسطينية الرافض للعودة لغزة على ظهر دبابة إسرائيلية، يمنحها في ظل هذا الخيار العودة الهادئة الكريمة للقطاع ويفتح فرصة للوحدة الوطنية الفلسطينية.

عوامل فشل هذا الخيار

- استمرار حزب الصهيونية اليهودية في إدارة الحكم في دولة الاحتلال، هذا الحزب المتمثل بالمتطرفين سموتوتش و بن غافير الذين يسعون لتكريس فكرة عودة الاستيطان الصهيوني في قطاع غزة، هؤلاء لا يفقهون لا في السياسة ولا في العسكرية لكنهم يتنفسون طقوسا توراتية استعلائية بصورة مجنونة.
- نكث الاحتلال لأي تعهد مع وسطاء تبادل الأسرى سواء أثناء اجراء عملية التبادل أو بعدها، مستنداً للدعم الاستعماري الكبير له في كل خطواته.
- ظهور تصدع داخل منظومة المقاومة في القطاع تجعل الاحتلال وأعوانه يسعون لخلق حالة تقسيم جغرافي وديمغرافي داخل قطاع غزة -لا سمح الله-.

لعل السيناريو المستقبلي المرغوب هو السيناريو الثالث: **توقف الاحتلال عن القتال دون إعلان رسمي بوقف اطلاق النار وانسحاب قواته من قلب غزة وإعادة انتشارها في محيط قطاع غزة، وتوقف المقاومة عن اطلاق الصواريخ أيضا دون أي اتفاق رسمي بذلك، ودون أي التزام من أي طرف بعدم العودة للقتال أو الحرب، وحدوث عملية تبادل اسرى كبيرة من خلال وسطاء دوليين، وترك كل الخيارات مفتوحة للمستقبل**

فهذا السيناريو يترك الباب مشرعاً لنظرية الشهيد أبو جهاد: "قتل الفيل بوخز الإبر"

خاتمة

هذا المنهج هو ما قامت به المقاومة الفلسطينية التي تعرف أنها لن تستطيع هزيمة الكيان الصهيوني المستند لحلف الأطلسي الذي تحرك لإنقاذه حتى قبل أن يبدأ

بالصراخ، لكن المقاومة تستطيع أن توجع هذا الكيان بين الفترة والأخرى، مرات بوخزات الابر ومرات بطعنات الخناجر مما يفقده توازنه المزعوم وتجعله يتصرف بجنون كالثور الهائج فيدمر نفسه قبل أن يدمر أعداءه الذين سيجهزون عليه يوماً مع تحول الظروف العربية والإقليمية والعالمية التي بدأت تتفهم أكثر لعدم شرعية هذا الكيان وعدم انتمائه للمنظومة الإنسانية، وما تحرك شعوب العالم إلا دليل وعي كان مفقودا، صحيح أن ثمنه أرواح وأشلاء ودماء أطفال غزة، لكن التحول العالمي لا يحدث بسهولة، ولعل حملة المقاطعة العالمية لهذا الاحتلال ستأتي أكلها أيضا وستجعل هذا الفيل يتخبط أكثر فأكثر حتى يسقط السقطة النهائية، لقد بدأ الطوفان ولا أظنه سيهدأ قبل أن يجتث من الدنيا هذا الاحتلال.

على مذبحة مُدّنسة بسِفاحٍ إنساني

أ. كامل أبوعلي

كنا وما زلنا نحن في المعهد العالمي للتجديد العربي القوى الناعمة في دعمنا للقضية الفلسطينية نكتب حزننا عن الإبادة التي تشنها الهمجية الصهيونية ضد شعب غزة الصامد تحت الركام رغم الجوع والعطش والبرد، ونساند بكلمتنا عن رفضنا لهذه الجرائم، معلنين التضامن مع غزة الباحثة عمن يعطيها جرعة أكسجين لتقاوم الموت وتعيش، غزة المتروكة وحيدة في هذا الإعصار، تصارع، تنازع، تنادي، دون جواب. يا أهلنا في غزة، في الضفة، في النقب، في كل فلسطين لا شيء يشبهكم، نحن معكم ونحبكم من النهر إلى البحر.

أكثر من مئة عام تزاحمت فيه المخططات الباطلة التي أثمرت دماً ودموعاً من مؤتمر كامبل بترمان إلى صفقة القرن.

أكثر من مئة عام من الخيانات والمؤامرات كانت فيه أرضنا العربية منفى وتاريخنا مآسي.

أكثر من مئة عام ونحن نكتشف كل يوم أننا نعيش مجداً فيه من البطولة الكثير، وعاراً فيه من الخنوع الكثير.

مؤتمر كامبل، سايكس بيكو، وعد بلفور، ثورة القسام، النكبة، النكسة، حرب أكتوبر، مجازر صبرا وشاتيلا، المستوطنات تهويد القدس، صفقة القرن، طوفان الأقصى ووو... أكثر من مئة عام ونحن نكتب الشعارات، نردد الأغاني الوطنية، نقف عاجزين عن تحويل تلك الشعارات الرنانة إلى واقع تسير فيه الجيوش العربية لإنقاذ فلسطين.

تعلمنا أن النظر إلى جسد المرأة حرام، وأن السرقة حرام، وأن القاتل يُقتل. أكثر من مئة عام ونساؤنا تُعَرّى، التين والزيتون يُسرق، ونحن من يدفع ثمن رصاصة قتلنا.

لم نعد نمتلك الألسنة لنعترض لندد، لنبوح بحناجرنا عن مكنونات أنفسنا، لنعبر بحرية ونقول أن كل قوانين الحضارات، كل شرائع الأمم، قد دُفنوا في تراب غزة تحت ركام بيوتها ومدارسها، تحت أنقاض أجراس كنائسها ومآذن مساجدها. أن الإنسانية سقطت

في غزة مع كل شهيد، فألسنتنا باتت للترحم عليهم فقط، حتى ميادينا وساحاتنا أغلقت ضد المظاهرات والاعتصامات. وكأن العالم بأنظمته وسياساته قد اتفق كما لم يتفق من قبل على الدمار والخراب دون رحمة!.

أكثر من مئة عام والمخططات تُطيح بالرؤوس، تذبح الأطفال وتقدمهم قرابين على مذبح إنسانية مغشوشة. ليست البطولة الدعاء بالتهلكة على من يلقي القنابل بل أن نقف بوجه تلك القنابل بصدورٍ عارية.

قبل كل شيء كانت فلسطين أرض الفكر الإنساني الأول لوجود البشر، أرض أريحا أولى المدن، أرض الفنيقيين الكنعانيين، أرض صراع الحضارات ومهد الرسالات الفكرية. منها انطلق الإيمان بالله، وفي ترابها نبتت حكاية نبي وتراتيل قداسة.

الزرع لأهله، والأرض لهم ماضيها حاضرها ومستقبلها لهم. فلسطين الأعمق في الأرض الأقرب إلى السماء، أرض السمو ورمز العقاب، الأرض التي خسفها الله معاقباً أولئك الذين فسدوا وطغوا، وتُعاقب اليوم الضمائر الحية في شعوب ماتت فيها النخوة.

اليوم في غزة شبان خلعوا نعالهم، غرسوا أقدامهم الحافية مع زيتونها الذي يحمل الدفء. فمن يشكك اليوم بعروبة فلسطين فليذهب إلى غزة يرى عروبتها. وراء قرقعة السلاح وأزيز الرصاص، وخلف دوي التفجيرات وآلات القتل، تكمن المآسي من الشرائع التي بصراعها الدموي في تنافسها على أحقية وجودها (المقدّس) تدفن العدالة وتكون الإنسانية ضحية. فلتغض الشرائع الدينية عن بعض حقوقها، وليقضوا على أسباب الحرب في مهدها، لأن الأطفال لهم الحق العيش بسلام بعيداً عن حروب الآلهة وصراع أساطيرها.

اليوم في غزة أطفال يرسمون بالموت ألعابهم الطفولية، يأكلون التراب المغمّس بالدم والحياة. أطفال مولودون على عتبات الزمن، على هوامش الإنسانية، في خيمة لاجئ فوق الخراب. أطفال يعلمون أنهم لن يكبروا، يعدون الأيام ليستشهدوا.

اليوم في غزة نسوة يصرخن أن ارحلوا من حقلنا ومن زرعنا، من بحرنا ومن ملحنا، من سمائنا ومن هوائنا، ارحلوا ليبقى الوطن، لنحيا في أرضنا وفي حقنا.

العروبة ليست ديناً، كما الصهيونية ليس ديناً، ألم تحتل أمريكا أفغانستان والعراق؟ الأفغان ليسوا عرباً، وأهل العراق ليسوا جميعاً مسلمين. فهل يستثني الاحتلال من هم غير العرب وغير المسلمين ممن آذاهم ويؤذيهم؟!. يتحدثون عن حقوق الإنسان، وهم أنفسهم من أبادوا شعب هنود الحمر نهائياً بالقتل العمد فسرقوا أرضهم. أليس من الضروري لمن يحملون لواء حقوق الإنسان أن يكفّروا عن جريمتهم بعدم تكرارها، أو بمنع الآخرين من فعل ذلك كما تحاول الحركة الصهيونية أن تفعل على أرض فلسطين؟.

حان لنا أن ندق ناقوس الخطر ، فالغرب يقدم الدعم بلا حدود من أجل أطماع إسرائيل. حان لنا أن نلعن حاضرنا وننهض من سباتنا، لكني على يقين أن أمتنا تنام وتنام وفي اللحظة الحاسمة تستيقظ لتعيد الحق لأصحابه.

ما قبل طوفان الأقصى ليس كبعده إنها مسألة وجود لكِلا طرفي الصراع، لكن الفلسطينيين ليس لديهم أي خيار سوى المقاومة، فمنذ اليوم الأول لعملية السابع من أكتوبر البطولية رأينا هروبا جماعيا لليهود، واليوم الصحف العبرية تتحدث عن مستقبل دولة إسرائيل والتوقع بزوالها. والإنسان بطبعه يعيش على الأمل ونحن نأمل أن يعود الحق لأصحابه والطوفان هو الأمل، هو استكمال لانتفاضة أطفال الحجارة في 1987.

"إذا حصلنا يوماً على مدينة القدس، وكنت لا أزال حياً وقادراً على القيام بأي عمل، فسوف أزيل كل شيء ليس مقدساً لدى اليهود" ، ثيودور هرتزل.

أنا لا أدعم فلسطين على غرار الأنظمة العربية التي اتخذت من قضيّتها ذريعةً لمحاربة الشعب الفلسطيني، ومحاربة شعوبها. أنا مع الشعب الفلسطيني في كفاحه المسلّح فكرياً وعقائدياً ضد الصهيونية. في هذه الفترة العصيبة التي تعصف بالشرق الأوسط ليس من الصواب أن نسترجع الماضي بأخطائه، أو نراهن على مواقف عربية وإقليمية زائفة. فالموقف يتطلب إنقاذ السمعة العربية كأمة، كون فلسطين قضية عربية قومية بحتة.

في مسرحية بياع الخواتم يقول الأخوان الرحباني: "رح نحكي قصة ضيعة" لا القصة صحيحة، ولا الضيعة موجودة. وهكذا بدأت القصة المزيفة، ففي آب 1897م، عُقد في المدينة السويسرية مؤتمر بازل المسموم، والذي نتج عنه البرنامج الصهيوني لإقامة وطنٍ قومي لليهود في فلسطين. وقصة العودة إلى أرض الميعاد، فكرة روّج لها مؤسّس الصهيونية الحديثة، ثيودور هرتزل، كوعدٍ إلهي: "شعب بلا أرض، لأرضٍ بلا شعب"، وتم من خلاله تهجير يهود العالم إلى فلسطين، وتهجير الفلسطينيين منها. هرتزل، ذلك الصحافي النمساوي/المجري، لم يكن يتحدّث العبرية! ولم يزر يوماً فلسطين. لكنه جَمع ما بين الطموحات اليهودية، ونظرة الغرب الاستعماري لتمزيق العالم العربي.

الله لا يهب أي قطعة أرض! إن فلسطين ملكٌ لساكنيها، ولا يمكن انتزاع ملكيتها. ففي بداية الألفية الثالثة قبل الميلاد استوطن الكنعانيون أرض فلسطين. وقد عُرفت اللغة العربية بجانب الكنعانية والأرامية (لغة السيد المسيح) في فلسطين التي تسمّت أرض كنعان قبل أن تطأ قدما النبي إبراهيم أرضها مهاجراً من مدينة أور في بلاد الرافدين. وهناك أنجب إسحق، والد يعقوب، وإليه يُنسب الإسرائيليون. فيما تسمت المنطقة الساحلية والداخلية التي سكنها الكنعانيون، الذين اندمجوا مع القبائل الكريتية الغازية، باسم فلسطين، وأصبح سكان البلاد كلهم من الكنعانيين العرب. والجميع يعلم قصة هجرة النبي يعقوب وأولاده، بمن فيهم يوسف النبي إلى مصر، والأربعين سنة التي قضاها بنو إسرائيل في الصحراء قبل أن يتمكنوا من دخول فلسطين بعد موت النبي موسى. إلّا أن فلسطين عاشت فترات عدم استقرار منذ أن أسّس الملك داوود مملكته المزعومة في أورشليم، وظهور السيّد المسيح في الناصرة، وقبل أن يفتحها العرب المسلمون في عهد الخليفة عمر بن الخطاب عام 637م.

تناول كثير من الباحثين منقبين ومحلّلين تاريخ أرض فلسطين. وأنا لست بصدد الغوص في غمار تاريخ فلسطين القديم. ما يهمّني هو الإضاءة على القضية المركزية للأمة العربية، وما يتمخض عنها من قضايا فكرية وسياسية حول فلسطين. وليس من منطلقٍ تعصبي أو ديني، ومنعاً للإلتباس، لا يُمكن أن نتناسى وقائع الصراع التاريخي حول المسألة الفلسطينية، إذ أن جغرافيا القضية الفلسطينية رسمتها اتفاقية سايكس–

بيكو عام 1916م، تلك الإتفاقية الفخ الذي نُصبت لزرع العوائق بوجه توحيد الأمة العربية كمشروعٍ يعادي الأطماع الغربية الاستعمارية في المنطقة مستقبلاً.

فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية لم أجد للعدل سبيلاً في عملية السلام، كون العدل لا يُبنى إلا على المصالح ونفوذ القوة في العلاقات الدولية. لذا فإن العالم اليوم مغلقٌ كالجدار في ما يخص فلسطين المتروكة وحيدة لمواجهة الاحتلال الإسرائيلي الوحشي، بيد أن العرب ملوك الطوائف منشغلون بحروبهم الطائفية متناسين القضية بعد أن استغلوها شماعة لمآربهم والحفاظ على كراسيهم الزائلة. كل ما في فلسطين يخص أهلها، التراب والحجر يشهد، وأنى لهم أن يروا؟! ففي مدن صحرائهم دخانٌ أسود، لن يُنبت غير عشب أسود على شواهد قصورهم المُزيفة. وقد أعطت عملية طوفان الأقصى العرب الفرصة لتحقيق إنسانيتهم حيال التحدي الحضاري مع إسرائيل، لكنهم ماذا فعلوا؟ أضاعوا الفرصة، كما أضاعوا الأرض.

ماذا تبقّى اليوم لشعب يريدون له الزوال غير المقاومة والكفاح ليسطعوا بنور الحق. حينها يبثُّ الرعب في قلوب المحتل، مغتصب الأرض، قاتل الأطفال. إن الاحتلال لن يدوم مهما طال الزمن، وإن الإيمان الصادق المبني على الانتصار الحتمي للقضية سيبقى ما دامت أرحام النسوة تلد رجال صدقوا العهد ليكونوا الوعد بالقيامة الحقة، تلك هي الركيزة الأساسية للإنتفاضة. فلسطين واحدة لا تقبل القسمة، هي أنفاق أحمد ياسين، وعودة غسان كنفاني إلى شواطئ حيفا، تنور أم محمود درويش وهي تخبز فطور الصباح، أنشودة سميح القاسم حاملاً على كتفه نعشه ونعش من استشهدوا، هي عشق كل الأسرى الذين ما ضرهم الأسر وهم أحرار النفوس.

الحق الفلسطيني كان الشغل الشاغل للمؤمنين به منذ النكبة عام 1948م، وهو حقٌ وجودي لشعبٍ ثائرٍ حمل على عاتقه حركة التحرر العربي. ويبقى السؤال، إلى متى ستدوم المأساة، والعرب بالكاد يتفقون على شيء! والصهيونية تضحك ضحكتها الخبيثة غير آبهةٍ بالمعايير والقيم؟.

نحن أمام امتحانٍ جدّي في ظل الانقسامات الفلسطينية القاتلة، من إعادة رسم خارطة المنطقة، وما تشهده الساحة العربية من تدميرٍ وتفتيت، ناهيك عن التوسّع الإستيطاني

المقيت، ومحاولات تهويد القدس. لذا يتطلب الأمر منّا تعزيز الوحدة والانتقال بها إلى حالةٍ تواكب نبض الجماهير من أجل بناء حركة تحرّر وطني يتصدى للاحتلال.

ولا بد من القول إن ما يُحاك من مؤامرات ضد فلسطين أرضاً وشعباً، هدفه تصفية القضية الفلسطينية عبر توطين الفلسطينيين، وما يترتب عليه من إغراءاتٍ مالية واقتصادية، ما بين ترغيبٍ وترهيب. لكن علينا أن نعي أن الاغتيال السياسي للقضية لن يمرّ مرور الكرام، ومن دون إراقة الدماء، بالرغم من التخاذل العالمي المقصود.

العنف في غزة حتمي، فرض قوانينه الجائرة التي لا ترحم، منطقه لاإنساني، متوحش لا رحمة فيه، ونتائجه لاأخلاقية، فظيعة ومخجلة. والمطلوب اليوم الإعتراف الصريح أن المقاومة الفلسطينية بصورتها الراهنة هي الشكل الوحيد للتحرير من الإرهاب الإسرائيلي.

القضيّة الفلسطينية: المشروع الصهيوني في مواجهة طوفان الأقصى

أ. يافا إبراهمي

إنّ القضية الفلسطينية هي قضية كونيّة، قلب نزاع لا ينضب يتراوح بين الأمل واليأس وبين الحلم والواقع. فمنذ عقود يعيش الشعب الفلسطيني تحت ظل الاحتلال الصهيوني الجائر، مواجها انتهاكات حقوقه الوطنية والإنسانية، إذ تتجدد المعاناة يوما بعد يوم في فلسطين، بينما الفلسطينيون في الشتات يعيشون بعيدا عن أراضيهم حاملين في قلوبهم الحنين إلى الوطن المفقود. ومن المهم أن يعرف العالم أنّ القضية الفلسطينية هي قصة شعب صامد يناضل من أجل حريته وحقه في تقرير مصيره وليست مجرد نزاع أراض أو صراع حدود، بل هي صراع وجود تتداخل فيه الظروف التاريخية والسياسية وعوامل الاقتصاد والرؤية الحضارية للمنطقة العربية الإسلامية؟

فقد تميزت فترة القرن التاسع عشر ميلادي باضطهاد الأوروبيين للأقليات اليهودية، ممّا اضطرّ أكثريتهم إلى البحث عن مكان جديد لهم في العالم، و قد برزت جمعيات ومنظمات مختلفة، إذ بدأت بشكل محاولات لتجديد الدين اليهودي ومفاهيمه وتقاليده والاهتمام باللغة العبرية ودراسة التراث العبري. وازدهرت في هذه الفترة النشاطات الفكرية الداعية لإعادة بناء الشعب اليهودي في وطنه التاريخي المزعوم، غير أنّ هذه النشاطات لم تحقق هدفها حتى جاءت سنة 1897 التي تعد سنة حاسمة في التاريخ اليهودي، إذ شهد ميلاد الحركة الصهيونية التي أدت دورا فعّالا في لمّ شتات اليهود في العالم حتى قيام الكيان الصهيوني بفلسطين سنة 1948 .

تمثّل الصهيونية حركة سياسية عنصرية متطرفة ترمي إلى إقامة دولة لليهود على أرض فلسطين لتحكم من خلالها العالم كله، حيث تهدف إلى إثارة الحماس الدّيني لدى اليهود في جميع أنحاء العالم لعودتهم إلى أرض الميعاد المزعومة التي تمتد من نهر النيل إلى نهر الفرات و تزييف التاريخ للادّعاء بوعد فلسطين، ومن أهم أهدافها نجد:

- إثارة الحماس الديني لمعتنقي الديانة اليهودية وذلك بتحفيزهم للذهاب إلى أراضي فلسطين بصفتها أرض الميعاد التي يزعمونها.

- محاولة تهويد فلسطين وذلك بتشجيع الهجرة من سائر أقطار العالم إلى فلسطين.

- متابعة تنفيذ المخطّطات اليهودية العالمية السياسية والاقتصادية خطوة خطوة ووضع الوسائل الكفيلة بالتنفيذ السريع والدقيق لهذه المخططات ثم التهيئة لها إعلاميا، وتمويلها اقتصاديا ودعمها سياسيا.

- توحيد وتنظيم جهود اليهود في العالم أجمع أفرادا أو جماعات أو مؤسسات وتحريك العملاء والمأجورين عند الحاجة لخدمتهم وتحقيق مصالحهم ومخطّطاتهم.

- تطوير اللغة العبرية والثقافة العبرية.

وفي 14 آيار 1948 يوم الإعلان عن دولة إسرائيل، أعلن "دايفيد بن غوريون" أنّ أمن إسرائيل يتحقق عندما تكون أقوى عسكريا من أيّ تحالف عربي محتمل، وكانت هذه إستراتيجيتهم لعدّة عقود ولكن سرعان ما أدرك العديد من المخطّطين الاستراتيجيّين الصهاينة أنّ هذه النظرية لا تكفي وحدها لضمان أمن إسرائيل وأنّ ضمان هذا الأمن والحفاظ على قوتها وتماسكها مرهون بانهيار المجتمعات العربية وتمزّقها وتفتّتها وشرذمتها وتناحرها، فهذا ما سعوا إليه، فدرسوا هذه المجتمعات وطبيعة تفكيرها وعللها وأمراضها وأين تكمن نقاط ضعفها واكتشفوا أنّ اختراقها سهل من خلال إثارة النعرات والعصبيات الدينيّة الطّائفية والمذهبية و العشائرية، و خلق هوية مستقلة لكلّ طائفة و لكلّ دين و لكلّ عرق أو قومية أو منطقة بدلا من الهوية الجامعة القائمة على مبدأ الانتماء لوطن واحد و أرض واحدة.

فخطورة المشروع الصهيوني تجاوزت الحدود الجغرافية المعروفة لفلسطين بل مست كذلك الأمن القومي للأقطار العربية، فأصبح المشروع الصهيوني غير معني فقط بإنشاء دولة يهودية في فلسطين و إنما يعنى أيضا بإضعاف الوطن العربي وتجزئته و إبقائه في دائرة التبعية والتخلف في ظل أنظمة عربية ضعيفة غير قادرة على التصدي لهذا الهجوم الممنهج و عاجزة عن اتخاذ موقف موحد لمواجهة مشاريع التفتيت و التجزئة التي يريدها الكيان الصهيوني و القوى الغربية و على رأسها الولايات المتحدة الأمريكية فرضها على الوطن العربي كما نجد كذلك المشروع الخطير الذي اقترحه المؤرخ الصهيوني الأمريكي الشهير "برنارد لويس" و الذي يهدف إلى تقسيم

"الشرق الأوسط" إلى أكثر من ثلاثين دويلة اثنية و مذهبية لحماية المصالح الأمريكية و الصهيونية و يتضمن المخطط تجزئة العراق إلى ثلاث دويلات و سوريا إلى ثلاث و الأردن إلى دويلتين و لبنان إلى خمس دويلات فضلا عن تجزئة السعودية إلى دويلات عدة. و يرى "برنارد لويس" أن كل الكيانات ستشلها الخلافات الطائفية و المذهبية و الصراع على النفط و المياه و الحدود و الحكم و هذا ما سيضمن تفوق الكيان الصهيوني في العقود الخمسة القادمة على الأقل.

هذا بالإضافة إلى أنّ الكيان الصهيوني سعى إلى تضخيم مشكلة الأقليات العرقية والدينية واستغلها ضد أي مشروع وحدوي، وحرضها على التمرد والانفصال. ومن وجهة نظرهم فإن الوطن العربي تتنازعه الانقسامات الطائفية والعرقية والإثنية ومن السهل اختراقه وإضعافه من خلال التآمر مع تلك الأقليات وتشجيعها على التمرد وإقامة دويلات منفصلة عن الوطن العربي لأنّ الدويلات التي تحكمها أقليات دينية وإثنية هي الوسيلة الرئيسية لإضعاف الوطن العربي وتفتيته تأمينا لمصالحهم في المنطقة... فهم يريدون افتعال حروب طاحنة ونزاعات في أطراف الأمة بعيدا عن القضية الفلسطينية، إضافة إلى مد جسور العلاقات مع الأقليات ثم جذبها خارج النطاق الوطني والقومي ولهذا فإن الكيان الصهيوني يسعى دائما إلى إثارة الخلافات بين الشيعة والسنة والأكراد في العراق وبين السنة والعلويين في سوريا، والموارنة والدروز والسنة والشيعة في لبنان وبين الفلسطينيين والأردنيين في الأردن، والسنة والشيعة في المنطقة الشرقية الغنية بالنفط في السعودية، والمسلمين والأقباط في مصر، والشمال في مصر، والشمال المسلم والجنوب المسيحي والوثني في السودان والعرب والبربر في الجزائر والمغرب وفي تونس. كما أن زعماء الحركة الصهيونية لم يرفضوا وجود الأمة العربية فقط بل دعوا إلى إقامة نظام سياسي ثقافي جديد لكي تطمس الثقافة العربية الإسلامية في المنطقة وتعبث بمكونات الوعي التاريخي العربي.

فالهجمة الفكرية الاستعمارية لا تقل خطورة عن الهجمة العسكرية لأنها تمثّل معركة غزو فكري و ثقافي للعقل العربي بغية تحويله ليصبح أداة مطوعة للمخططات الأمريكية والصهيونية. إذ نجد ميزانيات كبرى تقدّر بعشرات الملايين في الدولارات ترصد لهذه الهجمة الفكرية والثقافية والإعلامية، ولكي يتمكن من اختراق العقل العربي

لا بدّ أن يكون ذلك عبر عقول ومفكرين وألسنة عربية، ليصبح خطاب التطويع والإخضاع للعقل العربي أكثر فعالية، لذا يحرص الصهاينة على التغلغل في جوانب المجتمع العربي كلها بغية تقويض الركائز الإنسانية والاجتماعية للإنسان العربي وتحطيم بيته وأسرته من الجذور كي ينسلخ عن تراثه وينقطع عن جذوره فيصبح إنسانا عديم الانتماء فاقدا لهويته.

فالانهيار العربي بات واضحا على صعيد العلاقات بين الدول وداخل الدول: الفرقة، التشرذم، التناحر، الاقتتال، الفقر، الفساد ، الطائفية، الفوضى، الإرهاب، التحالفات الخارجية ضد بعضهم البعض، إلخ...

وقد جاء "طوفان الأقصى" لينسف كلّ ما بناه الكيان الصهيوني منذ عقود و ينسف معه استراتيجياته الأمنية باعتباره عملية دفاعية بامتياز ردّا على انتهاكات الاحتلال الصهيوني و اعتداءات قواته المتواصلة بحق الشعب الفلسطيني و ممتلكاته و مقدساته و لا سيما المسجد الأقصى في القدس الشرقية المحتلة. فقد كشفت الساعات الأولى لمعركة "طوفان الأقصى" عن هشاشة المنظومة الأمنية الصهيونية وعن جبن وخوف ورعب جنود الاحتلال الذين طالما تبجحوا بقوتهم العسكرية أمام أنظمة متخاذلة وأثبتت المقاومة أنها رغم الحصار وضعف الإمكانيات أنّها تملك أوراقا لم تخطر على بال أحد. فطوفان الأقصى هو أكبر عملية شنتها المقاومة الفلسطينية على العدو الصهيوني المحتل الذي أعطاه الغرب ما لا يملك؛ أعطاه أرض شعب فلسطين و دعمه بالسلاح و الذخيرة و المفاعل النووي و القنابل النووية لتبقى قاعدة للاستعمار في أرضنا العربية لنهب ثروات الأمة العربية، و ردّا على هذه العملية قام جيش العدو الصهيوني بشن غارات على منازل تحتوي على عائلات كاملة أفنيت و على مخيمات و مدارس و مستشفيات التجأ إليها الفلسطينيون لتكون مكان استشهادهم. فهكذا قصف العدو الصهيوني كبارا و صغارا، نساء و رجالا أبرياء ادّعاء منه قصف لمواقع حماس...إنها سلسلة من جرائم الحرب التي ترتكب كل دقيقة في ظل حصار كامل في قطاع غزة بقطع الماء الصالح للشراب و الكهرباء و الدواء و الغذاء.

ماذا بعد؟! هذه الهجمة هي ثورة من نمط جديد.. هي ثورة الذين يقولون كما قال طارق بن زياد: " البحر وراءكم والعدو أمامكم"..لذلك على الجهود العربية أن تتوحد من أجل حقوق وحريات مسلوبة لشعب مقاوم ضحى بأبنائه من أجل تحقيق النصر وطرد آخر جندي محتل من أرض فلسطين المقدسة. فهذه الحرب تقول للذين طبّعوا أو ينوون كلّا، فالتطبيع هو خضوع للكيان الصهيوني والاعتراف به وتسليم بأن فلسطين ليست عربية.

فبالرغم من كل التضحيات وسقوط آلاف الشهداء والجرحى فقد قدمت عملية طوفان الأقصى نصرا استراتيجيا للشعب الفلسطيني وللأمة العربية والإسلامية، فقد كسرت حواجز الخوف من الإرهاب الصهيوني وساهمت في توحيد الفصائل الفلسطينية وتعزيز قوتها وإحياء القضية الفلسطينية إلى واجهة المشهد الدولي وفرضت معادلة جديدة في منظومة الردع و هي سلاح الصواريخ مقابل التفوق الجوي والتكنولوجي وحطمت أكذوبة الرّدع الصهيوني بأسلحته ومعدّاته المتطورة ومنظوماته الذكية وأثبتت أنّ إرادة الشعوب المحتلة والمقهورة لا حدود لها. فكلّ هذا العدوان لن يخضع الشعب الفلسطيني في غزّة أو في أماكن تواجده الأخرى ولن تكسر إرادته و سيبقى يناضل من أجل نيل الحرية والاستقلال، فإنّ هذه العملية تمثّل بداية النهاية لمشروع الاحتلال والاضطهاد الصهيوني.

